

الغول

رواية

ارض كنعان (3)
الغول

إلى

الصديق ناهض منير الريس

حبا.. وكرامة

(1)

ركضت راضية مسحورة بين عرائش العنب .. مستقبلة بوجهها هواء البحر المنعش .
.

ها هم أخيراً ينصبون خيامهم في " السيقا" لقضاء أشهر القيظ في كرومهم على عوائد أهل الحارة .. هبت النسمات رقيقة عذبة فتطايرت خصلات شعرها .. وتأرجحت ذوائب الأشجار وأطراف الدوالي .. تراقصت الظلال الداكنة التي تفترش أرض الكروم .. أحست حركة الظلال تتغمش روحها ..لم تستطع راضية أن تحدق في الخضرة المتوهجة تحت أشعه الشمس .. أغلقت عينيها وقد أفعمتها النشوة.

في الشتاء الماضي جاءت لقطف الخبيزة ..كانت هذه الأشجار أحطابا ميتة لا حياة فيها .. ووسط ذلك الخواء كله.. فوجئت بثلاث حبات من التين نضجت في غير أوانها .. قالت لها أمها:

–التينة بتحلم .. الشجر إلو أرواح مثلنا بحس وبتألم .. بنام وبحلم ..التوتة حزنت على أبويه وماتت بعدو بسنة.

وصلت راضية إلى الرمانة شجرتها الأثيرة ..تأملت الثمار التي انتفخت واستدارت مثل كرات النار وهتفت :

- انتي نمتي وصحيتي .

تحسستها بيدها..

- أنا كمان كبرت وتغيرت.

لمست بأطراف أصابعها صدرها الناهد .. وتخيلته وقد أكمل انبثاقه .. وثم تابعت :

- ولسه الخير جاي .

1. السيفا : شاطىء غزة الشمالي

ضحكت .. واوصلت ركضها باتجاه البحر .

هنا تحت هذه الجميزة رأت محمود وسعدة يتعانقان.. لبدت خلف عريشة العنب .. وتابعت اللعبة وقد انقطعت أنفاسها .

كانا يجلسان متواجهين .. سعدة ترتجف مضطربة خائفة .. دعك محمود كفيها براحتيه كأنه يحاول تدفئتها ..رفع كفيها إلى فمه وقبلهما عدة مرات.. التصقت به .. وطوقها بذارعيه .. قبل رأسها وخدها عنقها .. قبل أن تلتحم الشفاه في قبلة طويلة .. استسلمت له سعدة بكل كيانها .. حلقا بعيدا مثل طائرين .. ما أرق ذلك وأجمله .. إنه لا يشبه سلوك والدها الفظ مع أمها.

أبو التوفيق لا يكف عن الشتائم المقذعة حتى وهو يهم بفعل الحب..يمد يده بخشونة حين يداعب أمها .. فتصرخ متألمة وتهرب منه لتحتمي بالأبواب التي سرعان ما يطيح بها بركلة من قدمه.

في طفولتها كانت تخافه أكثر مما تخاف الوحوش والعفاريت .. لم يكن طويلا ولكن ضخامة رأسه وكتفيه .. والشعر الذي يغطي جسده وذراعيه ..

وينبت غزيراً في طاقتي أنفه.. وأذنيه.. وأصابع كفيه ويتهدل من حواجبه وشواربه وذقنه العريضه ..كل ذلك كان يملأها بالرعب.

قال له الحلاق مرة وهو يحلق شعر صدره بالموسى :

- إنت ما بلزمك حلاقة .. إنت يلزمك تسميط .

تمنت دائما ألا تتزوج خوفا من الوقوع في قبضة زوج على شاكلته.. في ذلك اليوم فقط عرفت أن للمسألة وجها آخر.

كانت الجميزة الطاعنة قد قاومت مدى حياتها رياح البحر العاتية التي حاولت اقتلاعها .. لم تقتلعها الريح ولكنها مالت بجذعها إلى الشرق واصلت الجميزة انحناءها عاما بعد عام حتى كادت فروعها تلامس وجه الأرض ..

تسلقتها الدوالي المحيطة بها فبدت دغلا متلتفا يغري بالإختباء عن عيون الرقباء

اندست راضية داخل الدغل الكثيف ومهدت تحتها عروق الدوالي اللينة المتشابكة .. واضطجعت تحدق في السماء المرصعة بالعناقيد .. وأغمضت عينيها مستسلمة لأنفاس البحر.. سرقتها إغفاءة لذيذة .. حين استيقظت وجدت إبن خالها خليل جالسا علي كتف الجميزة يتأملها بشغف .. اضطربت للحظة .

–تزدادين جمالاً وأنت نائمة.

– كنت تراقبني طوال الوقت ؟

– وصلت منذ قليل .. جلست لحراستك .. فنحن في الظهيرة .. والحيات تنشط في مثل هذا الوقت .

قالت تداعبه :

– الظاهر أن العرابيد (1) هي التي تنشط .

– تتبعني دائماً بنظراتك .. وتدللني .. وتحضر لي الحلوى .. لم أعد صغيرة .

– أنت ابنة عمتي وأنا..

أراد أن يبوح لها بحبه .. ولكنه تمالك نفسه فهي لم تزل طفلة بعد.

واصلت استدراجه :

– وإذا عرفت مرتك إنك معي.

– تعلمين ما بيني وبينها.. وأننا في طريقنا إلى الطلاق.

قام من فوره متجها إلى الصيرة حيث نصبوا خيامهم دون أن يتفوه بكلمة .

في الطريق كانت بعض القطوف قد نضجت .. تشاغلت راضية بجمعها ..

واصل خليل طريقة وهو يغمغم :

1 . العرابيد: ذكور الحيات.

- بعض القطوف تنضج مبكرا .. وتلوح على أمها مكتظة بالرحيق .. وبعضها يظل حصرما حتى يجف أو يجمده صقيع الشتاء.

بعد العصر انتجعوا البحر .. سبحت النساء غير بعيد عن الشاطئ بثيابهن الكاملة ومعهن الأطفال والصبية .. أما الرجال فتوغلوا مسافة بعيدة .. اصطفوا في عرض البحر ليتسابقوا من يصل الشاطئ أولا .

الفائز الأول كان خليل .. خرج بجسده النحيل الفارغ وتمدد على الشاطئ يلتقط أنفاسه .. بعده خرج مشعل ثم زوج أخته اسماعيل ثم شقيقه عبد الحميد .

أبو التوفيق تلكأ قبل أن يخرج كأنه ينفي عن نفسه تهمة الإشتراك في السباق .. وحين خرج انحاز إلى حيث تسبح النساء .. فاستقبلنه بالزغاريد .. قال لزوجته وهو يرى أولاده وأحفاده يزحمون الشاطئ:

-كل هادولا منا يا أم التوفيق؟

ردت علية زوجته:

-صلي عالنبي .. ما بحسد المال إلا اصحابوا.

-علية الصلاة والسلام.

تأمل وجه زوجته .. وراودته إبتسامة توجست منها أم التوفيق.

إنضم إلى الرجال .. كان اسماعيل يحدثهم عن تجربته في بناء الآبار:

- الناس يتجهون لزراعة الحمضيات .. بدهم لمون وبرتقال ومندلينا .. وهادي ما بتنفع بعل (1) زي العنب والتين والجميز والتفاح واللوزيات هادي سجره مدللة مية طول السنة .. والمية بدها ابار تصل الفجرة (2) ..

صرنا ننزل في البير عشرين وثلاثين متر.

1. بعـل : الزراعة المتعمده على ماء المطر .
2. الفجرة : الطبقة الصخرية التي تختزن الماء .

قال أبو التوفيق يعابثه :

-المثل بقول الفاحر نازل .. والباني طالع .. لكن اسماعيل عكس الآية .. أول بناء يبني بالنازل .

رد اسماعيل يشرح لهم ما خفي عنهم:

-بناء الآبار تنكيس .. بنبني مدماك علي وش الارض .. لما ينشف بنحفر تحتو وبنبني المدماك الجديد .. هكذا حتى نصل إلى الماء .

أوضح خليل مساعده إلى أوشك أن يتعلم الصنعة :

– كلما كانت الأرض طينية .. كلما حفر الآبار وبناءها أسهل وأقل خطر.. إبيار الرمل مصيبة .. إحنا بنفحر والرمل بهيل.

علق عبد الحميد ساخرا :

-عشان هيك قرقش اخد معاكو ثلاثة أشهر.

قال اسماعيل :

– ثلاثة والا سبعة .. احنا ما بناخد شغلنا مقاولة .. بناخدو يومية .. وقد ما توصل تحصل .

- عند العشاء عادوا إلى مضاربهم في الكروم .. دخل أبو التوفيق الخيمة لتبديل ملابسه .. تبعتة زوجتة لمساعدته .. ما أن انفرد بها حتى ضمها إلى صدره العريض ضمة كادت تزهق روحها .

- تلاوين الصيف يا أم التوفيق .. طول النهار أتامل وشك .. أحمر ومطجن زي صدر الكنافة..

انحدرت كفاه تعبثان بردفيها.

سمعا أصوات عبد الحميد ومشعل يتنازعان علي دخول الخيمة وزوجتاهما تتضاحكان .

- يا زلمه استحي على شيبك .. اولادك ونسايبك علي باب الخيمة.

– عال .. الليلة بعد ما يناموا بتقابليني عند الجميزة.

قالت وهي تتفلت من ذارعيه:

- بيصير خير .. بيصير خير.

أكمل ارتداء ثيابه وخرجا يتصدران المجلس الذي بدأ في الالتئام على بساط في العراء.

كان القمر بدراً .. وعرائش الكروم تستحم في الضوء .. جلسوا ينتظرون العشاء حين فاجأهم الدوش هبوا للترحيب به .. عانق الرجال .. وصافح النساء .. عمته أم التوفيق قالت له وهي تعانقه :

- تأخرت.. انتظرناك علي الغدا .. أخوك خليل جاب " هالقدر" إلى بستاهلوا تمك.

أفسح أبو التوفيق له مكانا إلى جانبه :

- السهرة من غيرك مالهاش طعم .. جبت الربابة؟

- جبتها.

قال مشعل ساخرا :

- جاب الديب من ديلو.

صب أبو التوفيق فنجان قهوة لضيفه من بكرج أمامه .

- الله يمسيك بالخير .

- الله يمسيك بأنوار النبي.

تناول الدوش فنجانه وشرب بتلذذ .

همس اسماعيل لعزيزة وهو يرى المعاملة المتميزة التي حظي بها الدوش :

– أبو كي ضلالي .. والدوش بسبح على سبحو .

أبو التوفيق يقدر للدوش مراجله ..وينتصر به على أخصامه ومنافسيه في كل حرب يخوضها معهم.. فهو قليل العقل يسهل على أبو التوفيق الداهية إقناعه وجره إلى مواقعه .. أما جسده الضخم واكتافه العريضة وزنوده القوية.

فقد كفلت له أن يصبح بطل التبانة (1) في الحارة والميناء والسوق والقوقاني..

جرب نمر الحلواني أن يتحداه مرة في دق الأباط .. افترشه الدوش تحته ولم يقم عنه إلا بعد أن اعترف أمام كل أهل الحاره بأنه مره (2) .

إبراهيم يعمل الآن عتالا على البحر ..

سأله اسماعيل بعد أن اطمأن في جلسته :

- كيف الشغل ؟!
- ما حدا داري عن حدا .. الناس زي يوم الحشر .. عشرين بابور في صدر البحر والجرومة (3) رايحة جاية .. البوابير طشمت(4) .. والرجال انهدت .. وجبال الشعير متل ما هيه .

علق على أبو التوفيق :

–السنة إجت خصاب .. والبوابير مش ملاحقة .. الخوف يدخل علينا الشتا .. تمطر على الشعير .. والا تيجي النوة.. ويسحبو موج البحر.

أجابه الدوش:

- السترة على الله.

أذن خليل لصلاه العشاء .. دعوه ليؤمهم في الصلاة .. لكنه تراجع لمن هم اسن منة .. أبو التوفيق أصر عليه أن يتولي الامامة.

–أنت أكثرنا تقوى .. وأحفظنا لكتاب الله .

أمهم خليل .. بعد الصلاه أحضرت أم التوفيق وكناينها الزعتر والزيت والجبن .. والفلفل الأخضر وصينية البطيخ ووزعت عليهم أرغفة الخبز .. تناولوا عشاءهم في ضوء القمر وهم يسمرون.

بعد العشاء دارت فناجين القهوة .. قال أبو التوفيق :

–صهرنا الشيخ وحيد حاكم الصلح في دمشق الشام.. سيصلنا صباح الجمعة

1. التبانة : المصارعه.
2. مرة : امراه.
3. الجرومه : مفردها جرم .. المراكب تفوق الفلوكة حجما.
4. طشمت : امتلأت.

ليصيف معنا هو وعائلته وسوف نذبح له خروفا .. بلغوا عمي أبو خليل وعمي الحاج أحمد وباقي الوهابية دعوتي لهم .

ثم مال على زوجته :

–مبسوطة يا بنت وهبة؟

–معلوم .. هوه في أحلى من اللمة وجمع الشمل .. يا تري رح يجيبوا محمد معاهم؟؟!!

قال عبد الحميد :

–محمد بتعليم السبع تلسن.. وبكرة بيصير قنصل والا سفير ..وما بستتضف يتعرف علينا .

شخر أبو التوفيق .. ورمق عبد الحميد بنظرة وعيد .. ثم التفت إلى الدوش:

- هات ربابتك يا بو عبدالله وعللنا.

- اخرج أبو الدوش ربابته وقربها من النار حتى اشتدت . فاجاهم بقصيدة جديدة.

أسالك يا رب عشرة مطاليب

ما بينها يا رب تكتب نصيبي

الأولة دار فيها الظل ينـدار

يتواصفنها ناشرات السبيب (1)

الثانية مهرة تسبق الخيل بهجار (2)

ومجوهر في الكف يوم الملايم يصيب(3)

والرابعة يا رب طرشة إبكـار (4)

يوم ييجوا الطراق(5) يتفاولو بالحليب

1. ناشرات السبيب : ذو الشعر الطويل المكشوف
2. الهجـار : القيد في اقد الفرس
3. مجوهر : السيف المزين بالجواهر
4. طرشة إبكار : النوق التي تلد لاول مرة
5. الطراق : الضيوف الذين يطرقون بليل

والخامسة حرمة تكرم الضيف مرار

وتجبر خاطري بولد نجيب

والسابعة عزوة (1) عالكون جسار

و نعدل بها لو مال الحق الطنيب (2)

والثامنة ستر الولايا من العار

في مجلس الفساه هرج يصيب

والتاسعة حجة للنبي المختار

واقعد على العتبة واشاهد حبيبي

والعاشرة تعتق جسمي من النار

وفي جنة الفردوس تجعل نصيبي

تعالت أصوات الربع مؤيدة مطالب الدوش العشرة.

- أي بالله..
- أي نعم..
- هادي المطاليب إللي بتستاهل .. سلم إفمك يا بوعبدالله.

لم يسأله أحد إن كانت من تأليفه .. فهم يعرفون أن ابراهيم (الدوش) أو (أبو عبد الله) كما يحلو له أن ينادوه.. لا يعطي الإجابة الصحيحة .. وأنه يحور القصائد علي كيفه .. يدخل قصيدة في أخرى.. ينسب لنفسه اليوم ما ينسبه لغيره غدا .. أو العكس لذلك فقد تعلموا أن يكتفوا بالسماع.

تابع مشعل السخرية بالدوش :

– ما أظنك ستحقق واحدة من هذه المطالب طوال حياتك.

أوجست أم التوفيق من مشاكسة إبنها المتواصلة.. وخافت عليه غضبة .. فقالت لكنتها زوجة مشعل :

1. العزة الجماعة التي يعتز بها
2. الطنيب : الجار

–نادوليني الطبلة وقومي ارقصي لجوزك.
رنت الطبلة أم التوفيق ..صاحبها الجميع بالتصفيق .. لم تقم زوجة مشعل .. ففهمت أم التوفيق أنها تعترض على وجود خليل والدوش إبني أخيها .. الدوش أعزب وخليل على وشك أن يطلق زوجته ومشعل لن يرضى بأن ترقص زوجته أمامهما .

راضيه أنقذت الموقف ..تحزمت ورقصت .. فهي صغيرة ولا أحد يحملها محمل الجد .. زغردت لها أمها:

حوطتك بياسـين

وزهر البسـاتين

يا راضية يا مصحف دهب

عاصدور السلاطين

لعلت الزغاريد في سماء السيفا .. غنت عزيزة لشقستها مشعل .. وغنو جميعا معها:

عالأوف مشعل أوف مشعلانـي

ما أنا محاكيته هوه إللي حاكاني

❋ ❋ ❋

عالأوف مشعل نازل عالطاحونة

يا شوارب مشعل بالعطر مدهونة

تلبق لمشعل الفرس مزيونـة

والسيف مسقط والبارود ألمانـي

انشرح صدر اسماعيل فرفع ركبته عن ركبة عزيزة التي التصقت به منذ بدأوا سمرهم .. واخذ يرندح مواويله التي تحرك الحجر:

ما بين غزة ومرج عيون يومين

ويا صدرو ..ملعب الخيال يومين

أنا عاشرتو سنة وما تقول يومين

وعشرة يوم ما تربي صحاب

❋ ❋ ❋

-16-

كحلة عيونك علمتنا الولدنة

كحلة عيونك................

❋ ❋ ❋

على خد المليحة ورد تبنا

شباب وعن دروب العيب تبنا

خزناك يا المحبوب قمح صافي لقيناك تبنا

خفيف وطيرك نسم الهوى

❋ ❋ ❋

حيي الزمان إللي جمعنا ولمنـا

حيي الزمان ....

❋ ❋ ❋

شبعوا رقصا وغناء.. وانفض سامرهم .. آوت النساء إلى الخيمة ونام الرجال مواضعهم يفترشون البساط ويلتحفون سماء الصيف الرحبة.

حينما تأكد أبو التوفيق أنهم أخلدوا إلى النوم تسلل الي الجيمزة منتظرا زوجته .. ولكنها لم تحضر .. نفذ صبرة فاتجه إلى الخيمة حيث قدر أن النساء تغط في النوم .. رفع ذيل الخيمة في الموضع الذي ظن أن زوجته تهجع فيه:

- إصحي يا أم التوفيق يا كوم البندورة.

رأى عجيزتها الضخمة على ضوء القمر .. هزها بيده .

كانت قد غطست في النوم ..علا شخيرها.. هزهابعنف .. انقلبت على جانبها الآخر... واصلت النوم .. أطبق على قدميها .. سحبها خارج الخيمة .. استيقظت تضاحك البنات وهن يتابعن محاولات أبو التوفيق لإيقاظها .. أحست بالحرج وحتى تنفى تورطها في اللعبة .. صرخت بأعلى صوتها:

-حرامي ... حرامي

هب الرجال إلى عصيهم وتقاصيرهم (1) وهم يتصايحون .. حين هموا به .. اكتشفو أنه أبو التوفيق .. قال الدوش:

- داهية توجي الدب .. لما يحب

تكسو عصيهم وعادوا إلى مجالسهم وأرجلهم لا تقوى على حملهم من الضحك .. أما أبو التوفيق الذي اكتظ فمه بالشتائم فقد أقسم على قتلها وتخليص العالم من شرورها.

- أنا حرامي يا قحبة .. والله لأصورك قتيلة.

هجم عليها .. هربت من الخيمة تجري وتتعثر في أذيالها .. تبعها وهو يرغي ويزيد إلى أن غابا في الظلام .. خفت شتائم أبو التوفيق حتى لم تعد تسمع .. وعلا هدير البحر

قال خليل:

-البحر اكبير الليله.

رد الدوش وهو يخلد للنوم:

-مهما كبر.. بيضل صغير

-لم يعرف خليل إن كان الدوش يعني البحر .. أو أبو التوفيق

(2)

لم يكن الشيخ وحيد البتير يتوقع كل هذا التكريم في غزة مسقط رأسه.. ولكن يبدو أن المقالات التي يكتبها في مجلة حكام الصلح .. والشروح التي يضمنها اجتهاده في المسائل الشرعية وجدت صدى واسعا بين العلماء والوجهاء وأرباب التكلم.

اجتمع صفوة القوم في بيت السيد أحمد عارف الحسيني مفتى الديار الغزية .. ورغم الحساسيات التي كانت تشوب العلاقة بينهم .. نتيجة تنافسهم على زعامة المدينة . والوظائف القليلة التي تركها لهم الأتراك بعد أن استأثروا بالوظائف العالية والمهمة .. إلا أنهم حرصوا جميعا على المشاركة في تكريم ابن مدينتهم وأعلم أهل زمانه.

قال الشيخ عبد الله المنشاوي صديق الشيخ وحيد وزميل دراسته :

-الشيخ وحيد نابة من يومه.. وقد كان مثار إعجاب أساتذته في الأزهر الشريف..وحسد زملائه وأقرانه .. ورغم أنه قصير نحيل إلا أنه كان واثقا بنفسه معتدا بها إلى أقصى درجات الإعتداد .

قاطعه الحاج سعيد الشوا رئيس اليلدية مثنيا على الشيخ وحيد:

- أي هيه الرجال بتتكتل بالصاع ؟؟!!

تابع الشيخ عبد الله مداعبا صديقه :

- أذكر حين عدنا بالسفينة من بولاق إلى غزة هاج البحر وأرغى أزبد .. صار الموج كالجبال صعد الشيخ وحيد إلى السطح وضرب بقدمه ظهر السفينه وصاح بأعلى صوته (تأدب يا بحر... فما عليك إلا بحر مثلك) .

ضحك الحاضرون .. وابتسم الشيخ وحيد:

-ذلك عنفوان الصبا يا شيخ عبدالله .

قال المفتى:

-على أيامنا كانت الدراسة في الأزهر هي الدارسة الوحيده المتاحة .. أما اليوم فمعاهد العلوم الحديثة في استامبول أصبحت قبلة للشباب.

أسر لهم خليل بسيسو:

-ولدي عاصم أرسل كتابا من اسطنبول يقول انه انضم إلى المنتدى الأدبي لشباب العرب.

علق الشيخ وحيده البتير:

- المنتدى الأدبي يصدر مجلة ((لسان العرب)) وهي تبث الروح القومية وتوعو إلى توحيد العرب وإعادة مجدهم التليد:

أكد المفتى :

- نعم .. لقد كثرت في الآونة الأخيرة أمثال هذه الجمعيات التي تطالب بالحقوق العربية .. كالجمعية القحطانية في مصر والجمعية الإصلاحية في بيروت والنادي الوطني العلمي في بغداد .. وجمعية العربية الفتاة في باريس .. ومنذ انضم ولدي مصطفى إلى المنتدى الأدبي في اسطنبول وهو مواظب على تزويدي بما يقع يده من نشرات هذه الجمعيات.

كان رئيس البلدية يعرف مدى كراهية رجال الإتحاد والترقي لهذه الجمعيات.. وما يبيتونه لها من الغدر .. ويوجس مما ينتظر الدولة العلية من تفكك إذا اختلف العرب والترك .. لذلك لم يتوان عن تحذير الحاضرين.

-هادي مسخرة.. إحنا ودينا الأولاد على اسطنبول عشان يتعلموا ويجيبوا الشهادات العالية .. مش عشان يناطحوا السلطان .. ويحاربوا الدوله العلية ..إللي بتلم شمل المسلمين و بتوحيد كلمتهم.. الحمد لله ابني رشدي

عاقل .. منكب على دروسو .. مش زي أولادكم .

قاطعه المفتى. :

-ولدك رشدي يا حاج هو أول من انضم إلى المنتدى وشجع الباقين على الإنضمام إليه.

ضرب الحاج كفا بكف :

- ضاع الولد .

تدخل الشيخ وحيد البتير لطمأنته :

- لا تقلق يا حاج .. لا خوف عليهم البتة .. طلعت بك وزير الداخلية شارك في مؤتمر باريس الذى عقدته هذه الجمعيات .. وحين عاد اصطحب معه صديقنا العزيز عبد الكريم الخليل رئيس المنتدى الأدبي ومعتمد الشبيبة العربية .

إلى الآستانة ووقع معه اتفاقية بين المركز العام للإتحاد والترقي وهيئة الشبيبة العربية .

قال الوجيه احمد حلاوة:

-هل اطلعت يا شيخ وحيد على بنود هذه الإتفاقية؟

- كلا.. ولكنها على ما علمت تدعو إلى تحسين أوضاع الولايات العربية وزيادة مشاركة العرب في إدارة شؤونهم وشئون الدولة.

قال المفتى:

- العبرة ليست بالإتفاقيات .. العبرة بالتنفيذ .. إن هذه الدولة منذ استولت عليها جماعة الإتحاد والترقي وهي تسير من سيئ إلى أسوأً.. ولا نراها تستأسد إلا علينا .. حين يتعلق الأمر بثورة بلد عربي كاليمن ترسل الجيوش تلو الجيوش لإخضاعه .. وتسوق أولادنا ليموتوا هناك بالآلاف .. أما في البلقان فهي كالنعامة تغرس رأسها في الأرض .. وتسلم البلاد إلى الكفار قطعة بعد أخرى.

ساد الصمت برهة .. قبل أن يتدخل رشيد أبو خضرا أحد كبار الملاك:

- لقد غزت ايطاليا سواحل ليبيا .. فلم تحرك الدولة العلية ساكناً وتركت أهلها يواجهون مصيرهم الأسود ولو لا المتطوعون وأتباع السنوسي .. الذين قادهم البطل عزيز المصري المصري لضاعت ليبيا كلها.

علق أحمد حلاوة:

-هذه دولة ينخرها السوس.. الفساد والمحسوبية والرشوة

قال الحج سعيد متأففا:

– أنتو بتعدو سيئات الدوله العلية .. وما بتعدوش حسناتها ..تدخل يا شيخ وحيد.. أنت من أكابر الدولة .. إنت حاكم صلح دمشق الشام.

تردد الشيخ وحيد في الإدلاء بدلوه:

– وماذا تريدني أن أقول يا حاج ؟

همس المنشاوي في أذنه ساخرا:

–قل ما قاله مالك في الخمر.

تصدى خليل بسيسو للحاج سعيد وكان قد خسر رئاسة البلدية لصالح الحاج:

- حدثنا أنت عن حسنات هذه الدولة .. إن كان لها من حسنة غير منحك رئاسة البلدية .

أدرك مضيفهم أنهم سيشتبكون في ما لاطائل وراءه وخاف أن يفسدوا عليه وليمته .. فاستنجد بالمنشاوي:

– يا شيخ عبد الله أنت لاتخفى عليك خافية في غزة .. فهل تعرف لماذا تأخر صاحبك سالم السروان عن تلبية دعوتنا اليوم ؟

- السروان غارق في حب فتاة إسمها سعدة من حارة التفاح .. جاءت تتبضع من دكانه .. نظر إليها نظرة أورثته ضر أيوب .. وحزن يعقوب .. وما زال يميل رأس والدها بالمال .. مستعينا عليه بفقر الحال وكثرة العيال حتى قلب والدها لخطيبها ظهر المجن .. وما أظنه إلا سيحظى بها قريبا

علق سعيد أبو رمضان مستنكرا:

- يتزوجها على نسائه الأربعة يا شيخ عبد الله؟

أجاب المنشاوي ساخرا:

- لقد طلق زوجته الرابعة قبل شهر ولا أخاله سينتظر يكمل العدة.

علق المفتى ساخرا

-السروان يتذرع أمام زوجاته بحجة أن كل خلفته من البنات .. وأنه يتزوج عليهن عسى أن يرزق بولد يحفظ إسمه .. ويكون سندا لهن ولأخواته .

سمع المفتى تصفيق زوجته فعلم أن الخوان أصبح جاهزاً .. أشار لضيوفه: تفضلوا على ما قسم .

قاموا إلى غرفة الطعام .. فاجأتهم مناسف الأرز المفلفل المغطاة باللحم والشحم .. كان استخدام الأرز قد بدأ يشيع في ولائم الأغنياء بدلا من البرغل .. قال الشيخ عبد الله مازحا:

-العز للرز ..والبرغل شنق حالو.

تضاحكوا جميعا ماعدا الحاج سعيد الذي بدا مهموما .. لقد كلفته رئاسة البلدية الكثير .. انتصر على جميع منافسيه .. وأمضى في الرئاسة ثمانية أعوام ..بينما لم يعمر سواه إلا لسنوات قليلة .. وها هو أكبر أولاده الذي أرسله ليدرس الحقوق في اسطنبول .. يتسلى بمعاندة الدولة .. ويلعب مع الكبار لعبة لا تحمد عقباها.

قال أحمد عارف الحسيني لضيفه الحاج سعيد وقد لاحظ فتور همته في الإقبال على الطعام :

-لعلنا أفقدناك شهيتك يا حاج بحديثنا عن اسطنبول

تدخل حسني خيال مداعبا:

-الحاج يختصر في أكل الرز واللحم ليترك متسعا للكنافة .

رد عليه الحاج سعيد:

-هوه فيه حدا بتعدى عليك يا أفندي .. ما إنت في الكنافة نورج حلبي .

قال المنشاوي:

- الأرز واللحم مهما اكتظت بهما المعدة.. لا يغنبيان عن الكنافة ..

يقول الرواة الثقاب(في المعدة خلوة.. لا تملؤها إلا الحلوى)

حين عاد الحاج سعيد إلى البيت قال لزوجته:

-كبري السبوبه [1] يا أم رشدي .. إبنك داير في اسطنبول شرات .. شقاوات .. و وإذا انحبس بدنا خرج مال عشان انطلعوا من الحبس .

ضربت على صدرها بلهفة:

يا خيبتي .. ومع مين وقتو يا حاج ؟.. انشاالله مع ناس إنجباريه زي حالاتنا إللي نقدر عليهم.

-وقعتوا مع أعلى ناس يا أم رشدي.

- اولاد باشوات ؟!

-يا ريت .

- باشوات.

قال وهو يتهالك على كرسيه:

-وقعتو مع السلطان يا أم رشدي .. وابنك بدو يهد كل إللي بنيتو.

1. السبوبه : ما يدخر من المال.

رفع أبو التوفيق الطنجرة المقلوبة على الصينية .. عبقت رائحة الملفوف الشهية .. مد الشيخ علي البتير يده إلى قطعة من ضلع الخروف الذي يتوج الصينية..

-بسم الله الرحمن الرحيم.

دسها في فمه .. سمعت راضية قرقعة العظام اللينة تحت أضراس عمها ورأت فيضا من الشحم يسيل على ذقنه العريضة .. ازدرد الشيخ علي ما طحنته أضراسه بتلذذ ومسح براحة يده ما سال من الشحم.

-عظامه مثل الملبن.

ابتسم أبو التوفيق:

-كول يا شيخ وادعيلي .. ملفوف على لحمة خروف أوزي .

دس الشيخ علي حفنة من أصابع الملفوف في فمه وأدارها نصف دورة ثم ابتلعها دفعة واحدة و التفت لأم التوفيق :

-سلمت يمينك يا زوجة أخي .. هكذا الملفوف .. وإلا فلا .

تحلق أولاد أبو التوفيق وكنائنه على الصينية .. ظلت راضية وأمها واقفتين على خدمة المائدة .

أشار أبو التوفيق إلى الصينية :

-كل هادا من راس ملفوفة واحدة .. أنا ضمنت ساقية النخل علشان أزرعها ملفوف .. الأرض اخدمها بعقل يتعطيك بجنون .. أي روح اتفرج يا شيخ علي كل ملفوفة قد قبة السيد هاشم.

غص الشيخ علي من سرعة ابتلاعه الطعام فأشار لراضية الواقفة على رأسهم بإبريق الماء تناول الإبريق .. لم يشرب من البعبوز ولكنه أدار فوهة الإبريق إلى فمه ودلق الماء حتى ذهبت غصته .. ناولها الإبريق..

انتهز فرصة خلو فمه من الطعام ليشرح لأبناء أخيه ما خفي عنهم:

– أبو كم لم يتعلم في الأزهر لأنه بكر أبيه وساعد ه الأيمن .. لكنه تعلم من جدكم مراد البتير أسرار الأرض ومواسمها .. حين يضمن كرم الزيتون أو كرم اللوز يعرف على وجه الدقة كم حبة سيثمر .. ولولا قيامه على إدارة البد (1) وأملاك والدنا لمتنا جوعا .. نحن أشقاؤه العلماء الذين نعيش على الراتب .. فنقبض شهر ونستدين أشهرا

استغفر أبو التوفيق ربة واستدرك بتواضع :

–الدنيا مش مصاري وبس.. إنتو أهل العلم والدين وإللي ببركتكم بتصلح البلاد وقلوب العباد.

انتشي الشيخ علي وتمايل فخرا وهمس في أذن شقيقه :

– أوتدري ما حصل أخوك عطاء الله من الوظائف في مسراطه (2) :

قالت أم التوفيق بلهجة فصيحة مقلدة حديث الشيخ علي :

–وماذاك؟

قهقهت راضية فزجرها أبوها بنظرة أخرستها .

حشرة الشيخ علي خمسة أصابع من الملفوف في فمه دفعه واحدة .. لاكها وازدردها قبل أن يصرح بالجواب:

– إماما .. وقاضيا .. ومدرسا .. ومدير أيتام .

تمايل أبو التوفيق طربا وعلق:

–بخ .. بخ.

واصلوا التهام الطعام حتى اختفى جبل الملفوف تماما ولم يبق في الصينية إلا العظام التي جردت من اللحم.

1.البد : معصرة الزيتون.

2.مسراطه : مدينة ليبية.

حملت أم التوفيق الصينية إلى الخارج و أحضرت راضية طشت النحاس ..
ووضعته أمامهم وصبت من الأبريق على أيديهم واحدا بعد الآخر ثم ناولتهم خرقة
نشفوا أيديهم بها واتكأوا في مجلسهم منتظرين الشاي.
احضرت ام التوفيق صينية الشاي وهي تبرطم فقد اكتشفت إن النمل قد وصل الي
رؤس السكر المخباه بعناية في سلة معلقة بسقف الغرفة .
_ وين اروح من هالنمل النمل اكل الحارة يا شيخ علي .. الناس بقولو النمل ما
بطلع علي حرب او رحيل .
تنهد الشيخ علي..
فهذة ليست المرة الاولي التي سمع اهل الحارة فيها يتذمرون من انتشار النمل قال
في سرة : ساجعل حديث العصر في المسجد هذا اليوم عن النمل تناوو شايكم
بصمت:
قال ابو التوفيق:
- كان الشاي مشروب والاغنياء وعلية القوم ولكنة الا اصبح مشروب والضيافه في
كل بيت .. صار منافسا قويا للقهوة.
علق الشيخ علي وهو يتذكر ايام تلمذتة بالازهر الشريف :
- حين وصل مشروب الشاي الي مصر اول مرة .. انقسم العلماء حولة بين محلل
ومحرم . بعضهم احلة وداوم علي شربة .. وبعضهم افتي بانة بدعه .. وكل
بدعه ضلالة.
- انهى الشيخ علي ارتشاف كاسة واستاذنهم في الانصراف الي المسجد .
- بعد الصلاه جلس المصلون في انتظار درس العصر .. تحدث الشيخ علي عن
النمل ومخلوقات الله التي هي((امم امثالكم)) وافاض في الحديث حتي وصل
الي قوله تعالي ((حتي اتوا علي وادي النمل قالت نمله يا يها النمل ادخلو
مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنودة وهم لا يشعرون))..
- دخل المسجد نمر الحلواني .. الاعور.. الاجدر وكان قاطع طريق شرير لا
يحلل ولا يحرم

ولم يؤثر .. عنة قضاء فرض او سنة حتي انهم كانو يسمونه ابليس .

جلس ابليس امام الشيخ على وتجشأ .. عبقت رائحة الخمر في المسجد كله ..

أوجس المصلون خيفة .. تأمله الشيخ كما يتأمل المرء داهية حلت به قال في نفسه

: إجا مقطوع الإيد والرجل .. ثم أكمل حديثه عن النمل..

-ذكر ابن كثير في تفسيره للآية الكريمة هذا الخبر:

أورد ابن عساكر عن طريق اسحق ابن بشر عن سعيد عن قتادة عن الحسن أن هذه النملة التي كلمت سيدنا سليمان كان اسمها حرس و أنها من قبيلة يقال لها بني الشيصان وأنها كانت عرجاء.

-يا سيدي الشيخ نمر الحلواني:

- يا سيدي الشيخ علي يا بحر العلوم .. يا أبو العريف.. يا قطب الغوث.. أنا زلمة موسوس و إيماني أرق من ورقة السيجارة .. لكن عشمان في الهداية على إيدك.

عليق شيخ الحارة ضاحكا:

-عشم ابليس في الجنة.

ضحك المصلون .. ولكن الحلواني لم يكترث لسخريتهم.. وضع يده في صدره وأخرج حفنة من الهوام .. أطلقها في المكان وتابع:

-يا شيخ علي انبئنا بأسماء هؤلاء ؟ ومن أي القبائل هم؟

حملق المصلون في الكائنات البشعة التي أخذت تدب في أرجاء المسجد وتهامسوا بفزع:

-جراد ؟! جراد؟!

واصل الحلواني إبتزازه :

-النمل وحده ليس كافيا لعقابكم على اقترفتم من الآثام فأرسل الله عليكم _ الجراد .. جراد سوف يسد غدا عين الشمس ومن يدري ماذا ينالكم بعده ؟! يا قوم عاد وثمود

انطلق ابليس إلى خارج المسجد يقهقه ينادي بأعلى صوته:

-توبوا إلى الله .

-تدافع المصلون منطلقين إلى حقولهم لإستخلاص أقواتهم من أفواه الجراد .

نتف أبو التوفيق خصلة شعر من طاقه أنفه.. تأملها.. ثم فركها بين أصابعه بعصبية وطوح بها بعيدا:

-ضاع الملفوف .

نظر إليه شقيقه الشيخ علي مشفقا:

-يا متبت العقل والدين.

بذل أهل الحارة جهودهم في مقاومة الجراد.. دقوا له على الصفيح.. وأنشدوا الأدعية والابتهالات .. أشعلوا الحرائق في الحقول لكي يثنيه الدخان عن النزول بواديهم .. لكن ذالك كله ذهب أدراج الرياح.

تأمل الشيخ علي البتير ساقية النخل بعد رحيل الجراد .. لم يبق من حقل الملفوف الاخضر إلا سيقانه البيضاء العاريه .. قال لشقيقه أبو التوفيق :

-كأنه عصف مأكول .

أهل الحارة الذين كافحوا أول موجات الجراد ببسالة انهمكوا الآن في جمع فلوله وشوائها على النار .. أو تحميصها في أفران الطين .

نظر نمر الحلواني لزوجته وبناته الثلاثه .. وهن يتلذذن بامتصاص أفخاذ الجراد المشوي .. وتذكر أهل الحارة والكارثة التي حلت بهم وقال متشيفا:

إللي ما بتاكل في هناه .. كول في عزاه.

أخيرا نضجت الثمرة التي انتظرها السروان طويلا.. فمنذ رأى سعدة وهو يصر على إقراض والدها المال .. ووالدها يصر على أن يعطيه وصل أمانه مقابل كل قرش يستلمه.. والآن جاء أوان القطاف.. فإما سعدة على طبق من ذهب ..أو السجن.

هتف خميس أبو زر وهو يغالب دموعه :

أنا الواوي إللي بلع المنجل .. لعب على شيبتي يا سعدة .. وهالقيت يا الجيزة ياالحبس .. برضيكي انحبس وأمك وإخوانك يتشردوا في الشوارع .

هكذا جرها والدها بقسوة إلى المواجهة .. وعند النيا ما في حيا .

–هيه كلمة .. محمود بس.. محمود ولا قبلو ولا بعدو.

–يابا إحنا مش قدرة السروان.. وألا ضيشو.. هادو لا يقولوا للجمل بس .

–والله لو شنقوني .

–قالت أمها :

– إيش حيلتو محمود .. إلا الفقر والقل .. يا حسرتي بشتغل قطروس (1) عند إخوتوا وأولاد عمو .. لما بقسموا زيت الوادي .. بعطوه من الشاة ودنها .. والله السروان ما بتعب.. زلمة غني مقتدر مغرق نسوانو في القمايش والدهوب.

– يا أمه حرام عليكي.. خافي الله.. اتربيت أنا ومحمود من صغرنا.. نمنا على مخدة وحده ليلة في بيتهم وليلة في بيتنا.. نروح الأعياد سوا .. ونحضر الزفة في الأعراس وإيدي في إيدو.. ولمن كبرنا قريتو فاتحتنا وسلمتوني الو..أروح معاه موسم جد الزتون وحدي .. وأصيف شهور القيظ مع عيلتو في السيفا .. وهالقيت بدكم تجوزوني غيرو .. إيش ضل مني بعد

1.قطروس : اجير باللقمة.

هيك أعطيه للجوز.. أنا أعطيت محمود روحي.. وعقلي .. وجسمي .. أنا مش بنت .. أنا مره .. وإذا جوزتوني للسروان بفضحكم فضيحة بجلاجل .

مسح والدها دموعه :

- وهادي كمان ما فاتتني .. حكيت للسروان على كل شئ .. قلتلو أنا مش مغسل وضامن جنة .. ليلة الدخلة لمن تيجي إيدها عند رجلها .. تقول غشتوني .. إضحكتو عليه .

سألت أمها بلهفة :

- وإيش قالك يا خميس ؟

- قاللي بدي إياها على عبلها .. وإن فيها عيب .. أنا أبو مسامح .

صرخت سعدة :

- سافل .. ديوس .. هادا بنعطى يابا؟؟!!

إنهارت تبكي بحرقة وهي تعدد وتلطم خديها .

قال والدها لأمها :

- دعيها تبكي حتى الصباح .. لقد التقيت أمس بكبير الوهايبة .. أبو خليل الذي قرأ معي فاتحة محمود وأبلغته بأن القسمة غلبت .. وسعدة إجاها نصيبها .

تقلبت سعدة على شوك فراشها حتى ناموا .. أحست أنها تختنق .. قامت إلى الفناء .. هبت نسمات باردة رقيقة على وجهها .. تنشقت رائحة الليل .. سمعت عواء بنات آوى الطويل المجروح كالأنين .. كانت إذا ضاق صدرها في طفولتها تصعد إلى سطح الدار تراقب الحارة وهي تشغي بالناس خلال النهار أو في الليل حينما تستلقي الحارة هادئة تحت جنح الظلام .

سطح الوهايبة .. كان أهل محمود مازالوا يسمرون .. سمعت عمه الحاج أحمد يقول لشقيقه أبو خليل كبير الوهايبة .

-الحمد لله على سلامتك يا أخويا .. بعد هالمرضة إللي طالت وطولت .. بكره غداك .. إيش جاي على بالك ؟

كان صوت أبو خليل واهنا من طول رقاده .. ولكنها ميزت حديثه جيداً :

- نفسي في السماقية .
- غالي والطلب رخيص .. و الله لأعملك سماقيه يوحل فيها الطور (1) .. كل الوهايبة ونسايبهم معزومين عندي بكره .. بس تعالوا بدري عشان تساعدوا محضية في الطبخ والنفخ وأنت يا محمود بتوصل عمك أبو خليل على حمارة الحنجوري .. عمك بدو ركوبة هادية .

قال محمود:

– بيصير خير يا عمي .

إهتز قلبها بشدة .. أحست بجسدها كله يتفتح .. تمنت أن تلوذ بصدره كما تعودت أن تفعل كلما فاض بها الحنين .

تذكرت حين فعلا ذلك أول مرة .. كان عائدا من سهرة مع أصدقائه في حارة الزيتون .. حيث الغناء الشجي .. وأبيات العتابا والميجانا على أنغام الشبابة .. ألقت على رأسه بحصاة .. نظر إلى السطح فأيقن أنها هناك .

تسلق الجدار الفاصل بين الدارين .. واستلقى إلى جوارها .. فاردا ذراعه .. حين استقر رأسها على ذراعه طواها بذراعه الأخرى .. اختلطت أنفاسهما .. حومت شفتاه على وجهها مضطربة حائرة قبل أن تستقر على شفتيها وتطبع تلك القبلة الرقيقة الذاهلة .

أجفل كلاهما بعد القبلة الأولى .. وحبسا أنفاسهما .. ابتلعت ريقها وصدرها يعلو ويهبط .. فجأة تخلصت من ذراعيه وولت هاربة إلى الدار حتى كادت تزل قدمها وتسقط من حالق .

1. الطور : الثور .

في الليلة التالية وجدت نفسها مسحوبة إلى السطح في إنتظاره .. لم تقذفه بحصاة هذه المرة .. جالت عيناه تبحثان عنها وكان قلبه دليله .. حين ضمها إلى صدره كانت الشفاه أكثر ثباتاً واقتحاماً .. انتبتهما الحمى .. دار بهما السطح .. ودارت كل

سطوح الحارة .. ومازالت تدور كلما نظرت إليها سعدة وتذكرت ليلتها تلك ..
استعادت نفسها من الذكريات و أرهفت السمع مأخوذة بهدأة الليل .. كان السمار قد انصرفوا .. وأخلد الوهايبة للنوم .. سكت عواء بنات آوى .. خيم على الحارة سكون مقبض .. فجأة رأته أمامها .. محمود بلحمه وشمحه .
لعله سمع خطواتها تدب على طين السطح أثناء السهرة فانتظر حتى خلت الدار .. ألقت بنفسها بين ذراعيه وهي تجهش بالبكاء :

- أبويا باعني يا محمود .. ويوم الخميس بدو يكتب على سالم السروان .
- إطمئني يا سعدة .. قبل ما ياخدك السروان .. رح آخد روحو .

صرخت بفزع .

- بدك تقتلو يا محمود .. وتقضي حياتك في الحبوس .

لطمت خديها .

- يا وردي عليكي يا سعدة .. وين كان مخبالك .

أمسك بكفيها ..

- إهدي يا سعدة .. بلدنا صارت غابة .. والناس ديابة .. وإللي ما بركن على دراعو بضيع .
- خلينا نهرب يا محمود .. خدني على يافا .. على الشام .. على جنهم الحمرا .. بس ما تلوث إديك بدم .
- إنت حلوة كتير يا سعدة .. وكل بلد بنوصلها راح يطلعلنا سروان جديد .. يحط عينو عليكي .. إذا ما حميتك اليوم راح انضل أنا و إنتي مشردين بهالأرض .

لا تضمنا فرشة .. ولا يهدا راسنا على مخدة .. الليلة خللينا نتودع من بعضنا .. و إللي بنزل من السما بتتقلى الأرض .

خلع ديته وفرشها على السطح .. استلقى على ظهره كما فعل في ليلتهما الأولى وفرد ذراعه .. ألقت رأسها على الذراع المفرودة وغيبهما العناق .

* * *

كان اسماعيل قد أنهي بناء المدماك الأخير في بئر السمري .. ثبت الدعامات الخشبية جيدا في قاع البئر .. و أمرهم إلا يسحبوا شيئا من مائه حتى لا تجب الأرض تحت البناء .

- إن دلوا واحدا تسحبونه قبل جفاف المدماك الأخير قد يؤدي إلى انهيار البئر كله .

- حين سحبوه إلى وش الدينا .. كما كان يسمي فوهة البئر .. تمدد على الأرض يطلب الراحة بعد عناء العمل .

انشغل خليل بتنظيف أدوات البناء .. حين دعاهم السمري إلى الطعام .. سكب قدر الخبيزة الذي يغلي في كشكولة (1) الفخار .. طافت قطع الفلفل الأحمر على وجه الحساء .. تنشق القوم رائحة الطعام الشهية .. فتحلب لعابهم .. مد خليل يده إلى نصف ليمونة وعصرها أمامه .. كسر رغيفه وغمس قطعة كبيرة منه في وعاء الخبيزة حتى تشبعت بالمرق الساخن .. دسها في فمه .. ولاكها بتلذذ .

لم يكد يغمس قطعة الخبز الثانية حتى سمع الصريخ .

- محمود طعن السروان في القيسرية .. والعسكر ترسوه (2) في الحبس .

نفض الجميع يدهم من الطعام .. وهرعوا عائدين إلى الحارة والهواجس تلعب بهم.

حين وصلوا كان الوهايبة مجتمعن في بد نسيبهم أبو التوفيق يقلبون الأمر على وجوهه .. ورغم أن أبو خليل قد عاوده المرض بشدة إلا أنه حرص على الحضور .. فالمسألة دم مش لعبة .

قال الحاج أحمد :

- حكيم استرلي (1) أكد لي أن الإصابة غير قاتلة وأن السروان سيعيش .

رد أبو خليل :

- الإحتياط واجب .. لاتغادروا الحارة حتى يعود الوجوه ومعهم العطوة .. عوايد الناس وعليكم تجنب القيسرية والسوق الفوقاني وخط الشيخ فرج .. إحنا مش ناقصين .

كان الدوش يغلي فهو يحب إبن عمه محمود .. وطالما تطارح معه مواويل العتابا والميجانا .. وشجعه على حب سعدة .. بل وغبطه على ذلك .. هو الذي لم يكن وسيما مثله ولا جميلا مثل خليل ولا غنيا كأولاد عمته إم التوفيق فتاة تحبه أو تلتفت إليه .. ولو لا زياراته للبيوت المشبوهة لما عرف للنساء طعماً.

غلى الدم في عروق الدوش :

- يا عمي المعتدي أولى بالخسارة .. هادا زلمه إعتدى علينا .. وخطف إللي بين إيدينا .. وصلت للعرض .. هوه العرض داشر .. وهالقيت بدكو تحبسونا في البيوت مثل النسوان .. إيش يقولوا الناس علينا ؟؟!!! أنا طالع لهم الظهر الأحمر .. و خللي حدا من دار السروان يتعرض لي .

3.استرلي : مبشر إنجيليكاني للكنيسه الأنجيلكانيه .. زاول الطب في غزة .

أخذته الحماسة .. وانتفخت أعطافه .. فتمثل بشعر عنترة العبسي :

حكم سيوفك في رقاب العزل

وإذا نزلت بدار ذل فارحل

خانته الذاكره .. فارتجل بقية القصيدة من عنده :

يقول عنتر في الزمـان الأول

أكرب حزامك لا تعيش مرهدل

وجنة بالذل لا نرضـي بها

واجهنم بالعز أطيب منـزل

قال له الحاج أحمد :

- فشيت قلبك يا ابن أخويا .. ما هوّا الكلام ضراط التُم .

تحسس الخنجر المثبت في حزامه وهتف :

- إنتو مش وهايبة .. إنتو أرانب .

إنطلق إلى الخارج كالعاصفة .

(5)

ما أن شفي السروان من طعنة السكين حتى بدأ يتهيأ لحفلة عرسه .. قال لشوكت بيك قائد الجندرمة :

- الفرح فرحين .. فرح بالسلامة وفرح العرس .

أجابه شوكت بيك :

- معلوم لازم زينات مملكات .. وليالي مسرات .

وكان بها .. دعى السروان أصدقاءه من الحكام الأتراك و وجهاء المدينة إلى عرس لم تشهد غزة له مثيلاً .

صواني الأرز واللحم إمتدت من باب بيت السروان حتى سباط المفتي .. و نادى مناد في المدينة (يا جعان العيش) .

نمر الحلواني الذي ألحقه السروان بخدمته حديثا .. وباقي ألاضيشه (1) دبكوا أمام بيته حتى منتصف الليل على أنغام الشبابات .. ولم يتفرقوا حتى نالوا من سيدهم مكافأة سنية .

في آخر الليل جمع السروان أصدقاءه من كبار الترك و وجهاء المدينة .. في غرفة الجلوس الرحبة .. وغنت لهم عشيقته السابقه فضة التي جاءت من يافا :

لارسل سلامي لسالم
ما حدا من العشق سالم
وأنا عافراقهم بتألم
دلوني عا على حبيبي
دلوني عا على حبيبي

* * *

1. ألاضيشه : صبيته .. أتباعه .

عالبنيه .. عالبنيه
يا حلاوه سكريه
يا حلاوه سكريه

والله ما بنسى هواهم
لو حكم حاكم عليـه
لو حكم حاكم عليـه

***

لارسل سلامـي لسالم
ما حدا من العشق سالم
مـا حدا من العشق سالم

في آخر الليل حين شربت فضة و طربت .. خلعت حذاءها .. رقصت نصف عارية على صواني الكنافة .. التي ازدحمت بها أرضية الغرفة .

قال المنشاوي لجاره شوكت بيك قائد الجندرمة وهو ينحي قوارير القطر جانبا :

– لا داعي لصب القطر (1) على الكنافة .. بعد أن جرى عليها العسل .

قهقه شوكت بيك الذي طوح به السُكر وهو يتأمل بياض ساقي فضة وفخذيها:

– أمان ياربي أمان .. كنافة كانت بالجوز .. صارت بالجبنة.

اختلى السروان بمساعده الجديد نمر الحلواني وسأله :

– صحيح إنت إبليس ؟

تأمله الحلواني بعينه الوحيدة .. أدرك أن معلمه في ورطة .. وأنه سيلجأ إليه طلبا للنصيحة:

1. القطر : السكر المغلي .

–ابليس قليل علي .. أنا شيخ الأباليس.. أنا إللي بعلمهم البلسنة .. وبفننهم فيها.
–بركاتك و بركات أباليسك كلهم تشوفلي صرفة مع سعدة .

–أعطيها طناش .. النسوان ما بذلهم إلا تركهم وفقي مرارتهم .
– كيف أعطيها طناش ؟ الليلة الدخلة .
– حط راسك ونام .. و الليله الجاية إبدا الدورة مع باقي نسوانك .. ولمن يصلها الدور في المرة الثانية ..حط راسك ونام .. خليك مطنش ..لغاية ما تطلع من إخنانها .. وتبدا تساومك .. انت ابن سوق .. وابن السوق بيبيع وبشتري.

دخل السروان على سعدة.. فوجدها ترتعش كطير مذبوح .. عمل بنصيحة الحلواني.

علق طربوشه وفك الغبانية عن وسطه .. انفتح قنبازه على طوله واندلق كرشة كبطن حامل في شهرها السابع .. أحست سعدة بالغثيان .. ولكنها تحاملت على نفسها موطدة العزم على مقاومته ببسالة .. ألقي بالغبانية على الكنبة .. علق القنباز.. وارتدي جلبابه .. لم يبادلها كلمة واحدة .. استلقي في الفراش .. وأخلد للنوم .. حين استيقظ لبس ملابسه.. ذهب إلى دكانه دون أن يعيرها التفاتا.

في الليلة التالية بدأ دورته عند نسائه الثلاث الأخريات.. فأدركت بأنه لن يعود إلى غرفتها إلا في اليوم الرابع .

تركت باب الغرفه مفتوحا.. فما عسى أن يصنع الضرائر بها ..حتى الموت كان أهون عليها مما هي فيه.

تسللت طفلة شقية إلى الغرفة .. لعلها في الثالثه من عمرها.. تأملتها سعدة.. ابتسمت لها الطفلة وركضت باتجاهها.. فتحت سعدة ذراعيها بعفوية وضمت الطفلة

.

وصلت أمها فوجدتها تغمر وجه سعدة بالقبلات .. تأملتها سعدة وهتفت :
- لا بد أنك زوجته الثالثة .

- كيف عرفت ذلك ؟
- أنت صغيرة السن .. فائقة الجمال ..ولعل هذه طفلتك الأولى .

جلست المرأة إلى جوار سعدة على الفراش .

- إسمي عاتكة.
- و أنا سعدة .

انحات عقدة لسانها .. حكت لعاتكة قصتها كاملة .

قالت عاتكة:

- لقد تجاهلك في الليلة الأولى .. وسوف يتجاهلك طويلا .. هادي خطة إبليس .. سمعته ليلة عرسك وهو يشرحها للسروان .

قالت سعدة وقد استثارها الأمر :

- ثم ماذا ؟
- سوف يغرق نساءه بالهدايا .. ويتعمد مدحهن وتدليلهن أمامك .. وسيبدأ بي فلن يدعني أجلس إلا على ركبتيه .. وسوف يقبلني أمامك .. وتيتمادى في تقبيلي .. ويطلب مني أن أضحك وأذون بين يديه حتى اشعل الغيرة في قلبك .. وسيطلب من نساء البيت أن يتركن لك القيام بالعمل والخدمة طوال النهار .. وأن يكن لك الزجر والإهانة حتى تسود الدنيا في وجهك .. وتلجئي إليه طلبا للعدل والإنصاف .. وتعطي له الخامر والفطير .

تعاطفت نساء البيت كلهن مع سعدة حين عرفن أنها تريد الطلاق وأنه يرغمها على البقاء .. وحكين لها طرفا من قصصهن مع السروان .. وما يفعله بهن عندما تلد احداهن أنثى جديدة .. كيف يرغي ويزبد ويهدد بطلاقهن جميعا.. ويواصل زنجاته السريعة بحجة رغبته في انجاب ولد يحفظ اسمه .. ويكون سندا لهن .

بادلت سعدة السروان تجاهلا حتى فاض به الكيل .. وأدرك أن خطة إبليس فشلت.. لم تؤت ثمارها.

أخيرا قال لها دون لف أو مداورة:

– طلباتك يا بنت أبورز.

قالت دون أن يطرف لها جفن:

–الطلاق .

–ليس قبل أن أنالك .. فقد تكلفت الكثير.

أطرق هنيهة ثم قال :

– تعاشرينني معاشرة الأزواج شهراً كاملاً ثم يكون لك ما تريدين .. وبغير ذلك ستبقين أسيرة بيتي .. وسوف يطول أسرك إلى ما شاء الله .. فكري على مهلك .. وحين يصلك الدور في المرة القادمة.. تبلغينني الجواب.

ارتدي ثيابه وهم المغادرة .. تعلقت ثيابه كما يتعلق الغريق بقشة :

– قبلتْ .. على أن تطلق سراح محمود قبل أن تنالني .. وأن تعيد لأبي كل الحجج التي كتبتها عليه

– ير السروان بوعده .. أطلق محمود من السجن وأبرأ ذمة والدها من كل دينه.. واستسلمت له سعدة.. كما تستسلم الشاة لجزارها .. على أمل أن يطلقها بعد شهر كما وعدها

(6)

نهنه خليل دموعه .. وهو يصغي لإبن عمه محمود الخارج من لتوه بعد محاولته الفاشلة لقتل السروان :

- لقد بنى عبد الوهاب والد جدنا محمود هذه الفستقية (1) عند وفاة جوهر وقسمها بجدار في الوسط .. للفصل بين الذكور والإناث .. والدي رحمه الله هو أوسط

أبناء جدنا محمود .. أما الأحفاد فاسماعيل أكبرهم .. أحضر العتلة وساعدني في إزاحة الصخرة .

وضع خليل طرف العتلة تحت حافة الصخره وضغط عليها .. انزاحت الضخرة جانباً .. تسللت من الحفرة رائحة عفن عتيق وتبددت عتمة طال حبسها .. هتف محمود وهو يحدق بعينيه إلى الداخل :

- دستور يا أهل القبور.

لم يكن يتوقع رداً .. لكنه أحس بالقشعريرة .. خيل إليه أن عظام الموتى تقرقع داخل الرمس.

حين أكمل خليل إزاحة الصخرة .. رأيا بوضوح الهياكل العظمية التي استغرقت في رقادها الأبدي كان حارا خانقا .. مسح محمود جبينه بإصبعه ورشق ماتجمع من العرق على التراب .. ومد نظره يتصفح الراقدين .

-هدولا إللي كانوا يقولوا للأرض اشتدي ما عليك قدي .. عمروا الديار .. أحبوا وكرهوا .. فرحوا وحزنوا .. انتصروا وانهزموا .. وهاهم رقود في ضجعتهم الأخيره بين يدي من لا يغفل ولا ينام .. أنظر .. هذه رفاة جدي محمود الذي أحمل اسمه .. لقد شارك في حفر الترعة (2) كان يتاجر بالسلال والمقاطف المصنوعة من البوص وسعف النخيل ويبيعها للمتعهدين بأسعار

1. الفستقيه : القبر الجماعي .
2. الترعه : قناة السويس .

عالية..و لولا بنات بحري(1) اللواتي اكتشفن الطريق إلى خيمته فتسللن إليه تحت جنح الظلام .. لعاد من مصر بثروة كبيرة.. كان له جسد عملاق ووجه طفل .. وتلك النظرة التي تشعل النار في سراويل النساء.

تنحنح خليل:

- أذكروا محاسن موتاكم.

رد محمود ضاحكا:

-لعل هذه أكبر حسنة نالها في حياته.

أرسل آب أنفاسه اللاهبة التي تشو الوجوه قال محمود : هادي نفاخات البلح .. أحس بالشمس تدق يا فوخه .. تلفت حوله يبحث عن ظل يتقياه فلم يجد .. قفز إلى داخل الفستقية يستنجد بما فيها من العتمة والرطوبة.. استلقي على طوله في المكان المعد للميت .

-منها خلقناكم وإليها نعيدكم

قال خليل في نفسه وهو يتابع حركات إبن عمه:

- منذ تزوجت الفتاة التي أحبها برجل غيره .. وتصرفاته تزداد غرابة يوما بعد يوم .. وغدا عندما أطلق أخته زينب سيضرب الجنون العائله كلها .

تنهد خليل وهو يتابع محدثا نفسه:

لأول مرة أحس أن الموت يجيئني مقرونا بالفرج .. مات أبي وأصبحت حر نفسي وسيدها.

قام محمود نصف قومة وأخذ يتوغل في القبر تحت السقف الواطىء محاذرا أن يتعثر في عظام الموتي حتى وصل إلى نهاية الفستقية.

- ها هو جوهر أول رجل دفن في هذا المكان .. عظامه ملاصقه للجدار.. يا للعجب رغم ما سمعناه عن شدة سواده إلا أن عظامه ناصعة البياض لا تكاد تميزها عن عظام جدنا وهبة.

1.يجرب : بنات بحرى تطلق علي الفتيات في ساحل مصر الشمالي

مرت لحظات من الصمت أحس فيها خليل بالقلق على إبن عمه .. مد نظره يبحث عنه داخل القبر فرآه أسفل الفتحة وفي يده عظمة ساق.

- هذه ساق جدنا عبد الوهاب .. كان يسعي بها الي مخدع الخاتون .. بنت الصدر الأعظم .. يشرب ويقصف معها اليوم بطوله .. إلى أن خنقها التفكجي ..فتحول بطل الحب الي بطل للحرب لا يشق له غبار.

وضعها إلى جانب ساقه مقايسا ثم قال لخليل:

-كان أطول مني بثلاثة قراريط.

أعاد الساق إلى مكانها متابعه حديثه:

- هذه رفاة عمك عبد الله صغير أبناء عبد الوهاب .. كان صواما قواما متصدقا.. أقرب ما يكون إلى جده يونس خلقا وخلقا .. وهذه رفاة..

سمعنا أصوات المنشدين تقترب.. ظهر في طليعة الجنازة صبية يحملون سعف النخيل وارتفع صوت أجش:

-سبحان من قهر العباد بالموت .

قفز خارج الرمس .. مد بصره إلى الموكب القادم .. تهادى النعش .. خلفه كوكبة من المشيعين يتقدمهم عمه الحج أحمد أصغر أحفاد عبد الوهاب الذي صار عميد العائلة الآن .. تذكر ماكان يقولةوالده عنه (عمك أحمد سنديان عكس.. إما أن ينكسر أو يكسر تروس الساقية كلها) ..

ثم تبين فيهم شقيقة اسماعيل الذي أنهى عسكريته لتوه .. وأخاه غير الشقيق مدحت الذي تجاوز العاشرة .. ثم أبناء عمه محمد .. وابراهيم الملقب بالدوش ورزق .. ثم ابني عمه محمد من زوجته الصغرى فايز وفايق .. قال في سره :

-هذه سلالة عبد الوهاب من الذكور لم يتخلف عن الجنازة إلا نساء العائلة

ألحدوا الميت إلى حوار الدارجين من أهله حريصين على أن يكون وجهه إلى القبلة .. ديب الغتيت المقريء الأعمي .. وقف على حافة القبر يبصر الميت بمسالك الآخرة ويلقنه:

- يا عبد الله .. يا ابن أمة الله .. اعلم أن ملكين سيرسلان إليك .. فإذا سألاك من هو ربك قل هو الله .. ومن نبيك قل هو محمد رسول الله .. ما هو دينك قل هو الاسلام .. ما هو كتابك قل هو القرآن .. وانطق لهما بالشهادتين ليكونا لك وقاء من النار .. لا اله الا الله محمد رسول الله.

ثم التفت الغتيت إلى الحاضرين وسألهم :

- ماذا تشهدون في أخيكم ؟

قالوا بصوت واحد:

–من أهل الخير .

أشار الغتيت بردم الحفرة فأحكموا غطاءها وأهالوا عليها التراب .

تقبل رجال العائله العزاء في ميتمهم وحين انصرف المعزون انتحي مشعل البتير بابن خاله وساله:

- هل سمعت النبأ ؟ زكي باشا قائد الجيش الهميوني الرابع .. أعلن التعبئة وسوف يتم استدعاء جميع الذكور بين العشرين والاربعين للعسكرية .. فماذا تنوي إن تفعل؟

– أجابه بحزم:

–نويت إن أطلق زينب بالثلاثة طلاقا بائنا لا رجعة فيه.

نظر مشعل بخبث إلى القبر وخاطب الميت:

–لا تغضب يا خالي لانه سيطلق ابنة أخيك .. خليل يريد أن يتفرغ للجهاد في سبيل الله والسلطان بعد أن شبع الدنيا.. ثم تابع في سره .. راحت عليك يا زينب .. قبل الزواج كنت دميمة فقط بعد الزواج صفعك خليل فسقطت بوجهك على الموقد .. انفطس أنفك وأصبحت كاملة الأوصاف.

انتهت أيام العزاء في الفقيد الغالي.. اختلي خليل بعمه أحمد :

– أنت مكان أبي الآن .. وأنت كبير الوهابية.. ولك علي السمع والطاعة إلا في قرار إتخذته ولا رجعة فيه .

أجاب عمه دون لف أو موارية:

- طلاق زينب؟؟

- نعم يا عماه .. أنت تعلم أن أبي أكرهني على الزواج بها .. ولكنه لم يستطع أن يكرهني على معاشرتها .. أطعته فيما أملك .. ولن لم يكن لي حلية فيما لا أملك ..

قال أحمد في نفسه:

-كيف أستطيع منعه وقد طلقت أنا زوجتي وأم ولدي حسن فور عودتي من عسكريتي المرعبة في اليمن.. كانت أجمل نساء الحارة .. وأرجحهن عقلا .. لكن ذلك لم يسكن شكوكي المجنونة ... أخذتها بالشبهات والظنون .. طلقتها وتزوجت محضية العوراء الدميمة التي يسود كنها الجدار .. يومها قال أهل الحارة :عاد من عسكريته نصف مجنون .. والآن اكتمل جنونه .

تابع خليل بإلحاح:

– أعلم أن أبغض الحلال عند الله الطلاق .. ولكن أليس ذلك خيرا من أن يقتل أحدنا الآخر؟

ذات يوم وقع أحمد أسيرا في قبضة ثوار اليمن .. هالهم بياض بشرته وزرقة عينية فظنوه كافرا .. ربطوه إلى جذع شجره وانهالو عليه بالعصي حتي تمزق جسده وهم يدمدمون:

-يا لرومي .. يا لرومي.

عبثا أقسم لهم أنه مسلم وموحد بالله مثلهم وأنه جاء مجاهدا في سبيل توحيد كلمة المسلمين ونصرة سلطانهم .. أخيرا أخذ يجأر لهم بعدية ياسين وسورة البقرة .. كفوا عن ضربه .. سألوه من أي البلاد هو.. أخبرهم أنه من القدس الشريف .. تلمسوه براحات أيديهم ومسحوا عن ثيابهم تبركا:

-قدس الله صخرة الله .. قدس الله صخرة الله.

تشجع وقال لهم .. الإدريسي عميل للإنجليز وخائن لله وللسلطان..

وأنتم باتباعكم له تمزقون كلمه المسلمين .. وتكونون سببا في ضياع الملة والدين .. عادوا إلى ضربه وقد ازدادو عنفا وشراسه .. زاد هياجه:

-خونة.. خونة .. خونة .. خونة

سمع صدي كلمته يتردد بين قمم الجبال:

-خونه.. خونة.. خونة .

قبل لحظة من سقوطه مغشيا عليه.. كان العذاب قد بلغ مبلغه .. أحس بأن روحه تشف من كل جلدة .. وأنها بدأت تغادر جسده إلى برزخ الأرواح .. قبل أن يغرق في الضباب الأبدي .. تجلت له مدينة يغمرها الضوء .. أسوارها شاهقة .. لبنة من الفضة .. ولبنة من الذهب .. قناطرها من الفيروز والزمرد .. أعمدتها من المرمر .. ترابها من التبر وحصباؤها من المسك والعنبر .. على بابها تصطف الحور العين .. كل حورية يرى مخ ساقها من شدة البياض .. إنحنين أمامه وناجينه بأصوات لم تسمع الخلائق مثلها:

-يا عبد الله .. أنت قسمتنا نصيبنا من الدنيا.. ونحن نصيبك وقسمتك من الاخرة.

أشرن له بالدخول .. وحين هم بأن يفعل سقط من حالق .. ظل يهودي حتى ارتطم بالأرض .. فتح عينه فرأى الثوار حوله وسمعهم يتصايحون:

- مات .. مات.

حين أفاق من الغيبوبة نسي كلما لحقه من تعذيب وتذكر الرؤيا .

قال له مفتي الطابور حين روى له القصة:

-نلنها يا عكاشة[1] .. تلك جنات عدن.

1. أشار إلى الصحابي عكاشه الذي احتال ليقبل كتف النبي (صلعم) فنهأه الصحابة على ذلك بقولهم (نلتها يا عكاشه)

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها جنات عدن .. حين جمعوا عساكر البُلك [1] الذي ينتمي إليه بحثوا عمن يجيد الكتابه والقراءة فما وجدوا غيره .. عينوه بلك أميني سلموه على رصيف الميناء في يافا الجراية المفروضة للبُلك طوال رحلته إلى اليمن .. البرغل والسمن والسكر والزبيب والتمر والتين الناشف..قبطان الباخرة بالإتفاق مع اليوزباشي قائد البُلك ..

باع الجراية قبل أن تحمل الباخرة.. واستبدلها بقسماط ردئ أصابه العفن .. عرضوا عليه نصيبيه من الصفقة.. رفض وهدد بكشف أمرهم :

– العسكر أولاد السلطان .. تبيعون أرزاقهم وتعرضونهم للجوع والمرض .. تكتنز جيوبكم بالليرات الذهبية وتهترئ بطون العسكر .. لن أسكت على ذلك ..

أمر القبطان بحبسه.. اتهموه ببيع الأرزاق .. ربطوه في مدخنة الباخرة .. تناوبوا على جلدة وهو يصرخ :

–خونة .. خونة .. خونة .

ظل يصرخ حتى ثقل صدره .. وتباطأت أنفاسه .. ظن أنها لحظاته الأخيرة.. وأن منيته قد حانت .. لا يدري إن كان قد أغمي عليه .. أو سرقته إغفاءة .. تجلت له ثانيه جنات عدن .. طافت به الحور العين مرابعها .. سقينه من أنهار لنبها وخمرها وعسلها .. أفعمت جوارحه سعادة تجل عن الوصف .. سبح في بحر من اللذائذ .. رأى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت .. ولا خطر على بال بشر .

جس طبيب الباخرة يده وصاح في العسكر :

– كفوا عن ضربه.. لقد أشرف على الموت .

فكوه عن المدخنة .. ألقوا به جانبا .. أراقوا ماء البحر على رأسه وصدره .. لسعته جراحه أيقظته من غفوته .. فتح عينيه وجد نفسه .

1. البلك : فصيل من الياقوت عدد ألف جندي وينقسم إلى 4 طقوما.. وكل أربعة بلوكات يشكلون طابوا .. وكل 4 طوابير يشلكون آلاي .. وكل 4 آليات يشكلون فرقه وكل 4 فرق عرضي.

على ظهر الباخرة .. لم ير أثرا لجنات عدن .. لعلها واصلت دورانها الأزلي بين السماء والأرض .

ألح عليه خليل :

–ما الذي قتله يا عماه؟

– إستعاد الحاج أحمد وعيه .

- في ماذا؟

- في طلاق زينب

-قلت لا حول ولا قوة إلا بالله.

دخلت آمنة شقيقة أحمد وهي تزوم كحية التبن اتجهت إلى خليل:

-صحيح يا ابن أخويه بدك تطلق زينب وتشمت فينا الأعادي.

كبح خليل جماح غضبه وانطلق لا يلوي على شي .. جلست إلى جوار شقيقها:

-إيش جري يا أولاد وهبة ما حدا فيكم بيطيق لي كلمة.

تذكر أحمد صراحتها الجارحة التي لا تعرف حدودا .. حين استدعوه إلى العسكرية قالت له:

-تترك زوجتك أربعة أعوام دون مال أو عائل .. فتاة جميلة .. مدللة.. قليلة الخبرة لا تطيق العمل ولا تصبر على المشقة .. كيف تدبر أمورها في حارة ظالمة لا تعطي شيئاً بدون ثمن ؟

إنها ليست إبنة عمك .. إذا كنت رجلا شريفاً يغار على عرضه .. طلقها قبل سفرك وألحقها بأهلها.

- زوجتي حامل يا آمنة .

ضربت بيدها على صدرها

-وقعت في ركبك يا آمنة إللي صار صار .

كانت آمنة قد ترملت وهي في زهرة شبابها فتزوجها كبير السلامين .. رجل طاعن في السن .. أنجبت منه ولدين ولولا "حكره "[1]في الرنجس الذي ينقط في حلوقهم .. وحصتها من زيت الوادي لماتت هي وأولادها جوعا.

هزته آمنة من كتفيه:

- إوعى تخليه يطلق زينب .. إنت كبيرنا يأخو وما تحطش إيدك في الميه الباردة.

أجابها أحمد:

–كل من هو عقلو في راسو بعرف خلاصو .

انصرفت آمنة غاضبة وهي تبرطم :

–سألو العرب وين عاقلكم .. قالو هالمربط(2)

هز أحمد رأسه في حزن وأسف .. وقد هاله أن تعرض آمة بجنونه كما يفعل أهل الحارة .. ثم عزي نفسة:

– لست مجنونا.. ولست سندان عكس كما كان يزعم أخي .. الدنيا هي التي تدور بالمقلوب .. والناس انفلت عيارها .. ما عادت تميز الخير من الشر .. لا الحق من الباطل .. ثم أخذ يدندن لنفسه:

لو كنت أساجل (3) واداري كنت أنا اترايشت (4)

كان ابن القرفتي (5) يلاقي إبني يقوللو عشت

1. الحكر : الأرض المشجرة باللوزيات والفواكه
2. المربط : المجنون الموتق بالحبال خوفا من أذاه.
3. أساجل : من الكلمة الفصحى (المساجله) وهي الحوار اللين.
4. اترايشت : نبت ريشي واصبحت غنيا.
5. ألقرقتي: الرجل الخطير

(7)

أجال الحاج أحمد النظر في جنبات الوادي وقال في نفسه : " لا بد أنه فقد الكثير من أشجاره"

تعديات البدو دفعت الفلاحين إلى الهجرة للمدن الساحلية بحثا عن عمل أكثر أمنا وأقل مشقة .. يافا المضطردة النمو استقبلت العديد منهم.. نقص الرعاية أدى إلى تناقص عدد الشجر موسما بعد موسم حتي أن دخله السنوات الأخيرة لم يعد كافيا

لكي يعيش أحفاد يونس حياتهم في يسر وسهوله وصار لزاما عليهم أن يعملوا ويكدوا لكي يصنعوا خبزهم وإدامهم .. بيت يونس صار رجما..

تداعت جدرانه وسقط سقفه .. الأعشاب نمت في ساحة البيت إلى الركبة وسدت مداخل الأبواب.. المضافة وحدها ظلت صامدة فاتخذها أحمد مقراً له في قيادته لموسم الزيتون.

اختار بعض أبناء أخوته لمساعدته .. ووزع الباقين على معاصر المدينة لاستقبال أحمال الزيتون واحصائها قبل دخولها البد .. واستلام حصتهم من الزيت في الظروف المعدة للبيع.

اختار الدوش بد الشجاعية لأن صاحب البد عمر الغزالي أستاذه ومدربه على الربابة .. سعي الدوش إلى كثير من الشعراء ليعلموه أسرار هذه الآلة العجيبة إلا أنهم بعد اختباره رفضوا تعليمه وقالوا له :إيدك طرشه .. ويبدو أن الغزالي وضع زيتون وادي الزيت في ذهنه وقدر أنه عثر على زبون يضمن تشغيل البد شهرين في السنه على أقل تقدير .. فقبله تلميذا عنده وواصل تدريبه.. حتى اكتسبت ذراعه الليونة المطلوبة و أسلست له الربابة قيادها .. وصدر عنها ذلك الصوت الذي يقارب النغم الأصلي ولوعة .. وما هو إلا موسم زيتون آخر ويصيح الدوش شاعر ربابة لا يشق له غبار لا يصطلى له بنار.

اختار محمود بد حارة الزيتون .. فمنذ تزوجت سعدة بذلك التاجر الخسيس سالم السروان وهو ينأى بنفسه عن الحارة وعن كل شيء يذكره بحبه الضائع .. وله في حارةالزيتون أصدقاء بداعون في العتابا والميجنا طالما أنس إليهم .. وشاركهم سمرهم ومواويلهم التي تلامس القلب .. حينما كان شقيقه الأكبر إسماعيل يلومه على سهراته معهم وانصرافه عن أهله وعشيرته كان يجيبه:

عبت يا مبتلي بقعودك حدا الخالي

ما تقعد الا حدا مبتلي .. وقلبه من الهموم سالي

تبقي إن قلت آه .. يقول كانت على بالي

خليل ما كان يرضي بديلا عن حارة التفاح ليرابط فيه .. فصاحب البد أبو التوفيق زوج عمته فاطمة التي سميت تيمنا باسم جداه ابيها زوجة يونس أما أبناء عمته عبد الحميد ومشعل فقد أفسدهما دلال أمهما وانشغال أبيهما.. فشبا على قدر من الأنانية والقسوة .. والنذالة أحيانا .. تباريا في سرقة أبيهما وتبديد ماله على مآربهما وشهواتهما

عبد الحميد أصهر إلى أثري عائلات الحارة وما زال يجاري أهل زوجته في بذخهم وانفاقهم بما يسرقه من مال أبيه .. ومشعل تزوج فتاه حضرية من فوق المدينة.. لم يكتف أهلها بمضاعفه المهر عليه بل إنهم أصروا على أن يحتوي جهاز العروسة على ماكينة خياطة.. كانت أول مرة تسمع فيها أم التوفيق عن هذا الإختراع العجيب .. أسقط في يدها وهم يشرحون لها كيف تستطيع الماكينة أن تلضم الخيط ..وتسرج .. وتخيط .. وتطرز .. أصابها الذعر .. خطر لها أن ماكينة كهذه لابد أن تكون مسكونة بالجن ..

جمعت على صدرها أطراف ملاءتها .. وانطلقت تهرول إلى الشارع وهي تحوط بسبابته

- قل أعوذ برب الفلق .. من شر ما خلق.. ومن شر غاسق إذا وقب ومن شر النفاثات في العقد.

فشلوا في العثور على الماكينة في غزة وأعيتهم الحيلة.. قال لهم عم العريس الشيخ علي البتير إمام مسجد الأيبكي:

- لن تجدوها إلا في يافا.. التي تحتفل بكل بدعة ونقيصة.

وكان بها .. جهز والد العريس بعثة إلى المدينة السيئة السمعه لتعود بعرش بلقيس.

تخلصا من أخيهما الأصغر محمد بإرساله إلى الشام ليتعلم السبعة ألسن في مدرسة اللغات.. ويقيم عند أخته الكبرى كاملة زوجة العالم العلامة و الحبر الفهامة الشيخ وحيد البيتر حاكم الصلح في دمشق على أمل أن يضيع هناك .. ولا يعود إلى غزة لمشاركتهما في أملاك أبيهما وثروته .. هذا عن أولاد عمته الذكور.

أما الإناث فكبراهن بعد كاملة كانت عزيزة وهي ذات نصيب من الجمال إلا أنها عنيدة شرسة كالبغل الشموص .. وقد كادت أن تصبح عانسا لولا أنهم زوجوها لإسماعيل وهبة العائد لتوه من العسكرية على ظهر هجين أدبر.. فروضها كما تروض غرائب الإبل .

لم يبق من العائلة إلا راضية وقد تحاشي خليل دائما ذكرها أو الإشارة إليها لتحرجه من العلاقة التي تربطهما ولكنه كان دائما يستسلم لتداعيات هذه العلاقة .. ورغم أنها كانت قصيرة القامه إلا أنها آية في الجمال .. لها مقلتان واسعتان كعيني غزالة أضناها العطش .. لطالما أجلسها على ركبتيه وحمل لها الحلوى والفاكهة واستغرق في ملاعبتها كما ضاق صدره بدمامة زوجته وسوء طباعها.. ولكن البراءة في علاقتهما أخذت تتحسر في الآونة الأخيرة .. الجسد الصغير اللدن صار أكثر حرارة ومعالمه أخذت في الوضوح يوما بعد يوم

الطفلة التي لم تكن تخطئها العين في راضية.. صارت التباسا عذبا بين الطفلة والمرأة

سمع خليل رغاء الجمال فأدرك أن أول أحمال الزيتون قد وصلت المسطاح(1).. هرع إلى الخارج ليساعد الرجال في فسخ الأحمال وفراغ الزيتون في المكان المعد له .. لاحظ أن السماء كانت غائمة وأن الرياح تدوم في أزقة الحارة مؤذنة بدخول الخريف.

كان المسطاح قد امتلأ عن آخره بالجمال الموسقة .. والجميع يعمل يهمه ونشاط لاستقبال موسم الخير والبركة.. أفرغت أول الأحمال مباشرة في الطاحون .. دخل شلمول صبي البد القبو ليربط الجمل الطليق إلى ذراع الطاحون ..هدر الجمل وخرجت من فمه كرة حمراء .. استعادها ليطيقها ثانية في وجه الشملول :

-كبرت وصرت تهدر وتضرب بالقلة .. قبل شهور.. كنت قعود صغير.. دخلت القبو من الخوخة .. اليوم الخوخة ما بتساع ركبتك .. دهاك بطنك .. أكلت وسمنت وانحبست متل فار القرعة(2) مش راح تطلع من القبو إلا شقف.. ديـ ......

ساق الجمل فدار حول التروس.. دارت الرحي على حبات الزيتون .. فاحت رائحة الزيتون المهروس .. تهلل وجه أبو التوفيق وهو يرى أول قطرات السائل المبارك تتدفق في القناة وتنحدر لتصب في البئر المعد لها.. فهتف:

-من الشجر الحجر.

1. المسطاح: الساحه الملحقه باليد التي يجمع فيها الزيتون قبل عصره وحيث ترص وتجفف بقايا الزيتون المعصور لتستخدم كوقود.
2. القرعه : ثمرة القرع الأصفر يخترقها فأر الحقول فتصبح سجنه.

انتهوا من عصر الوجبة الأولى .. عبأوا التفل المتراكم على جوانب الطاحونة في قفائز من الليف رصوها داخل البد لكي تتخمر قبل وضعها على المكبس في اليوم التالي .. أفرغوا الحمل الثاني .. استمروا في العمل حتى امتلأت البئر بالعصارة .. عام الزيت على وجه البئر صافيا نقيا وغاص الماء في أسفلها.

ملأ أبو التوفيق زبدية(1) الفخار بالزيت من رأس البد .. تشمم الرائحة الزكيه وحدق في الزيت:

–بسم الله ما شاء الله .. أصفى من عين الديك.

وضع الزبدية على شفتيه وأخذ يكرع منها حتى أفرغها تماما .. مصمص شفتيه ثم مسح فمه وذقنة وتلمظ:

– أولك وآخرك .. ونعيش وناكلك يا خير السنة.

على جانب المسطاح جلس الشيخ علي شقيق سليم البتير وشريكه في البد أمام المسجد الأيبكي يتأمل أحمال الزيتون ويمني النفس بموسم جيد..

يستطيع فيه أن ينفق عن سعة على أهل بيته.. وإلى جواره ربض مقرئ أعمى يجاذبه أطراف الحديث .. سأله إمام المسجد:

–بماذا فتح الله عليك يا شيخ ديب؟

– فتح علي بخير كثير يا مولانا.. عندي جزء عم وسورة البقرة .. وسورة الرحمن وطه ومن المدائح النبويه صار عندي الغزالة .. والعنكبوت .. ومن الموالد مولد العروس لإبن الجوزية .

– ما شاء الله .. ما شاء الله .. فتح الله عليك يا شيخ ديب.. عقبال ما تحفظ باقي القرآن .. قاطعهما الحلواني وكان يسترق السمع:

– إنت شحات.. يا شيخ ديب.. شحات ابر نجي .. يعني الله خالقك عاني متعني عشان تشحت .. إيش بدك في الغزالة والعنكبوت

1.الزبدية: طبق من الفخار ا

شفع الحلواني إعتراضه بشخرة نفرت من هولها جمال المسطاح.. وتابع إعتراضه:

–الشحتة أبوابها واسعة.. بدهاش تستنى واحد يموت.. ولا واحد يتجوز إسمع من هالدقن وخليك شحات .. شحات أسكي .. أي والله بحسدك.. أنا لو ما كانش في إيدي صنعة بتطعم جوز ولوز.. كنت سبقتك عالشحاتة .

انبري له الشيخ علي محنقا:

– إيش صنعتك يا حلوني من غير شر.

أجباة أنا حرامي بأكلها من عرق جبيني.

تنهد الشيخ علي:

0 الله يهديك يا حلواني.

تباع ديب التغتيت حديثة مع اما المسجد دون إن يكترث بتدخل الحلواني

- يا شيخ علي ما الفائدة من كل الفتوح .؟ اذا لم يكن هناك من ياخد بيدي ويسحبني الي المقابر والحارات البعيدة الرزق بدو نطة

– وأين غلامك يا شيخ ديب ؟

– كبر ووضعه اهله في دكان حداد ليتعلم صنعه الحدادة قطع بس كما تري أنا رجل ضرير لا بيدي ولا بالمنجل .

- قاطعهما الحلواني مرة ثانية محاولا تقليد اللهجه الفصيحة التي يتحدثان بها:

- طالبك عندي يا غتيت ولد يسحبك وزوجة تبخ لك وحماه تنفق عليك ودار تؤويك .

- تخلي الغتيت عن لعته الفصيحة:

- هات ايدك ابوسها يا حلواني.

- بديش اتبوس ايدي بدي تقسم معايا بالنص.

شخر الغتيت :

–نقسم المره .

–لا لا ..المرة مبروكة عليك سبع بركات.. نقسم إللي بطلع من ورا هالشغلة.

– طيب قللي مين هيه؟

– زينب وهبه.

–أهي جميلة ؟

–لا يجرؤ على النظر إلى وجهها أحد سواك

قام ديب الغتيت من فوره يدب على عصاه بين أحمال الزيتون وهو ينادي في أهل الحارة:

- ابن حلال يسحبني لدار وهبة.

رد عليه الحلواني ساخراً :

- بدك ابن حلال .. دور على حدا غيري .

قال الشيخ علي وهو يشيع الغتيت بنظراته:

- ما من ساقطة .. إلا ولها لاقطة .

مر بهما مشعل دون أن يلقي السلام .. دخل إلى البد لاهثا.. زائغ العينين .. وانتحي جانيا ووضع وجهه بين راحتيه واستغرق في بكاء مرير .. أحاطوا به يستطلعون جليلة الأمر .. قال لهم وهو يشنج:

-استدعوني للعسكرية .. أنا وكل أولاد الحارة .

وضع خليل راحته على كتف مشعل وسأله:

- والوهايبة؟

- استدعوك أنت وأخيك والدوش وابن عمك محمود للعسكرية و استدعوا اسماعيل والحاج أحمد للجندرمة.

-سمعت راضية الخبر فهرعت إلى البد والدموع في عينيها .. كان خليل يسري عن ابن عمته ..

-العسكرية للرجال .. والجهاد فرض عين.

صرخ مشعل كحيوان جريح:

-ومرتي إللي ما كملت معها السنة أسيبها على مين؟

-والدك ما زال قويا يعتمد عليه وشقيقك عبد الحميد.

-عبد الحميد لا يؤتمن على عنز .

قالها ولج في البكاء من جديد

انصرف خليل إلى داخل البد واجما فتبعته راضية .. حين أصبحا خلف القفائز.. انخرطت بالبكاء.. إقترب منها محاولا تهدئتها.. وبدلا من أن تلوذ بصدره كما كانت تفعل من قبل انهالت عليه بالضرب صدره بقبضتي يديها ..

–انت ما بتحبني.. إنت بتحب الحرب ..وخاطرك تموت هناك وترتاح مني .

ثم أخذت تقلد صوته وهو يسري عن أخيها:

–العسكرية للرجال العسكرية للرجال

دقت صدره حتى كلت.. وصلت أمها فتركته ولاذت بها وهي تجوح ضارعة:

–وإيش للنسوان يا خليل ؟! إيش للنسوان؟!

احتضنتها أمها والدموع في عينيها :

–يا حسرتي على النسوان .. السواد واللواد .. والبين إللي بقصف وبعسف.. النسوان ياخدو من السكن[1] ويحطوا على روسهم.

تركهم خليل وانصرف إلي بيوت الوهابية.

في الخارج كانت الحارة تظن مثل قفز النحل .. سمع شخرة صديقة سليمان البطش على باب البد:

1. السكن : الرماد التي يتخلف من الموقد

–أمهلونا شهراً واحداً لنسلم أنفسنا للدولة .. خرب بيت الحارة لولد الولد .

قال الشملول صبي البد :

–آنا أهبل .. الحمد لله نفدت.

رد عليه نمر الحلواني وهو يتيه بعينه العوراء التي ستنجيه من العسكرية:

–بلا أهبل .. بلا درويش .. قوله جئت بتسوق الجمال كلها.

تأمل الشملول وجه الحلواني .. راعه كل ذلك كل ذلك القبح مقارنة بوجوه أهل الحارة السمحة الطيبة

– صحيح انت ابليس؟

شخر الحلواني شخرة انقصم لها ظهر الشمول وقطع الخلف.

–غور من وشي

أزاحه بيده كمن يزيح عن باله خاطر عكر مزاجه.. ثم أخذ يتخيل الغنائم التي ستقع في يده حين يذهب الراجل إلي الحرب .. ويبقي وحده رجل الحارة وسيدها.. فرك كفاً بكف.. أبشر ياحلواني.. إجتك الحارة بغمه[1] .. بتسلب المال وبتسترق العيال ..والنسوان بتاخدهم سبايا.

استعرض في خياله نساء الحارة الجميلات وأحصي مفاتنهن .. واحدة بعد أخرى.

استسلم لأحلام اليقظة .. مرة به أبو التوفيق .. بادره التحية:

- السلام عليكم يا حلواني .

رد عليه بلؤم وخسه وهو يهز سبابته في وجهه :

– وعليكم الجزية وعشر المال.

كان أبو التوفيق شارد اللب فلم ينتبه لما قاله مقطوع الإيد والرجل.

❋ ❋ ❋

1.يغمه : غنيمه حرب

في الصباح اليوم التالي استيقظت الحارة على صرخات مروعة انطلقت من بيت الحلواني .. كانت زوجته وبناته الثلاثة يلطمن الخدود وينعين سبع الرجال .. الذي مات في فراشه .

قال الشملول لمحمد هاشم الذي جلس يتشمس على باب البد:

– مسكين إبليس .. مات وما خلف أولاد يحملوا إسمو.

سمعه الغتيت الذي كان يدب على عصاه باتجاه بيت الفقيد للقراءة عن روحه ..
وقف الغتيت وصعر خده اتجاه الصوت:

– صحيح إنك أهبل يا شملول .. هوه فيه أكثر من ذرية إبليس .. نص أهل الحارة من ذريتو.

سأله محمد هاشم :

– إنت شفتو يا شيخ ديب؟

– شافوه المفتحين إللي زيك .. ومشيو وراه عالعمواتي.

واصل الغتيت طريقة إلي بيت الحلواني وهو يتمتم : وإذ قلنا للملائكة اسجدو لآدم فسجدوا إلا إبليس ثم أضاف .. رحمة الله عليه.

(8)

استيقظ الشيخ وحيد البتير من إغفاءة القيلولة بعد نهار شاق في محكمة الصلح بدمشق .. فمنذ وصل جمال باشا من الآستانة .. وتولي قيادة الجيش الرابع خلفاً لزكي باشا الحلبي ودوائر الحكومة تعج بالمرجعين .. والعسكر يجوبون الشوارع بحثا

عن المتخلفين والفارين .. والتجار الذين يتخبئون السلع .. لبيعها بأسعار مضاعفة .. اضطربت الأحوال .. وشحت الأرزاق .. وقلت الأمانات .. وأوشكت القيامة أن تقوم .. ولم يكن ينقص الشيخ وحيد سوى أن يطلب الشيخ المنشاوي الإذن بزيارته في بيته عصر ذلك اليوم .. قال الشيخ وحيد في نفسه : في عز العركة و الزحمة .. طهروا أبو قليطة الأعمى .

استقر الشيخ وحيد في كرسيه الهزاز بساحة الدار .. تأمل الحساسين الملونة تشرب من النافورة وتتقافز على أفنان الورد الجوري وعرائش الياسمين .. تابع الأولاد يلهون بألعابهم و يملأون جنبات الدار صخبا وكركرة .

ناولته زوجته فنجان القهوة .. سأل زوجته :

- ما الذي يقوله الناس عنا ؟ .. ننتقل فجأة من غرفة على السطح إلى هذا البيت المنيف ذي الحديقة الغناء ..نرفل في الحلل الجديدة .. نتخذ الركائب الفارهة .. ننفق عن سعة .. بعد ضيق اليد وشظف العيش.
- هذا من فضل ربي.

– لم أسالك عن رأيك يا كاملة .. سألتك عن رأي الناس .

– يقولون أنك مبروك .. وتصرف من تحت السجادة .

– لكنك تعلمين أن هذه أموال الميرزا أحمد رسول البهاء التي اشتري بها ديننا ويقيننا.

- ها قد رجعت تعدد علينا .. أنت لست أهلا للنعمة.. صحيح الطيز إللي مش ضاريه عالبخور بتنحرق.

لم يعرها التفاتا وتابع كأنه يحدث نفسه:

– يشهد الله أنني قاومت ببسالة في أول الأمر.. قارعتهم الحجة بالحجة والمنطق بالمنطق .. قالو: إن الإعتقاد بأبدية والشرائع والأديان إحدى المصائب الكبيرة التي ابتلت بها الأمم الماضية..

وزعموا أنه لا وجود لما يدل على انقطاع الرسالة بالقرآن الكريم فقرات لهم :

((ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبين وكان الله بكل شيء عليما)) .. فزعموا أن خاتم بمعني الخاتم الذي يلبس في الأصبع كحلية..وليس بمعني آخر .. ففندت لهم زعمهم .. واستشهدوا بقوله تعالي(وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب) .

فبينت لهم أن الآية لم تعطف الراسخون في العلم على اسم الجلالة على أساس أنهم شركاء الله في علم التأويل.. ولكن على أساس أن الراسخين في العلم هم الذين يقولون آمنا .. ثم زعموا أن الآية الكريمة ((وجعنا فيها رواسي أن تميد بكم)) المقصود بها العلماء فوضحنا لهم أن المقصود بها الجبال الراسخة التي تمنع الأرض أن تميد بالناس .. وغير ذلك من الكلم الذي حرفوه عن موضعه لتأييد ما أتوا به من الباطل .. عندما أعيتهم الحيلة .. أرسلوا إلى الشيخ عبد الله المنشاوي بأول هداياهم .. كيس به مئة ليرة ذهبيه .. قال لي :

-الدولة العلية لن تعطيك هذا المال يا حاكم الصلح ولو خدمتها العمر كله.. أنها هدية "الجمال المبارك" إليك الهدية لا ترد .. النبي قبل الهدية .

-على أن أبيعهم ديني كما فعلت أنت؟!

-على أن لا تبيعهم شيئا على الإطلاق.. فالبهائي يمكن أن يكون مسلما.. أو نصرانيا.. أو يهوديا.. أو بوذيا .. أو ماسونياً..أو أي شئ .. أو كل شئ في وقت واحد .

-السلطان ؟! والوالي؟! والناس؟!

-لم يطلب منا بهاء الله أن نحارب السلطان أو الوالي أو الناس .. بل على العكس من ذلك .. أمرنا أن نخضع لسرير كل سلطان وملك .. وندين له بالطاعة ونخلص في خدمته .. وأمرنا بالإحسان إلى الناس وإظهار المسالمة للأديان .. وعدم الجدل مع أصحابها .. وتقبل أذاهم وجفائهم وظلمهم .. ومقابلة الإساءة بالإحسان والمحبة .. ثم همس بصوت كالفحيح:

- إليك بالذهب .. ومع الذهب لا عجب ولا عتب ..ولا تعب ولا نصب ..

قالها وغادرني مهرولا ولم أر وجهه بعدها .. هل تعلمين يا كامله أنه قد أفتى في غزة بكشف حجاب المرأة وتركها سافرة تتجول في الأسواق .. وأن شاعر غزة سخر منه بشعر تناقله الركبان .

شيخ عبد الله يا منشاوي حاجتك جنـان

داير تفتي لنا فتاوي مخالفة القرآن

كشف الحجاب كيف حللتو.. يا لطيف يا لطيف

أظن عايز تنصب على وش نظيف

لا بد أنه قبض من عبد البهاء ثمنا باهظا لفتواه .

سمع طرقا على الباب .. نادت على شقيقها محمد الملقب بالديناري ..

والذي بدلا من أن تلحقه بمدرسة الألسن اتخذته خادما عندها بلقمته:

-شوف مين على الباب يا ديناري .

جاءها صوته بعد هنيهة:

- إنه الشيخ عبد المنشاوي .

- قال زوجها

-أخرجت الأرض أثقالها.

قام لإستقبال ضيفه.. بعد أن تناولا العشاء والحلوي والفاكهة .. حضرت القهوة..

غمز المنشاوي صديقه فأخلى المكان وانتحيا يتهامسان نجيا.

قال المنشاوي :

- لقد صدر الأمر من لدن ولي الأمر بان وقت الظهور قد حان .. وأن علينا أن نبلغ الدعوة .

غمض الشيخ وحيد بقهوته :

-نبلغ الدعوة لمن ؟

- للأقربين والأبعدين والناس كافة.

-هل جننت؟؟!!

-أنا رسول ملاك الملكوت الأبهى وما على الرسول إلا البلاغ المبين .. ألم تقرأ ما جاء في الأقدس (1):

"ليس لمطلع الأمر شريك في العصمة الكبرى .. أنه لمظهر يفعل ما يشاء في ملكوت الإنشاء ... قد خص الله هذا المقام لنفسه .. وما قدر لأحد نصيب من هذا الشأن العظيم المنيع.. هذا أمر الله قد كان مستورا في حجب الغيب أظهرناه في هذا الظهور وبه خرقنا حجاب الذين ماعرفوا حكم الكتاب وكانوا من الغافلين ".

- أستغفر الله العظيم .. لا تقل لي أنك تؤمن بهذا الهراء .

أخرج المنشاوي كيسا من الليرات الذهبيه .. ضرب به على كفة حتى أخرج رنينا وقرأ بصوت جهير آية أخرى من الأقدس:

- "كذالك هطلت من السماء عنايتي .. أمطار مكرمتي .. فضلا من عندي .. لتكونوا من الشاكرين "

سكتت هنيهة ثم تابع:

-بستان البهجة في عكا أصبح الآن محجا للناس من مشارق الأرض ومغاربها:

.. وفي حديقة الرضوان.. تتضوع أزهار البرتقال مختلطة ببهاء وجلال وهيبة نور الأقدس .. الذي صار مطاف الملأ الأعلى ومقبل أهل مدائن البقاء

1. الأقدس: الكتاب الذي ألفه عبد البهاء وادعي أنه وحي نزل عليه.

إن رجالا ونساء من جميع الجنسيات والملل يصعدون إلي البهجة لكي يجلسوا في حضرة النور الإلهي ... ويدعون إلى بلادهم دعاة ورسلا يبلغون ما رأوا وسمعوا ..

وأنت هنا ما زلت مترددا شكاكا .. لم يدخل الإيمان قلبك ؟؟!

وضع الشيخ المنشاوي على المائدة وهب واقفا يتوكأ على عصاه .. في الطريق إلي الخارج تسمر الشيخ وحيد في مكانه لا يريم حراكا.

جاءت زوجته كاملة.. اختطفت كيس الذهب بلهفة وضمته إلى صدرها .. وأخذت ترقص.

-يا مالي يا حلالي.

رأت زوجها مطرقا برأسه وقد ارتعدت فرائصه واكفهر وجهه

- إوعى ترفص النعمة .

- يا كاملة قال تعالي : "كبرت كلمه تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ""وفي الحديث الصحيح عن رسول الله صلي الله عليه وسلم : ((ما من داع يدعو الي هدي إلا كان له مثل أجر من اتبعه .. لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا .. وما من داع يدعو إلى ضلالة إلا كان عليه مثل أوزارهم.. لا ينقص من أوزارهم شيئا))

أجابته بتحد:

- هادا إللي إنت فالح فيه .. يا زلمة حن على هالطفال الجهال .

لم يمض كبير وقت حتى سمعا الباب يدق مرة ثانية .. فتح الديناري الباب وعاد يحمل كتابا بيده.

- دعوة عاجلة .. جمال باشا والي الشام يريدك في السرايا.

هرب الدم من عروق الشيخ وحيد:

-لا بد أن عيون جمال باشا تعقبوا المنشاوي .. وهم يجمعون الأدلة ضده الآن وربما يكون المنشاوي نفسه قد سقط في أيديهم واعترف لهم بكل شئ .

ضرب على ركبتيه بكلتا يديه وهو يحرك رأسه يمنة ويسرة كمن لدغته أفعى:

-إجاك الموت يا تارك الصلاة .

* * *

دخل الشيخ وحيد السرايا مهرولا.. وانعطف إلى ديوان الباشا فوجد الباب مغلقا.. لقد تأخر إذا عن الموعد .. أخره الإسهال الذي أصابه منذ وردت عليه تلك الدعوة

اللعينة .. فلم يكن يغادر المستراح إلا ليعود إليه ويده على بطنه.. لا شك أن غضب الباشا عليه قد تضاعف الآن .. ولا يدري عاقبة ذلك إلا الله ..

خارت قوائمه فلاذ في بأقرب كرسي في الباحة المواجهة لديوان الباشا .. فتعرف عليه الخزمتشي .. فسلم عليه ولطفه حتى زايله الرعب.

قال له أن الباشا وضيوفه إنتقلوا إلى النادي الشرقي لتكريم الشيخ عبد العزيز جاويش ..الذي قدم من مصر ضيفا على السلطنة .. وعرض عليه أن يوصله إلى النادي بعربته.

حين دخل النادي زايله خوفه واضطرابه فقد وجد الشيخ عبد الله المنشاوي يجلس في السطر الأول من المدعوين .. وكان جمال باشا قد بدأ إلقاء كلمته .. اتخذ مكانه إلى جانب الشيخ عبد الله واستغرق في الإستماع للباشا.

" يجب عليكم يا أبناء العرب أن تحيوا أخلاق العرب ومجدهم .. منذ شروق أنوار الديانة الأحمدية.. أحيوا شهامة العرب وآدابهم حتى التي وجدت قبل الإسلام.. عضو على عربتكم بالنواجذ ودافعوا عنها بكل قواكم .. اعملوا على ترقيب العرب والعروبة..جددوا مدينتكم .. قوموا قناتكم .. كونوا رجال كاملين .

إن البرنامج الذي عقد حزبنا عزيمته على تنفيذه لإصلاح حالة العرب لأوسع كثيرا مما قد يخطر ببالكم .. ولست لأوجس شرا في بقاع العرب والترك

متحدين وخاضعين لخليفة واحد.. بل من انفصال أحدهما على الأخر كشعبين مستقلين

" إنني أؤكد لكم أن الأماني التركية و الأماني العربية لا تتعارضان مطلقا.. فالترك والعرب ليسو سوى إخوان في غايتهم الوطنية.. ربما أكمل بعضهم مجهود بعض.. إن غرض تركيا الفتاة وهي إيقاظ الشعور الوطني في الأمة التركية وتدريب موطنيهم على العمل وتحريرهم من النير السلافي .. وتقويتهم.. وإني أناشد العرب والترك قائلا:

إن هذين الشعبين مقضى عليهما بالفناء باللحظة التي قد يتخاذلان فيها.. فالنزاع والخلاف بين عمودي الإسلام لابد أن يؤدي إلى سقوط ذلك الدين.. ويومئذ لا مفر من الوقوع تحت نير الإستعمار السلافي .

وإنه لمن أشد بواعث الأسف والحزن أن تنجح المحاولات الشيطانية التي يحاولها أعداء الدين والوطن في بذر بذور الشقاق بيننا.. فعلى الترك والعرب أن يحبوا بعضهم بعضا فيجنوا ثمار مجهوداتهم المشتركة..وإنني محذركم من عواقب التخاذل فإنه مؤد حتما إلى استعبادكم وفنائكم " .

صفقوا لكلمة الباشا .. وقاموا يشدون على يده مهنئين .. جاهد الشيخ وحيد وصديقه الشيخ عبد الله حتى وصلا إلى مكان الباشا فعانقاه ودعيا له بالنصر.. قال الشيخ وحيد بصوت سمعه كل الحاضرين:

-انتم في حضرة المجاهد الغازي جمال باشا فاتح مصر بحوله تعالي ومعيد الكنانة إلى أحضان دولتنا العلية .. إن شاء الله

همس عبد الكريم خليل للدكتور الشهبندر وقد انتحيا جانبا من الحفل .. معلقا على خطاب الباشا:

- يعطيك من طرف السان حلاوة.. ويروغ منك كما يروغ الثعلب.

أجابه الشهبندر.

-عيبك أنك لا تثق بأحد .

-وأنت عيبك أنك تثق بمن لا يستحق الثقة.. لقد أصدر جمال باشا قبل حضوره إلي النادي أمرا بحل كتيبة الضباط العرب الشبان من خرجي المدارس العالية .. الذين تم تدريبهم كضباط فور إعلان التعبئة .. وتفريقهم في ميادين القتال البعيدة.. على

ضفاف الدردنيل .. والقوقاس حتى لا يعود لهم أدني اتصال بأمتهم العربية.. وما أظن أحدا منهم سوف يكتب له أن يري بلاده ثانية . اقترب منهما عبد الغني العريسي والأستاذ كرد علي وبعد المصافحة.. قال عبد الغني هامسا : اليوم وأنا في طريقي الي الحفل .. رأيت الجنود الأتراك يحطمون اللوحات المتكوبة باللغة العربية على أبواب حوانيت دمشق ويطالبون أصحابها باستبدالها بلوحات مكتوبة باللغة التركية .. وحتى لوحات الأطباء تم تحطيمها وطلب منهم استبدال حرف الكاف بحرف القاف لكي تقرأ دقتور بالتركية وليس دكتور بالعربية.

قال عبد الكريم خليل للسهبندر:

- هل سمعت ذلك يا دقتور .. وتعمد أن يشدد على حرف القاف ثم تابع.. لعل هذا ما عنا ه الباشا اليوم .. حين أشاد بإخوة الشعبين .

همس الشيخ وحيد في أذان المنشاوي:

-هذا الشهبندر الطبيب الخاص لجمال باشا .. فتعال نسلم عليه ..عسى أن يذكرنا بخير عند سيده

اقتحم الشيخ وحيد عليهم خلوتهم فأمسكوا عن الحديث.

-أقدم لكم علما من أعلام غزة .. صديقي الشيخ عبد الله المنشاوي.

ثم عرفه بالحاضرين وحين وصل إلى الشهبندر أفاض في تملقه والثناء عليه:

-هذا هو الطبيب الحاذق والنطاسي البارع الدكتور عبد الررحمن الشهبندر صديق سيدنا جمال باشا وموضع ثقته .. وقد اختاره من بين جميع الأطباء في الشام ليكون طبيبه الخاص .

بعد السلام استأذنهم الشيخ وحيد وانصرف بتأبط ذارع صديقه .. سأله المنشاوي:

-لماذا تخلف الشيخ أسعد الشقيري مفتي الجيش الرابع عن حفلة كهذه ؟

رد عليه الشيخ وحيد بلهجة العارف ببواطن الأمور :

– الشيخ أسعد لا يحب جماعة النادي الشرقي لميولهم العربية الواضحة.. ولمطالبتهم باللامركزية وهو يعتقد أن هذا للميول القومية ستجر الكوارث على المسلمين.

انصرف الشيخ وحيد من الحلقة راضيا مطمئن البال .. حين وصل إلى البيت خلع الجبة والعمامة .. ناولها لزوجته وقال لها

–الشيخ عبد الله المنشاوي حمل إلى جمال باشا هدية سنية من عبد البهاء ورسالة يقول فيه انه يصلي مع المسلمين جماعه في المسجد ويكرر دعاء أبيه السلطان في كل صلاة:

إلهي .. إلهي .. أسالك بتأييداتك العينية وتوفيقاتك الصمدانية.. وفيوضاتك الرحمانية.. أن تؤيد الدولة العلية العثمانية والخلافة المحمدية على التمكين في الأرض .. والإستقرار على العرش

آمين .

وقد قبل جمال باشا الهدية .. ووعد بزيارة عبد البهاء في بستان البهجة .

قالت زوجته :

–هل تبقي لديك ما تخشاه الآن .. ابدأ بنشر دعوة البهاء كما طلب منك المنشاوي.. الرزق بدو نطه .. وعلى رأي المثل : اسعى يا عبدي وأنا باسعى معاك.

قال الشيخ وحيد وهو يهز إبهامه في وجهها :

- إلا عجوزا من الغابرين .. تلك امرأة لواط .. أما امرأة نوح فكانت من المغرقين .

(9)

وصل محمود إلى العريش مع الطابور الذي ألحقوه به (برنجي طابور) في حالة من الضنك والإعياء فقد التهبت فخذاه .. وتورمت قدماه.. من المشي أياما بطولها..

لم يكف العسكر الجوع والعطش والمرض .. بل كان عليهم أيضا أن يجروا المدافع .. ويحملوا المؤن والذخائر كلما نفق جمل من الجمال الهزيلة التي استؤجرت أو سخرت في الحملة ..

ورغم أنه لم ينل أي راحة خلال الستة أيام الأخيرة إلا أنه اهتز للمفاجأة السارة التي كانت بانتظاره .. ابن عمته مشعل البتير .. خزمتشي البكباشي الألماني (فيشر) كان هناك ليستقبله بطاجن برغل مجللا بالسمن البلدي .. لقد استطاع مشعل الحصول على هذه الوظيفة بالبراطيل السخية التي بذلها للأتراك من الأونباشي لليوزباشي ..

صحيح أن الطعام كان دسما .. وأن محمود أحس بعد كل قضمة منه أن الحياة تدب في أوصاله من جديد والدماء تعود لدورنها في الجسد المهزول من قمة الرأس إلى أخمص القدم .. ولكن الأخبار التي حملها له مشعل ذهبت بلذه طعامه وشرابه.. ونغصت عليه أيما تنغيص.

قال له مشعل إن ضباط الأركان الألمان الذين يجتمعون في خيمه فيشر قلقون كثيرا .. وأن فيشر الذي كان أكثرهم حماسا فيما مضى .. قال أمس وهو يفرد أمامه خرائط الحملة: عشرون ألف جندي وسبعة آلاف جمل وتسعة أطواب.. وحنفة من الضباط الأتراك .. نصفهم حمقي والنصف الآخر خونة .. ثم يريدون منا فتح مصر وطرد الإنجليز من الشرق .

قال محمود بعد برهة من الصمت:

–أنا في البرنجي طابور برنجي بلك برنجي طقم.

ضرب مشعل كفا بكف:

–ستكون أول من يعبر الترعة .. الفاتحة على روحك .

وضع محمود يده على كتف مشعل:

– وصيتك أهلي.

رد مشعل متخابثا كعادته:

-اطمئن بالا .. لم يعد لك أهل على الإطلاق .. أختك زينب تزوجت ديب الغتيت .. كتبت له حصتها أمك في الدار وفي زيت الوادي .. أراك غدا .

قالها مشعل وانصرف الي خيمته قبل أن يكتشف البيكباشي غيابه.

لم يستطيع محمود النوم تلك الليلة .. سعدة الفتاة التي أحبها.

احتازها المرابي البشع سالم السروان تاجر القماش في القيسيرية لتكون زوجته الخامسة.. وها هو ديب التيت يحتاز أخته زينب وأمه وشقيقة الأصغر مدحت.. ويحتاز معهم داره في الحارة وحصتة في زيت الوادي .. كيف رضيت زينب بهذا الأعمي البطين الأكول الجشع؟

تذكر حين دق الغتيت بابهم لأول مرة ..وباغته بخطبة زينب :

-انتظراني بعد صلاة العصر .. سأحضر ومعي المأذون والشهود لأكتب على زينب.

سأله محمود وهو يتميز من الغيظ :

- أراك متأكدا من قبولنا هذا الشرف .. لماذا اخترت زينب دون نساء الحارة؟

-حرك الشيخ ديب رأسه يمنة ويسرة يريد أن يتخير عباراته .. ولكنه سرعان ما استسلم لفظاظتة وسلاطة لسانه:

- كل فوله مسوسة وإلها كيال أعور.

استشاط محمود غضبا:

- ولكنك أعمي .

-ما هيه مسوسة كتير

هم بان يفتك به.. لولا اولاد الحلال الذين حالوا بينهما.

هذا الأعمي القذر استغل غيابي في العسكرية وانشغال شقيقي اسماعيل في البحث عن قوت لعياله .. وضرب ضربته.. وإجت مع العميان صيب .. صار لي الان نسيب أعمى .. إن لم يجد له قبرا يقرأ عليه .. أو ختمه يتربع علي حصيرها ..

فإنه يستعطي المحسنين .. ويقعد علي ابوابهم كالحوالة حتى ينال الصدقة.. أو.. يطرد طرد الكلاب.

تخيل شقيقة الصغير مدحت وهو يسحب هذا الفظ الغليظ بين القبور.

أهذا ما آل إليه أحفاد يونس ؟؟ أحس قلبه يتمزق ..وبكي من القهر أخيرا غلبه سلطان النعاس فنام كالقتيل.

في اليوم التالي تم إحصاء الطابور وقاموا ببعض التدريبات.. كبار الضباط وانصرفوا إلي اجتماع في خيمة القائد الألماني" فون كرس".. أما العسكر فتوزعوا في حلقات تحت الظلال القليلة التي تركتها اشجار النخيل المتفرقة في جنبات الواحه..

جلس محمود ينصت إلي اليوزباشي عزات(1) وقد رقت شمائله فجأة..بعد أن كان يكيل السباب للعسكر طول الطريق :

–في ذلك اليوم يا همشرياتي(2) كانت اسطنبول تلتمع تحت اشعه شمس الشتاء الساطعة بعد أن أخذ الثلج الذي غطاها يذوب شيئا فشيئا.. كانت الرايات التركيه الحمراء تتوسطها النجمة و الهلال تلوح خفاقه فوق الجماهير التي تهلل وتهتف لاعضاء لجنة الاتحاد والترقي.. ولمندوبي الأمة وللوفود المرافقة لهم .. كان الزواف(3) بالعمامات الخضراء.. والألبان بتنا نيرهم البيضاء والعرب بجلابيبهم الطويلة .. والكهنة بقلانسهم .. والأساقفة بتيجانهم

1. اليوزباشي: آمر المنة.
2. همشرياتي: رفاق السلاح.
3. الزواف الدراويش.

والباشوات ببزاتهم المزركشة المطرزة بالخيوط الذهبية والسيوف والبطاقانات البراقة.. والدبلوماسيون الأجانب الذين جاءوا ليشهدوا ميلاد الأمة التركية .

وكان الحديث يدور حول ثلاثه رجال من ألمع قادة الثورة .. هم ضابط الأركان الشاب أنور بك.. وطلعت بك رأس الثورة المدبر.. وجمال باشا ما غيرو الذي كان في ذلك الوقت ضابطا وسيما يدير رؤوس النساء في اسطنبول .

قام محمود مهموما وغادر الحلقه الي خيمته .. تتبعه الشاويش سعد الدين.. قبل أن يصلا إلي الخيمة قال له سعد الدين:

- لا تغرك رقته وطيب حديثة.. فما ذاك إلا لأننا ابتعدنا عن خطوط الأتراك وصرنا قريبين من الإنجليز.. والمعركة على وشك أن تبدأ ..لذلك فإن الأتراك كفوا عن شتمنا وصاروا يتالفوتنا بالكلام المعسول.. ويدخرون الشتائم لمن سيعود منا سالما..
- – لماذا تكرة الأتراك إلى هذا الحد ؟
- انا لا أكره الأتراك.. أنا أكره هؤلاء الطورانيين الذين استخفوا بنا وحقروا لغتنا وتاريخنا وحاولوا النيل من أبطالنا.. ألا تذكر كيف اعتقلوا عزيز المصري بطل برقة وقاهر الطليان .. لفقوا له تهمة الخيانة للتخلص منه.. ولولا تدخل الدول الكبري لتم لهم إعدامه.. هؤلاء الخونة.
- – من هم الذين تنعتهم بالخونة؟

تلقت سعد الدين حوله ولما اطمان الي خلو المكان تابع:

–جماعه الاتحاد والترقي خونة تحركهم أيدي محفل الشرق الأكبر للماسونية في سالونيك.. وهم صنائع للدونمة.. وحينما اكتشفنا أمرهم في ثكنات تكسيم ثرنا عليهم.. قتلنا ستة وثلاثين ضابطا في ليلة واحدة.. جميع الثكنات في حامية اسطنبول فعلت مثل فعلنا .. تولينا نحن ضباط الصف قيادة الجند رجال الشرطة خلعوا الخوذات التي أجبرهم رجال الاتحاد والترقي علي لبسها

واستعادوا طرابيشهم .. الأناشيد الدينية اختلطت بهدير المدافع.. في أيام قليلة صار عددنا ثلاثين ألف جندي ممتلئين حماسا وحمية.. رفعنا راية المهدي السوداء علي جسر غالاتا معلنين الجهاد.. وهتافاً واحدا يشق عنا ن السماء :

-باديشاه .. شوك يا شاه (1).

انتظرنا من السلطان عبد الحميد أن يخرج لقيادتنا علي ظهر حصان أبيض كما فعل السلطان محمود حين ثار عليه الإنكشارية .. ولا يتوقف إلا في سالونيك بعد أن يجتث قلاع هؤلاء الخونة واسيادهم من الماسونين والذنمة.. ولكن السلطان كان قد طعن في السن وأدركه العياء والخور فلم يحرك ساكنا

وحين أفاق أعضاء الاتحاد والترقي من هول الصدمة.. اختبأوا خلف محمود شوكت قائد الجيش الثالث وأقنعوه بالزحف على اسطنبول لإنقاذ الدستور.. وهكذا آلت ثورتنا للفشل.. انظر إلي يدي هاتين.. لقد قطفت بهما رؤوس أربعه من ضباط الاتحاد والترقي.

1. باديشاه شوك ياشاه:هتاف بحياة السلطان.

(10)

مثلما تنتشر الرائحة الخبيثة.. انتشرت في غزة رائحة فتاوي المنشاوي.. حتى زكمت الأنوف.. مرة يفتي بعدم أبدية الشرائع ..وأخري يفتي بإمكانية ظهور أنبياء جدد مستندا الي الاية الكريمة ((إن الله لا يعذب قوما حتي يبعث فيهم رسولا)) مفسرا

ذلك بان الرسل سيتواترون إلي قيام الساعة حتى تكون لله حجة في محاسبة الناس.. أو يفتي بجواز خروج النساء سافرات زاعما أن الحجاب ليس من أركان الإسلام أو أصوله الثابتة أو يسقط عن المصلي فرض الاغتسال بعد الوطء زاعما إن الوطء لا ينقض الطهارة.

قرعت أخبار فتاواه أسماع سيدنا المفتي.. فلم يأخذ الخبر علي محمل الجد.. مرجعا الأمر إلي كيد أعداء المنشاوي ..وترويجهم الإشاعات ضده ذلك أنه كان يحب الرجل ويستخف ظله ..وما فطر عليه من حب الدعابة والمزاح.. إلي إن كانت الطامه الكبري حين خطب المنشاوي الجمعة في مسجد سيدنا هاشم معلنا ظهور المهدي المنتظر في عكا داعيا الناس الي اتباعه للنجاه بدينهم والفوز بدنياهم. استشاط المفتي غضبا..لاسيما وهو يعرف الكثير عن الدعوة البهائية واحتضان الروس لحسين المازندراني الزنديق وشفاعتهم فيه لدى الشاة الفارسي.. ولجوئه إلي الإنجليز الذين توسطوا له لدى السلطان وساعدوه إلي الاستقرار في عكا.. وما راح ينسجه هذا الوافد المشبوه من علاقة مع المستوطنين اليهود.. وراعه أنهم اشتروا المنشاوي الذي كان يعتبره أحد رجاله ..أحس أن السكين وصلت الي ذقنه وهو في غفلة.

لم يشأ المفتي أن يبهت المنشاوي قبل أن يسمع منه رغم أن شهودا عدولا مشهود لهم بالتقوى أيدوا ما نقل إليه من الروايات غير زيغه ومروقه.

جمع المفتي في بيته القضاة والعلماء وبعض وجوة المدينة لكي يستنطق المنشاوي أمامهم وحين التأم المجلس ..قال لولده مصطفى:

- أدخل علينا المنشاوي.
- حين استقر المنشاوي في المجلس المعد له.. بادره المفتي بالسؤال:
- ماذا تقول في حسين المازنداني الذي لقب نفسة " بهاء الله" ؟؟!!

- أقول إنه مسلم حسن الإسلام.. يشهد أن لا اله إلا الله وأن محمد رسول الله ..وكان يصلي في أول صف خلف إمام مسجد عكا .

- وماذا تقول بولده عباس الملقب بعبد البهاء؟
- ما قلته في أبيه.
- ولكنهما ادعيا النبوة ..ثم زعما أن الله حل فيهما.
- ما أظن أحدا يؤاخذ الصوفيين على مواجدهم.

صاح المفتي ساخرا:

–مواجد الصوفيين شيء.. ومكائد الصلبين شيء آخر.. ألا تدري ما يبيتون لهذة الأمة بغية شق صفوفها ..وتمزيق وحدتها.. لكي يسهل عليهم إبتلاعها لقمة بعد لقمة.. ألا تعلم ما علاقه صاحبيك مع الروس والإنجليز واليهود ؟؟!

سكت المنشاوي ولم يحر جوابا.

–ألم تدع لعبد البهاء علي المنبر زاعما انه هو المهدي المنتظر؟

قال المنشاوي:

- الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله قال :
- قاطعه المفتي

لسنا هنا لنحاكم ابا حامد الغزالي ..سامحه الله.. فأقصر عن الرجل وأجب عما نسألك عنه..عباس أفندي الذي لقب نفسه بعبد البهاء ادعي أنه المهدي المنتظر الذي بظهوره تنسخ الشرائع وتلغى الحدود وتسقط التكاليف.. ثم ما لبث أن ادعى الألوهية ..فهل انت على دينه وملته؟

أطرق المنشاوي برأسه إلى الأرض وقد أصفر وجهه .. وتهدلت لحيته قال المفتي بغضب :

–إن كان قد صح ما نقل إلى على لسانك فقد وقعت في الردة والكفر.. برئت منك الذمة.. وحل للمسلمين دمك .. لكنني لا أريد أن أقتلك .. فأكون كمن يقطع ذنب الأفعى ويترك رأسها .. سأرفع أمر هذا المارق عبد البهاء إلى السلطان .. عسى أن

يريح المسلمين من شره .. بعدها يكون لنا ولك شئن الزم بيتك .. لا تخرج منه ولا تستقبل فيه أحد من الناس حتى يبلغ الله فيك أمره .. أغرب عن وجهي .

قام المنشاوي يتسحب من مجلس المفتي وقد انقلبت سحنته وزاد جحوظ عينيه واصفرار وجهه وتهدل لحيته .. فبدا كأنه صورة لإبليس.

ساد الصمت برهة طويلة إلى أن قال شيخ الطرق الصوفية :

- ما دخل الصوفيين فيما يفعله الزنادقة؟! ..إن الصوفي ينعم ويتلذذ بمراتب الكشف والوصول والحلول والذوبان بالحبيب المعشوق .. دون أن يفضح السر أو يهتك الحجب .. فإن فعل والصم بالخيانة .. وباء بالخسران .

السيد شعشاعة نقيب السادات الأشراف سأل المفتي:

لماذا أراد أن يستشهد بالغزالي في موقف كالذي هو فيه .. ولماذا منعته من ذلك ودعوت للغزالي بأن يسامحه الله؟

قال المفتي :

أراد أن يذكرني بمناظرة جرت بيني وبينه منذ أعوام حول الغزالي .. فلم أتركه يفتح هذا الباب ليصرفنا عما نحن فيه .

وقف المفتي .. فهب الجميع واقفين .. ودعهم إلى باب البيت وانصرف مهموما إلى الليوان .. طلب فنجانا من القهوة .. قال ولده مصطفى للخادمة :

- بل اثنين يا سعدة .

جلس إلى جانب والده كعادته يجاذبه أطراف الحديث .

كان مصطفى الذي يدرس في الكلية الحربية في اسطنببول يحرص خلال إجازاته القليلة على أن يتلقن من أبيه أمور دينه وتاريخ أمته .. ولم يكن المفتي ليبخل على ولده بشيء من ذلك .

وضع مصطفى طربوشه جانبا وأخذ يعبث بحبات المسبحة التي تدلت من يد والده وسأل : من هو أبو حامد الغزالي الذي ذكر اسمه مرتين بهذه الجلسة؟

قال المفتي :

-يا بني لم تكن بدعة التصوف معروفة في الإسلام أيام النبي عليه الصلاة و السلام وأيام خلفائه الراشدين .. فالدين السمح الذي ندين به .. لا يقبل التطرف واللجاجة .. وقد أكد ذلك فلاسفة المسلمين الأوائل.. مثل الكندي والفارابي .. الذين رجحا العقل على النقل .. وأقاما الحجة بالمشاهدة والاستقراء واستدلا على وجود الغائب بالحاضر وعرضا النص على العقل فما أقر العقل به قبلاه .. ذلك أن النص نفسه نزه العقل مرارا وتكرارا ..وجاء الخطاب فيه للعقل .. " لقوم يعقلون" .." يا اؤلي الألباب"" .. " الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض " "وفي أنفسهم ". وحيث أن الحكمة كما قال رسول الله صلي الله عليه وسلم ضالة المؤمن يجدها حيث ثقفها .. فقد أعادا دراسة أرسطو وتلميذه أفلاطون اللذين قالا بأن العقل مقدم على جميع الحواس .. حتى جاء أبو حامد الغزالي سامحه الله ووقع بقصد أو بدون قصد في شرك أعداء الملة من بقايا الغنوصية والمزدكية.. وصابئة حران.. الذين قامت عقائدهم قبل الإسلام ..على الإشراق ..والحلول .. والكشف..ومحاولة الوصول إلى الله عن طريق أماته الشهوات والغرائز.. والتدرج في مراتب الارتقاء بالعشق.. حتى الفناء الكامل للعاشق في المعشوق .. مدعين أنهم بهذه الوسائل يتوصلون معرفه الله .. دون حاجة.

إلى الكتب السماوية أو الأنبياء خاصة .. آخر هذه الكتب السماوية القرآن العظيم الذي قضى على دولة الفرس وسطوتهم .

زعموا أن المتصوف في لحظة الوصول يصبح هو المصلي .. وهو الصلاة .. وهو المسجد .. وهو الدين.. وهو الإله المعبود .. كل ذلك في ان واحد .. بذلك يسقط عنه التكليف ويعفي من حدود الله التي نزلت بها آيات الذكر .

سأل مصطفى:

– ألم ينتبه المسلمون لخطورة الباب الذي فتحه عليهم الغزالي رحمة الله؟

–بلي .. أبو الوليد ابن رشد .. جزاه الله عن الإسلام خيرا .. تصدى الغزالي ورد عليه في كتابه .. "تهافت التهافت" .. معيدا إلى العقل دوره .. مؤسسا على ما بدأه أرسطو وأفلاطون .. إلا أن الوقت لم يسعفه ليكمل رسالته.. سقطت الأندلس تحت سنابك خيل الفرنجة .. ثم ما لبث المشرق كله أن سقط تحت سنابك خيل الترك.. الذين كانوا بجهلهم وتخلفهم ضغثا على إبالة.

تمتم مصطفى وهو شارد الذهن:

- ليس من العجب أن يقوم الآن مارق أن الله قد حل فيه وأن الشرائع نسخت بظهوره ؟!

ضرب المفتي كفا بكف .. وهو يحوقل ويستعيذ بالله .. ثم تلي قوله تعالي : – هل "أنبئكم على من تنزل الشياطين .. تنزل على كل أفاك أثيم.. يلقون السمع واكثرهم بكاذبون"

صدق الله العظيم

دخلت سعدة تحمل صينية القهوة .. تأملها مصطفى .. لا بد أنها في مثل سني.. لاحظ قوامها الممشوق.. ووجهها الذي يشرق جمالا ونضارة..

وتمنى إن تخالسه النظر.. ولكنها كانت تنظر إلى الأرض في حياء .. وضعت صينية القهوة أمام سيديها ومضت .

قال مصطفى في سره :

- ما اشد الفرق بينها وبين بنات اسطنبول الواتي يخرزن المارة بنظراتهن .. ويرسلن ضحكاتهن المستهترة .. كلما لاح لهن عابر سبيل .

1. سورة الشعراء .

خلت أزقة الحارة من الرجال تماما.. تعودت النساء غياب الرجال .. فما عدن يجدن حرجا في الوقوف على أبواب البيوت في فضله من الثياب .. يتجاذبن .. الحديث دون أن يمر بهن ظل لرجل ثم ازددن جرأة فصرن يتجولن في أزقة الحارة سافرات .
قالت سعدية زوجة سلمان البطش لجارتها عائشة زوجة موسى الجرو .. وكانت قد انجبت توأما بعد رحيل زوجها إلى العسكرية:

-كيف حال الجراو الصغيرة ؟

-مش ملاحقة عليهم رضاعة .. هدوا حيلي يا أم سلامة .

-مافيش أخبار عن محاكي ؟

تنهدت سعدية:

لا اخبار ولا اعلام .. أخذوا سليمان وإخوتو عالعسكر والجندرمة.. قلنا البركة عمي أبو عطا.. نفسه بالدار.. طلعوا قرار تسخير دواب الأهالي في الحرب.. ا الإختيارية لحقوا الدواب .. عشان يسترجعوها بعد انتهاء السخرة.. السخرة طالت .. والحرب أكلتهم وأكلت دوابهم..حماتي قالت لعمي بدناش الدواب .. قطع الدواب ويومهم .. بدنا إياك إنت تضل على روسنا.. ستر وغطا ولكنه حتم رأيه: الدواب إيدنا ورجلنا.. من غيرهم لا بنزرع ولا بنقلع .. وبنموت من الجوع .. تحملت حماتي غياب أبنائها كلهم .. ولكنها لم تتحمل غياب زوجها.. ماتت بعد شهر من رحيله.
سمعن أصوات قهقهة و ضحكات ماجنة .. ثم رأين بنات الحلواني الثلاث سافرات وقد تهدلت شعورهن إلى الخاصرة .. قالت عايشة:

-وين يا بنات .. هالحارة أحسن من غيرها

ردت الكبرى :

- هادي مش حارة .. هادي خرابة.

أردفت الصغرى :

-ملعون أبو الحارة إلى ما فيها شب يقول مرحبا.

تابعتهم بنظرها حتى اختفين .. وقالت لجارتها:

- الله يستر عالولايا.. بنات الحلواني كبروا في الزمن الأغبر .. وماحدش دق بابهم.

– وإذا كان ماحدش دق بابهم .. يحطوا رجل في السكة ورجل بالبركة؟!

صحيح إللي اختشوا ماتوا .

–يا حسرتي .. مالهمش عم ولا خال يحسبوا حسابوا .. أبوهم الله يرحمه ما خلفش أولاد .

– الله لا يرحمه .. كان مسرسب الحارة .

سمعا بكاء طفلين .. ارتجفت حلمتا عائشة وأحست بالحليب يتدفق في صدرها.. قالت لجارتها:

–ابزازي شعطوني.

أجابت سعدية وهي تنسحب إلى داخل بيتها:

–روحي رضعي إجراوك.. وخليني أكمل شغل البيت.

بنات الحلواني صادفن الغتيت يتوكأ على كتف صبيه مدحت .. في الطريق إلى المسجد الأيبكي ليؤذن لصلاه الجمعة .. ضحكت الكبرى وهي تشير إلى الغتيت :

–غطوا يا بنات .. مش شايفين الزلمة .

أجابت الصغرى بسخرية :

– يا خيبتي والله عينيه زي المخرز .

وبحركة ماجنه رفعن ذيول جلابيبهن على رؤوسهن وتقنعن بها كما تتنقع عجائز الحارة .. تاركات مؤخراتهن عارية تماما .. حملق مدحت مشدوها وهو يبتلع ريقه .. كانت هذه أول مرة يطلع فيها على عورات النساء .

هرولن حتى اجتزته ضاحكات.. تابع رجرجة أعجازهن السمينة البيضاء .. لفه الدوار .. كاد أن يسقط مغشيا.. لولا أنه استند إلى ذراع الغتيت:

–الولد وقع من طولو.

تابع الغتيت وقد لانت نبرة صوته:

–أكيد كشفولك طيازهم..أخ يا قلة الرجال .. اسحبني عالجامع قبل ما يفوتنا الأذان ..

أكمل وهو يصر على أسنانه: كل وقت وإلو أذان يا بنات إبليس.
على باب المسجد كان محمد هاشم أحد كهول الحارة جالسا يحدث صديقه وجاره جمعه غباين عن الموسم الذي مضي و كيف حاولت النساء معهن الكهول والصبية تعويض غياب الرجال عن الفلحة ... والجهود المضنية التي بذلوها لكي يحصلوا على ما يحفظ الرمق.

- المطر كان طيس.. بس يا خسارة ..الإيدين إلى شدت على المحاريث كانت طرية .. إيدين النسوان والولده .. الحسيم ما بلغ في الأرض .. الطين ما تقلب فوقاني تحتاني .. البدار[1] ضل على الوش .. والزرعي[2] عمل عمايلو.

وصل الشيخ كامل الهواشمه شيخ الحارة.. ألقى عليهم السلام .. أفسحوا له المكان فجلس إلى جوارهم .. قال مداعبا صديقه جمعة غباين الذي تزوج للمرة الثالثه وهو في السبعين من عمره أرملة على بكرها وتنيها[3]:

- بشوف العريس مبلغ فرار [4] .

رد عليه غباين

– أي هيا كنافة .. الكنافة بنزهق منها .

1. البدار : الحبوب
2. الزرعي : رفوف الطيور الزرعي التي تهاجم الحقول في وقت البذار.
3. بكرها وتنيها: أم طفلين
4. مبلغ فرار: هارب من الجنديه.

واصل شيخ الحاره مداعبته:

–زهق .. والا قصر ديل .

هز غباين وتنهد بأسي:

–صدق المثل .. أول بختك كرسي تحتك .. وتاني بختك داري وقتك .. وتالت بختك رفيق عالطريق .. يا دوب شفتني وشفتك.

سمعوا الأذان .. نهضوا يتوكأون على عصيهم إلى داخل المسجد .. صلى شيخ الحارة تحية المسجد .. تأمل الناس حوله .. كانوا سبعة من الكهول وأربعة من الصبية .. حدق في عيونهم الغائرة .. وأجسادهم النحيلة.. وثيابهم الرثة.. وتذكر كيف كان المسجد قبل الحرب يعج بالناس وتنهد: ما يظل عالمرابط..إلا أوشم البقر.

أنهى الشيخ علي خطبة الجمعه بالدعاء للسلطان وهم يؤمنون خلفه:

-اللهم أدم دولة ظل الله في العالم .. باديشاه بني آدم .. ثاني اسكندر ذي القرنين.. سلطان البرين . وخاقان البحرين .. وخادم الحرمين الشريفين.. السلطان محمد رشاد .. أيد الله خلافته.. وخلد سلطنته.. ونصر جيوشه الموحدين على القوم الكافرين .. بحرمة الفاتحة.

لم يكملوا الفاتحة حتى دب الصريخ في الحارة:

- العسكر بكبسوا الدور .. وبنهبوا الغلة.

هب الكهول يتدافعون إلى باب المسجد .. أول الخارجين كان أبو التوفيق.. هرع إلى البد.. لينقذ ما يمكن إنقاذه .. شقيقه وشريكه الشيخ علي إمام المسجد إنهار على درج المنبر وقد تخرطت ركبتاه .. نساء الحاره احتضن أطفالهن وانزوين في الدور يبكين بحرقة وقد مثل أمامهن شبح الجوع القادم..

ديب الغتيت جرى إلى الخارج .. يرتطم بمن في طريقه حتى عثر على صبيه:

-اسحبيني عند قايد العسكر.

ورغم أنه كان قد أتى منذ زمن على مخزون بيته من البرغل والمفتول وكل شئ يؤكل ..تاركا البيت قاعا صفصفا إلا أنه حين وصل الجماقية .. انبطح أمام قائد العسكر.. يتمرغ على الأرض ويعول مثل إمرأة ثكلت بنيها:

- العسكر نهبوني يا بيك .. أخذوا المفتول والبرغل والقمح ومحلبة السمن إللي حيلتي.. في رقبتي أرامل ويتامى .. أنا في عرضك يا بيك .. إلك ولايا تخاف عليهم.. جاه الله عليك.

بنات الحلواني عدن من جولتهن المشبوهة خارج الحارة فوجدن المناحة على أشدها.. قالت كبراهن:

–اليوم يومكم يا بنات .. هادي جنازة وبدنا نشبع فيها لطم .. شقوا اتيابكو ونكشوا شعوركم والحقوني.

دخلن على البيك بالطبلة والزمارة:

–يا وردي (1) علينا وعلى إللي جرالنا .. يا خيبتي .. العسكر يا بيك اغتصبونا.. واعتدوا على شرفنا.

كف الغتيت عن تمرغه على الأرض .. بحث عن عصاه حتى وجدها نهض واقفا وهتف:

– لأ .. كلو إلا الشرف.

في البد كان أبو التوفيق ينتف ذقنة .. فقد نهب العسكر مخزون الزيت كله.. وحين عجزوا عن إخراج الجمل من باب الطاحونة الضيق قطعوه إربا وحملوها معهم تاركين في أرض الطاحونة بركة من الدم.

قال أبو التوفيق لزوجته:

–ما حدّش بجينا مشمر من ورا .. الكل بيجي مشمر من قدام .

تأملت زوجته الخراب الذي خلفوه :

1.وردي: هي الكلمة العاميه المشتقة من (وارديئ).

أول أخدوا أولادنا عالحرب .. وهلقيت نهبوا مالنا .. ونعوا حالنا .. موت وخراب ديار .

وصل الحاج أحمد بعد أن بلغه النبأ في الدبوية متأخرا فوجد الحارة في مأتم .. عايرته أخته أم التوفيق:

– إجيت بعد خراب بصرة .. إللي متحزم إبك عريان .. إرجع عالجندرمة ودورلك على أرملة أو يتيم تاخد إللي بين إيديه.

انصرف الحاج أحمد وهو يكظم غيظه.

(12)

ستة أشهر مضت على استدعاء الحاج أحمد للجندرمة .. ورغم قيامه بعمله شاويشا للدوريات التي تجوب شوارع المدينة وأزقة الحارات حفظا لأمن الرعية إلا أنه مثله مثل باقي أفراد الجندرمة لم يتسلم الدولة الجمكية(1) المقررة له.

لقد وضعته آمنة في خانة اليك والزمته بشراء الكرم الذي ورثته عن زوجها لكي تنفق ثمنه على اليتامى .. بعد أن عرضت الكرم على الجيران والمعارف وأهل السوق فلم يرغب في شرائه أحد.. أنفق الناس جل مالهم في توفير الطعام .. بعد أن تضاعفت سعره مرات عديدة .. والذين بقي معهم بعض النقود صاروا يدعون كل بشلك ينفقونه منها وداع من لا يرجو لقاء.

لم يستطيع الحاج أحمد رفض الصفقة .. فهو مضطر لإعالة أخته وأولادها سواء بالكرم أو بدونه .. كانت حالة الكرم سيئة فمعظم أشجار التين واللوزيات والتفاح قد جفت .. وأشجار الجميز وحدها بقيت صامدة وواصلت وفاءها لصحبة الأبدية التي تنعقد في بساتين غزة بين أشجار الجميز الضخمة وعروق الدوالي التي تتسلقها وترصع فروعها بالعناقيد.

راتب الحاج أحمد تأخر.. ستة أشهر وزيادة .. ولكنه ظل يطمئن شقيقه بأن كل تأخيرة وفيها خيرة .. واللي بتأخر.. بتوفر.

صبرت عليه آمنة مادام مواظبا على تقديم ما يحفظ الرمق لها ولأولادها صحيح أنه كان يقسم الرغيف بينه وبين شقيقته قبل أن يشتري منها الكرم .. ولكنها كانت تحس بالحرج وهي تسمع زوجته محضية تبرطم:

-جوزتها تتاخر .. جابت لي هم آخر.

الآن وبعد الصفقه صار لها عين .. فهي تجلس في صدر المطرح وتأكل هي وأولادها من راس الطنجرة .. وتسمع دون اكتراث ضيق محضيه وتبرمها:

1. الجمكيه: الراتب .

- اولادها شواليح .. بخطفوا اللقمه من التم .. صارلهم علينا ضربة لازم.

تفنن الحاج أحمد في تدبير معيشة أهله .. كان يحمل بندقيته ويتربص بالبط والرقطي واليمام في بركه قمر.. وسواقي المدينة.. لم يكن الصيد وفيرا .. فهؤلاء العسكر افترسوا كل شئ أمامهم كما يفعل الجراد .. إلا أن النزر اليسير من الصيد كان كافيا لكي بتذوق الصغار بين الحين والآخر طعم اللحم الشهي .. ويرتشفوا بتلذذ المرق الساخن الذي يعيد إلى وجوههم الشاحبة بعض نضارتها السابقة .. عمله في الجندرمة ضمن له حصة مما يصادره العسكر من البضائع المتروكة في الجمارك ..

أو المضبوطات لدى المخالفين للتسعيرة .. والمهربين.. ضحايا الذرائع التي يخترعها شوكت بيك لتبرير السلب والنهب

وقد لاحظ الحاج أحمد أنه فقد شيئا فشيئا معارضته لمثل هذه الأمور.. ولم يعد يشعر بالإثم وهو يتسلم حصته من هذه المغانم .

لقد كان من السهل عليه أن يتحمل الجوع والعطش أياما.. ولكنه لم يستطيع أن يتحمل بكاء أولاده من الجوع يوما واحدا وكثيرا ماعزى نفسه وهو يصر على أسنانه:

- القل اخزام[1] العنتير.

حين يقطب الرمس ..وتأوى الطيور إلى وكناتها.. لا يأوي الحاج أحمد إلى فراشه كما يفعل الآخرون ولكنه يذهب إلى الكرم الذي اشتراه رغم أنفه.. فيشمر عن ساعده ويعمل حتى منتصف الليل ليعيد غرس الكرم من جذرها طبقة الطين .. أما اللوزيات فكان يكتفي بدفن النوى على عمق متر واحد .. كذلك استغرق تسييجها بضلوع الصبر وقتا طويلا.

1. إخزام : الحلقه التي توضع في أنف الثور .. ليسهل قياده .

الدوش تأجل استدعاؤه للعسكريه لإصابة عينيه بالتراخوما .. عرض عليه أن يساعده في غرس الكرم دون أجر إلا طعامه وشرابه.. رحب الحاج أحمد بالفكرة .. الدوش بعد أن أتم يوم عمله الأول .. أكل طرحة الخبز كلها وقدرة سلقوعدس ونصف رطل من الفلفل الأخضر إللي بقرر الحرامي [1] وشرب كراز[2] الماء كله.. ثم نظر حواليه يطب المزيد .

قال له الحاج أحمد حينما عاد من الدبوية وأعلمته زوجته بالنازلة التي حلت بهم:

- لم يترك لي ولزوجتي وأطفالي شيئا نأكله .. سنبيت هذه الليله على لحم بطوننا.
- بكره باكل نص بطن.
- لا نص ولا ربع.. بكره ساعد ناس غيرنا.. بلاش نحرم بقيه أهل الحارة من أفضالك.

حين اختفي قال الحاج أحمد لزوجته:

- ابن أخويه الدوش بطنو أجرب .. وراسو أجدب.

دخلت عليهم آمنه:

-صحيح يا أخو العسكر بدهم يقبضو المتأخر؟

كانت آمنة منذ باعت الكرم لأخيها تتسقط أخبار الجمكية.. حتى لا يفوتها ثمن الكرم .

قال الحاج أحمد:

-بكره إذا دفعوا لنا .. خذي حسابك كله .

انصرفت آمنة سعيدة النفس بالذهب والفضة.

1. يجعل اللص يعترف بجميع المسروقات من شده لذعته وحرقته.
2. الكراز : الإبريق الضخم من الفخار.

في اليوم التالي قبض الحاج أحمد رواتبه المتأخرة وحين وضعها في حجر آمنة كأنه وضع ثعبانا.. فلم تكن النقود ذهبية ولا فضية .. إذا فالشائعات التي تناقلها الناس صحيحة الدولة أفلست ولم يعد لديها الما فعمدت إلى طبع عملة ورقية لا تساوي الحبر الذي طبعت به.

جلس الحاج أحمد أمامها القرفصاء يهون عليها مصابها الفادح.

- إيش بدك تشتري بالمصاري؟

أجابت وعي تتهنه دموعها:

-قمح .. فردة قمح .. أطحن وأعجن منها لأولادي
- على راسي .. خديها من هالشوارب.
- كيف؟
- بكرة (1) على الطريق .. واشتري أول فرده قمح .. اتفقي مع البياع على السعر وخبي عنو المصاري لغاية ما يفضيها في البايكة.. ويتكها من خصامها.. بعدين سلميه المصاري

دقت آمنه صدرها:
- يا خيبتي والله بدبحني
- ما تخافيش .. رح أكون واقف بالبدلة الميري ورا السياج مستني الإشارة .

لبد الحاج أحمد خلف السياج .. متابعا الشرك الذي نصبه للبائع المسكين.. وهو يتفصد عرقا .. ها هو أخيرا يصبح واحدا منهم .. هؤلاء الأفاقين المحيطين بالبيك قائد الجندرمة والذين يزينون له سوء فعله .. ويسلبون أقوات الناس.

تابع الحاج أحمد الرجل المسكين وهو يدخل فردة القمح من باب الدار .. وقال في نفسه (إيش لزك على المر.. إللي أمر منو)..سمع صرخته وهو يفجع بمنظر النقود الورقية في يد آمنة:

1. إسرى : فعل أمر من سرى يسري .

- يا هالنهار الفتاح .. في مين اتصبحت واستفتحت.. يا هالصباح الأغبر هادي عمله باطلة .. ضبي ورقك.. وخلينا ناخد قمحنا ويادار ما دخلك شر.

صرخت آمنة تطلب النجدة:
- يا حكومة .. يا عسكر .. يا جندرمة .. الحقوني.. يا وردي.

قفز الحاج أحمد من خلف السياج ببدلته الرسمية والكلبك معقود على رأسه.. وبيده كرباجه.
- أولان .. إيش في ما في؟
-مش راضي يقبل العملة يا أفندي .. بقول عنها باطلة.

أهوي بكرباجه على رأس الرجل.

- خاين .. بدك تبط عمله السلطان .. بوسها وحطها على راسك .

قال الرجل و كأنه يخاطب عفريتا ظهر له حين غرة:

- ببوسها يا أفندي .. ببوسها.

قبل العملة ووضعها على رأسه وانطلق يطلب النجاة لنفسه.

قضى الحاج أحمد سحابة النهار عند آمنة خوفا عودة الرجل .. ولكنه لم يعد.

(13)

غسلت عزيزة زجاج الأرجيلة جيدا .. ثم أسقطت بداخلها زهرتي رمان وزهرتي برتقال وقصفة من لبلاب الليمون .. ملأتها بالماء حتى العنق ثم رصت عليها نفس التمباك.. ووضعتها جانبا.. أشعلت الفحم في كانون الطين .. وفردت الحصير تحت الدالية التي تدلت منها عناقيد الحصرم مبشرة بالعطاء الوفير..

لقد اشتري زوجها كروم زينو المقابل لساقية قلفان قبل ذهابه إلى العسكرية وعهد إلى أبيها برعايته.. وعندها تزوجها أصرت على أن يزفوها في "الجبلك" من باب البد إلى كروم زينو وكانت تلك أطول زفة عرفتها الحارة.

إنها تذكر كيف وقف داخل الجبلك .. على رأسها الطربوش المرصع بالحلي الذهبية والفضية .. شباب الحارة حرصو ا على نقل الجبلك بتؤدة ورفق حتى لا تتعثر العروس بأذيال ثوبها الطويلة..من حولها السيافة يلعبون بالسيوف.. على أنغام الشبابات والنساء يزغردن.. العريس بتبختر بحصانه على رأس الموكب وسط الأهازيج والمواويل..

لم تعد الحارة تعرف عرسا كهذه.. الشباب أكلتهم طوابير العسكر والصبايا حط عليهم غراب البين.. الحزن أعمى قلوبهم .

دق باب الدار.. دخلت حماتها أم محمود.. قالت في سرها :

-بتجيش تسأل على ابنها الا معاد الغدا.

حيتها باقتضاب .. جلستها على الحصير عادت لعملها وهي تغلي.

أمه وأخته زينب وشقيقه الأصغر مدحت يعيشون في بيت الحارة مع الغتيت.. إلا أنها مازالت تعاملهم على أساس (الحماة حمة.. وبنتها العقربه المسمة) وتتفنن في الكيد لهم بمقدار تفننها في إرضاء زوجها وإسعاده.. كثيرا ما كانت أمها تلومها لهم على سوء معاملتها لهم فتتفجر في أمها:

-هدولا بتوروش عين.. إذا ضحكت في وشهم بركبوني وبدندلوا رجليهم.

عاد زوجها من عمله في توصيل السوقيات مبكرا.. قبل يد أمه ورأسها وبالغ في الترحيب.. بها خلع بدلة الجندرمة وعلقها على الجدار .. غسل يديه عند عرق الدالية .. وجلس إلى جوار أمه على الحصير .. وضعت عزيزة الطبلية أمامه ثم أحضرت صينية من النحاس عليها طنجرة مقلوبة .. اشتم رائحة الطعام الشهية وهتف: مقلوبة برغل ؟

قالت عزيزة بفخر:

– إمبارح بدلت محلبة زيت بمحلبة سمنة .. واليوم بدلت جرة زيت بكيس برغل .

انتظرت عزيزة أن ينوه بحذقها وحسن تدبيرها كما اعتاد ولكنه لم يزد على أن قال:

- لو لا زيت الوادي .. لعضنا الجوع .

أتوا على ما الصينية تماما .. رفعت عزيزة الصينية .. ووضعت التوت أمامهم.. انشغل اسماعيل باختيار حبات التوت لأمه :

- مشعل رجع من العريش .. ومعه مكتوب من محمود .

وضعت يدها في عبها وأخرجت الرسالة .. ناولتها إياها.. فضها وبدأ في القراءة:

- الأخ العزيز والذهب الإبزيز أبو مصطفى رعاه الله وحماه نوله مناه .. بعد تقبيل أياديكم وأيادي الوالدة الحنونة والسلام على من حضر .. نفيدكم أنهم أخذونا من غزة أنا وابن عمي خليل وسليمان البطش وهاشم الشرفا وعبد الجواد الجرو وباقي أولاد الحاره إلى حيفا ومنها الي دمشق الشام مكان يدعى مسمية درعا .. حيث قسمونا إلى فرق .. وقام المدربون الألمان بتدريبنا على

الجري والمشي واستعمال السلاح .. وبعد ستة أشهر من التدريب أمر المشير باختيار اثنين من كل بلك عشان يلبسوهم ضباط وشاويشية وقد البسوني أومباشي أما خليل فقد لبسوه شاويش ليس لأنه يجد التركية قراءة وكتابه فقط .. وكن لأنه أشقر وعينية زرق وحسبوه من أولاد الترك.

حين دق طبل الرجوف نقلونا إلى نابلس.. ثم إلى القدس هناك سكنونا في الأديرة والكنائس تمهيدا لأخذنا في السفر برلك .

بعد أن اكتمل التجمع مشي طابورنا برنجي طابور .. مع تنجي طابور إلى بئر السبع ومنها إلى العريش .. أحضروا لنا عددا كبيرا من البدو الذين استاجرهم الدولة هم وجمالهم وطلبوا منا تدريبهم عشان يصيرو عسكر .. وقد أبليت في تدريبهم بلاء حسنا طابورنا اول طابور يعبر الترعه سامحوني ادعو لي انا مسامحكم واحد واحد وسامحت الجيران واهل الحاره واللقا يوم اللقا مسحت امه دموعها وهتفت بلوعه.

-يعني سامح أختك زينب .

صرخ اسماعيل :

-زينب مش أختي ولا عمري بتعرف عليها طالما هيه على ذمه هالكلب.

- زينب حامل يا أبو مصطفى .

ضرب اسماعيل كفا بكف:

-حسبي الله ونعم الوكيل.

أرادت أن تغير وجهه الحديث حتى لا يتفاقم غضبه :

- أكتب رد الجواب لأخوك .. وقلوا سالم السروان طلق سعدة .

سكتت هنيهة .. ثم أضافت وكأنها تعتذر عن خطأ وقعت فيه بغير قصد :

- سعدة حلفتني اشيع له سلامها .. كبدي عليك يا أمه .. انحرمت من إللي حبيتها.. وأخدوك عالحرب قبل ما تفرح .. ولا تدخل دنيا.

وضعت عزيزة الشيشة أمام زوجها .. وناولته النربيش .. امتص أنفاس التمباك بعصبية .. تأمل زهرتي الرمان وهما تتراقصان داخل الزجاجة مع كركرة الماء الشيشة .. استند بمرفقة على الوسادة التي هيأتها له عزيزة .. محاولا الإسترخاء. داهمتمهم آمنة كدأبها في الأيام الأخيرة.. لم تسأله هذه المرة إن كان الجندرمة قد استلموا رواتبهم المتأخرة .. كما اعتادت أن تفعل منذ باعت كرمها بالدين لشقيقها الحاج أحمد .. ولكنها لاذت بالحصير خائرة القوي .

– شنقوها بعد صلاة العصر .. مسكينة .

شهقت عزيزة ودقت على صدرها..

– يا خيبتي عليها.. وعلى إللي جرالها.

اعتدل اسماعيل في جلسته وقد وجده فرصه للتنفس عن غضبة :

- الله لا يرحم لها فشه .. عشرة من شباب الحارة .. إنعوروا على إيدها في ليلة واحدة .. حطت لهم بذر ملوخية في العين اليمين عشان تسقط عنهم العسكرية .. انتو مش عارفين إنو التولي يوم الزحف من أكبر الكبائر. صحيح النسوان ناقصات عقل ودين .

–95–

(14)

انتهت زينب من تحميم الغتيت وتجفيفه .. والبستة ثيابا نظيفة وثبتت اللفة البيضاء على طربوشه البالي مجاهدة أن تستر ما فيه من عيوب وهو يستحثها علي السرعه بفظاظتة المعهودة خشية إن يفوته العزاء في الحارة الزيتون .. فمنذ أن بدأ سفر برلك وعمله لا يتوقف .. لا يخلو يوم عزاء أو ختمة أو سنوية .. ولولا لؤم صبيه مدحت ومشاكستة لما فاته من ذلك شئ وها هو يعقد العزم على أن يأخذه بالحزم والشدة .. رغم توسلات أخته واستماتتها عن الدفاع عنه .

– أين أخوك يا زينب ؟ لقد أمرته ألا يغادر البيت .

نادى بأعلى صوته .. (يا مدحت) .. ولما لم يجب أحد نداءه أيقن أن صبيه يلعب مع الصبيه في الخارج .. صر على أسنانه يتوعده .. تحسس في جبينه حصاه مسننه أعدها لتأديبه .. هرعت زينب من وقتها إلى الحارة لتحضر شقيقها قبل إن يستشيط زوجها غضبا .. لم تجد تحت سدرة الشيخ أحيار ولا عند حوض الجماقية .. تابعت طريقها إلى ساحة الشوا حيث تجمع صبية الحارة يلعبون لعبه العسكر .. كانوا قد شكوا طابورهم اليومي الذي اعتادو تشكيله منذ قامت هذه الحرب .. تقلدوا على أكتافهم العصي المربوطة بالحبال وأخذوا يدقون الأرض بأقدامهم ويطوحون أذرعتهم في الهواء:

- دو غري در.. ساغ .. سول .. ساغ سول(1).
حين رأت شقيقتها هرعت إليه .. أمسكت بتلابيبه وأخرجته من الطابور.. قاوم بشدة .. رفس بكلتا قدميه.. واصل الطابور سيرة حتى ابتعد تماما .. جرته زينب الي البيت .. قبض الغتيت على ذراعه وبرك فوقه..

1.إلى الأمام سر.. شمال يمين .. شمال يمين.

شعر الصبي بالحصاة تتغرس في حلمة أذنه.. فركها الغتيت بشدة .. أحس الصبي بالنار تشتعل في جسده كله فصرخ .. واصل الغتيت فرك أذنه وواصل الصراخ حتى بح صوته .. أما زينب فانزوت إلى جانب الجدار تحتضن أمها وتبكي بمصت مخافة أن يسمع الغتيت نحيبها فيزداد شراسة وعصبية .. أخيرا هدأ الصبي وقد أفعمه الألم.

-لو هربت ثانية في سوف آكلك بأسناني.. هيا انهض واسحبني إلى دار دبوبش.
اقشعر بدن زينب حين سمعت الغتيت يهدد بأكل أخيها .. تذكرت القصص التي تناقلتها نساء الحارة عن المجاعة .. الناس في لبنان والشام والعراق تحولوا إلى غيلان يأكلون بعضهم بعضا..الجرائد التي تقرأها الشيخ علي أمام المسجد لكهول الحارة تحتفل بجرائم سرقة الأولاد وطبخ لحومهم.

كان الشيخ علي يؤكد لسامعيه أنه لولا الجميز الناشف الذي يملأ بطون الناس لجري على أهل غزة ما جري على غيرهم .. هزتها أمها برفق:

- بتفكري ولا بتمكري يا زينب:

تنهدت زينب :

في بداية الحرب كان الغتيت يعود من عمله بأجر مجز من النقود وحين اختفت النقود من بين أيدي الناس .. كان يعود بالتمر أو الزبيب أو الكعك وحين اختفي ذلك كله صار يعود بكسرتين أو ثلاثة من الخبز الناشف يحرص عليهما كما يحرص البخيل على ماله ويتفنن في مضغها واستحلابها أما الآن فإنه يعود إلى البيت خالي الوفاض .. ولا يجد ما يبتلع به سوي الجميز الناشف.

شمت زينب رائحة الحطب .. فتذكرت أنها لم تشم الرائحة منذ أشهر.. هل اشعل أحد الأفران؟ ومن أين عثر الناس على القمح أو الشعير ليصنعوا خبرهم؟ هرعت إلى الحارة تتلمس الرائحة الزكية وقد تحلب لعابها.. وجدت كل نساء الحارة في دار الريفي مقعيات حول الفرن في انتظار الرغيف الذي

احتشدن له .. هزيلات شاحبات الوجوه كبنات آوى ..

نظرت إليها بحسد فهي الوحيده التي بقى زوجها في حضنها ولم تأخذه الحرب قالت زوجة الجرو لجارتها وهي تتأمل زينب:

– صار لرزينة بيت ..وجرة وابريق زيت :

كشرت زينب عن أنيابها وصرخت في وجهها:

– إنتو بتحسدوا الموتى عاكفانها.

أخرجت بهية الرغيف .. لم تكن متوردا مثل خبز القمح .. ولا ذهبيا مثل خيز الشعير .. ولا فضيا مائلا إلى الصفرة مثل خبز الذرة .. كان بنيا داكنا كجالوس الطين.. قسمته بهية إلى لقم صغيرة وجادت لكل واحدة منهن بلقمة.. وبلهفة ظاهرة التهمت كل واحدة لقمتها وأخذت تلوكها بشهية.. ابتلعن لقمهن بتلذذ.. ثم داومن النظر إلى اللقمة التي مازالت بيد بهية..

لاحظت بهية نظراتهن فتجمد الدم في عروقها .. سارعت لإلتهام لقمتها قبل أن يطبقن عليها.

– عايزين كمان.؟

أجبن بصوت واحد : نعم .. نعم .. ما ألذ طعم خبزك يا بهية .. ألذ من الحلاوة.

– ألذ من الجميز الناشف .. على كل حال إذا عجبكن الخبز روحوا لمخيم العسكر.. واجمعوا الجلة[1] .. ونقوا منها الشعير إللي ما نهضم اغسلوه ونشفوه في الشمس واطحنوا واعجنوا واخبزوا.

لم تكد تكمل حديثها حتى تسابقن إلى الباب طريقهن إلى مخيم العسكر.

على باب عائلة دبوبش تجمع نفر قليل من كهول الحارة .. يستمعون لتلاوة القرآن.. تفنن الغتيت في اختيار السورة التي سيتلوها عن روح الفقيد

1. الجله : الروث المتخلف من الدواب .

وحرص على أن يكون فيها ذكر للجنة وما أعد الله لعباده الصالحين .. حتى يدخل العزاء إلى قلوب أهل الميت فينالوا جزيل الثواب وينال هو جزيل العطاء .. كان يقرأ على السبع .. ويرفع عقيرته بالتجويد حتى تهيأ له أنه بز كل مقرني المدينة.. وما أن وصل إلى قوله تعالي:

– " إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا .. خالدين فيها لا يبغون عنها حولا" ..

حتى ظن أنه تفوق على نفسه وأيقن أنه سيعود وقد امتلأ حبيه .. ابدأ الناس في الانصراف وقد يئسوا من تقديم الطعام عن روح الفقيد .. سأل الغتيت صبيه وقد رابه الصمت الذي خيم على المكان :

– هل خشع الناس إلى هذا الحد ؟!

– الناس روحوا .. وما ضل غيرك .

– لن أنصرف قبل أن أنال حسنة عن الميت.

سمع باب الدار يقفل بالرتاج .. ففقد صوابه .. هب يلتمس الجدار بعصاه إلى أن وصل الباب .. دق علي الباب :

– رحم الله ميتكم وروضه الجنه..

واصل الدق حتى كلت ذراعه .. أخيرا نفذ صبره :

– بتلاقوش إلا الضرير العاجز تاكلوا حقو .. مفش في قلوبكم رحمة لا شفقة.. صحيح ناس ضوع ومقلين .. أكيد المرحوم مالاقاش إيشي ياكلو.. ومات من الجوع .

واصل سبابه المقذع :

–الله لا يرحملكو ميت ولا يزيح عنكو شدة .

أخيراً تحرك مزلاج الباب وسمع الغتيت رجلا يحد سكينه ويقول له:

– لم نجد في غزة كلها عجلا نذبحه عن روح المرحوم إلى إن أرسلك الله إلينا.. إقرأ عن روحك الآن سورة عبس.

-99-

ما أن رأى صبيه السكين في يد الرجل حتى انطلق مذعورا يسابق الريح .. صرخ الغتيت وقد ملأه الرعب :

- يا مدحت .. إجري على عمك في الدبوية .. وهات الجندرمة يرموا كل عيلة دبوبش في الحبس .

هرول الغتيت على غير هدى .. يتعثر في الحجارة وحفر الطريق .. ويرتطم بالجدران مولولاً والدموع في عينيه :

- يا مسلمين .. يا عالمين .. يا أولاد الحلال .. الله لا يهينكم .. حداً يحن على هالضرير العاجز .

حين وصل مدحت إلى الدبوية .. قال الحاج أحمد لرجال الجندرمة وهم يغادرون مع الصبي إلى حارة الزيتون :

– إمشوا على أقل من مهلكم .. بركي الله يهدي دار دبوبش ويريحونا من الغتيت .

-100-

(15)

كانت دورية الاستطلاع تخوض في الرمل .. صُعدا إلى سطح الهضبة وعاصفة الغبار تعمي وجوه العسكر .. قال محمود شاويش الدورية لمرافقه سعد الدين الذي جردوه من رتبته وعاد كما بدأ عسكريته " دومان نفر" (1):

- نحن الآن في أعلى الهضبة التي تدعى كتيبة الخيل .. وعلينا أن ننشئ هنا موقعا للرصد .

سمعوا عواء الكلاب من بعيد .

- هذه كلاب الإنجليز .. يبدو أننا اقتربنا كثيرا من مواقعهم على حافة الترعة .

أنزل العسكر أثقالهم .. وجلسوا يلتقطون أنفاسهم التي تقطت من الصعود .. كانوا منهكين تماماً .

أصدر محمود أوامره :

- إبدأوا في حفر الخندق .. أريد تمويهاً جيداً حتى لا يكتشفه الإنجليز .. ويمطرونا بنيرانهم .

جلس محمود يحاول أن يتبين ما حوله دون جدوى .. أخيرا انتهى حفر خندق يتسع لدورية المراقبة .. أنزلوا عدتهم في الخندق .. وجلسوا يحتمون من العاصفة التي تحاول إقتلاعهم .

فجأة هدأت العاصفة .. وانجلى الغبار .. نظر محمود أمامه فلم يصدق عينيه .. أبصر القناة لأول مرة :

- إذن هذه هي الترعة التي تسببت في سفر برلك .. أربعة أشهر من الجوع والعطش والبرد والغبار والتراب .. وكل مافي الحياة من ضنك ومشقة .

لقد ظن ذات يوم أن الصحراء لا نهاية لها .. وأن أحدا من العسكر لن يقدر له أن يرى الترعة بعينيه .. لقد كان المنظر ساحرا .. حتى أن أحداً من عسكر الدوريه لم ينبس شفه .

1. دومان نفر : مجرد عسكري .

أخذوا يتأملون السفن التي تمخر القناة .. ميزوا طرادا إنجليزيا يقوم بأعمال الدورية .. نصب محمود منظاره و أخذ يحصي مدافع الطراد.. إجتازهم الطراد بسرعة .. ثم بدأت إحدى السفن الكبيرة تم أمامهم .

تأمل محمود السفينة بمنظاره وتنهد والجوع يلوي أمعاءه :

-ركابها أكلوا وشربوا .. وتمددوا على السطح يراقبون الشاطئ بكسل وتلذذ وهم يمتصون تبغ غلايينهم وينفثونه في الهواء .

قال سعد الدين :

-لا بأس علينا يا سيدي الشاويش .. تذكر ما قاله البيمباشي عزت :

(الأرزاق .. والمياه .. والمزارع التي ستوزع علينا .. كل ذلك موجود وراء الترعة).

حلقت فوقهم طائرة انجليزية ثم واصلت طيرانها باتجاه الشرق .. قال محمود :

-كيف سنباغت الإنجليز وطائراتهم تحوم فوقنا منذ بدأنا الزحف .

قال سعد الدين ساخراً:

–لعل فون كرس غير الخطة ..لعله سيهاجمهم عنوة .

نظر إليه محمود باستخفاف ..ولكن سعد الدين استرسل كمن يخاطب نفسه :

–أتذكر يا شاويشنا الاحتفال المهيب الذي شهدته دمشق يوم وداعنا ..سارت الطوابير المشاركة في سف برلك من الثكنات إلى المحطة يتقدمها مفتي الشافعية في المدينة المنورة السيد أبو بكر حاملا اللواء الشريف لواء النبي صلوات الله عليه والناس يلوحون لنا وهم يبكون من الفرحة ..والنساء يزغردن وقد تحركت أعطافهن نشوة وحماسا .. كنا نتدفق صحة وعافية ..ندق الأرض بكعوبنا فترتج تحت أقدام الجموع الهادرة بالأناشيد والدعاء ..أين هذا مما نحن فيه الآن ؟.. الأرزاق التي نفذت ..والجمال التي هلكت ..

والعسكر الذين هدهم السير وحمل الأمتعة..إنني أحسد الذين ماتوا في أول الطريق بلدغة عقرب أو عضة ثعبان ..لقد استراحوا .. أما نحن فقد كابدنا الأهوال ..وتحولت أجسادنا الى وليمة للقمل والبعوض ..كان الجوع والعطش وحده ليس كافيا ..اللعنة على هؤلاء الأتراك .

حدجه محمود بنظرة فسكت على مضض .

مرت فترة من الصمت وهم مأخوذون بمتابعة المنظر أمامهم ..أخيرا خيم الظلام ..فبدت الأنوار الكاشفة مصفوفة بعضها بجانب بعض لاتبعد الواحدة عن الأخرى غير مترين أو ثلاثة .

بدأت أنوار السفن تنعكس على صفحة الماء ..ومن بعيد ظهرت هالة من الضوء عند الأفق .

قال سعد الدين لمحمود :

- هذه الإسماعيلية أكبر مدن القناة .. بكرة اليوزباشي عزت بعطيلك إياها يغمة إنت زلمة جرعتلي ونخوتلي .. وبتستاهل .

إستشاط محمود :

- لو كان فيه رتبة من دومان نفر .. لأوصيت لك بها .. أنا لا أصدق أنهم أعطوك رتبة شاويش ذات يوم .
- الذين أعطوني الرتبة لم يكونوا كفارا مثل جماعة الإتحاد والترقي .. كانوا مسلمين حقيقيين .. في مرعش أنقذت جنديا غرق في البحيرة .. لبسوني أومباشي .. في دمشق الشام يوم الإستعراض الكبير .. كان المشير يراقب الإستعراض مختبئاً خلف النافذة .. كل الطوابير مشت أمامه دون أن ينتبه إليه أحد .. أنا الوحيد الذي لمحته .. صرخت بأعلى صوتي :
- سلام المشير .. سلام سلاح .

أدى طابورنا التحية .. و أدت الطوابير التي بعده كلها تحية المشير .. ولبسوني شاويش .. تقديراً لنباهتي .

هز محمود رأسه :

–وكيف فقدت هذه النباهة فيما بعد ؟

–قال لي ضابط تركي : إنت عربي .... ابن عاهرة ... قلت له : أنا عسكري ابن السلطان ... صفعني .. لكمته لكمة ألقت به إلى الأرض ودست على رقبته .

تأمله محمود ... وتذكر يوم طعن سالم السروان ...ذهب إلى القيسارية ..فوجد السروان جالسا في دكانه ينصت للحكمدار التركي شوكت بيك قائد الجندرمة ...استرق السمع .

–الحرب على الأبواب .. هل تفهم ماذا تعني الحرب يا سالم ؟

– موت وخراب ديار .

– هذا للأغبياء فقط .. أما الأذكياء والشطار فإنها فرصة للإثراء السريع.. وهُبْ فوق.

طرقع شوكت بيك بأصابعه.. تابعه السروان بعينين ملهوفتين .

-سوف أشاركك بالنصف .. أنت تستأجر مخازن واسعة ومحصنة جيدا ..وأنا أزودك بالأرزاق من مخصصات العسكر .. وحن تشح البضاعة وتتقطع ستبيع أنت بأسعار مضاعفة وتسلمني حصتي من المال أولا بأول .

- اتفقنا

صفق شوكت بيك بيديه .

-عفارم ... سروان .. عفارم .

قام الحكمدار وحيا مودعا :

-السلام عليكم

رد عليه السروان بلغة تركية :

-بير بشق سلام (1) .

1. مائة حمل سلام .

دخل محمود الدكان .. وقف أمام السروان :

-ألا تكفي سرقة سعدة يا سروان ... تريد أن تسرق المدينة ... والبلاد كلها ... تريد أن تسرق السلطان وهو على سريره.

أغمد السكين في صدره حتي غابت تماما.

في السجن قال له شوكت بيك :

-إذا مات السروان .... إقرأ الفاتحة على روحك .

وصلت الدورية المناوبة ... سلم محمود موقعه ... وعاد مع أفراد دوريته إلى المخيم ... ظل صامتا طوال الطريق .. لم يتبادل مع سعد الدين كلمة واحدة .. حين وصلا إلى الخمية .. قال سعد الدين :

- أنت زعلان مني ؟؟

ابتسم محمود وهو يربت على كتفيه .

- يا سعد الدين إحنا همشريات وأولاد عرب.

منذ الصباح الباكر والرياح العاصفة تدوم في المعسكر محملة بالرمال والغبار كأنها نذير الشؤم .

قال سعد الدين الحلبي لشاويشة محمود الغزاوي :

- ألا تهجع ... أنت بحاجة للراحة .. إذهب وتمدد قبلا أن يبدأ الزحف.

لم يلق محمود بالا لنصيحة مرافقه .. ومضي يتفقد جنود سريته للمرة العاشرة.

-هل ثبتم الشارات البيضاء على أذرعتكم ليسهل تمييزكم عن جنود العدو.. تذكروا الجربنديات ومطرات الماء يجب لفها بالقماش حتي لا تصدر صوتا عند الزحف ... تأكدوا أن البنادق غير محشوة حتى لا تتسبب طلقة طائشة في تنبيه العدو .

قال سعد الدين :

-العدو نام واتغطي .. مش الخطة إنوا ناخدوا على حين غزة؟

سلقه محمود بنظرة أخرسته ثم تابع :

-سنستلم كلمة السر بعد قليل ... وبعدها نبدأ الزحف .

تسلمتم جرايتكم من القسماط والتمر ... اقتصدوا في الطعام ... لا نعرف متي وأين سنستلم الجراية الثانية .

واصل سعد الدين سخريته :

-في الفسطاط .

جلس محمود القرفصاء معطيا ظهره لهبوب الريح الباردة .

-لعل العاصفة تهدأ بعد حين حتى نتبين طريقنا .

قال سعد الدين وهو يلم على جسده أطراف معطفه إتقاء البرد :

-إحنا في آخر عشرة من شباط وهادي المستقرضات .. ما ظن هالريح الباردة تنتهي على خير ... والله غير تتلج .

هتف محمود مندهشا :

–تتلج في الصحرا ؟؟!!
–عشان يكمل الفال الحسن .
فرك سعد الدين كفيه :
–لو يمنعونا من إشعال النار .
استرسل كأنه يحدث نفسه :
–في تشرين الماضي أمرنا جمال باشا بإحتلال جبل لبنان .. لم يكن لدى العسكر ما يتقون به البرد تقدمنا بملابسنا الخفيفة من الشام إلى زحلة .. ومنها إلى يكفيا ... حين وصلنا إلى الجرود بدأت الثلوج تتدف وصار العسكر يتساقطون .. مات منا ثلاثمائة بين اللبيش ومجدل عنطورة ..ومن بقي منا على قيد الحياة تجمدت مفاصله وخر على جانبي الطريق لا يقوي على الحركة .. وصل خبرنا إلى أهالي عنطورة المتين ... فهبوا لنجدتنا .. دفنوا موتانا ... وحملوا من بقي منا حياً على ظهورهم ودخلوا بلدتهم وهم يهتفون بعالي الصوت :

السلطان حامينا

ويلك يا إللي تعادينا

مرت لحظات من الصمت قبل أن يتابع سعد الدين حديثه .
–لو كان عند المصريين نخوة مثل أهل عنطورة لجاءوا لحملنا على ظهورهم قبل أن يقتلنا البرد .. ألم يقل جمال باشا أن السلطان وزع الهدايا على علماء الأزهر وأن المصريين سيهبون للترحيب بنا ويثورون على الإنجليز ؟؟!!
هدأت العاصفة فجأة كما ثارت فجأة ... رأى العسكر شمس ذلك اليوم وهي تغيب في أرض مصر .. تيمموا وصلوا المغرب ... ثم صلوا العشاء ... استلقوا على ظهورهم يطلبون قسطا من الراحة .. بعضهم سرقته إغفاءة وبعضهم لم يذق للنوم طعما .
قال محمود لسعد الدين :

–هل أكلت لسانك من الجوع .. أم أنه الخوف الذي يمنعك من الثرثرة؟
–من إلو قلب خاف .

–وإنت ما إلك قلب ؟

– كان لي قلب ومات .

تمنى محمود لو كان الوقت مناسبا ليعرف من سعد الدين قصته كلها .. وقال في نفسه : لماذا لم أسأله قبل الآن ؟! أحس كم هو قريب من هذا الرجل الفظ العديم اللياقة والذوق .. وسأل نفسه :أيكون قلبي أنا أيضا قد مات دون أن أشعر ؟

جاء رسول من القيادة .. بلغ محمود بكلمة سر ومضى .. أيقظ محمود عساكره وألقي إليهم بالأوامر:

–علقوا الحراب في رووس البنادق .

حين انتهوا من تنفيذ أمره جمعهم حوله بإشارة من يده وهمس :

–كلمة السر اللواء الشريف والزحف عند منتصف الليل .. بعد أن يتم تركيب الجسور .

خيم صمت عميق ... لا يقطعه إلا أصوات تنفس الجند التي صارت عالية من القلق والرهبة .. مضت الساعة الحادية عشر ...فالحادية عشرة والنصف ... اقتربوا من الموعد المحدد للزحف ... والسكون لا يزال يخيم على الصحراء ... والأنوار الكشافة القادمة من شاطئ القناة الغربي تتراقص حولهم .

أخيرا انتصف الليل .. وبدأوا زحفهم بمحاذاة القناة أولا .. ثم انعطفوا إلى المكان المحدد للعبور .. حين صاروا على مرمي حجر من القناة ... سمعوا الكلاب تعوي .

قال محمود بغيظ :

–اللعنة .. لم يكن ينقصنا إلا عواء كلابهم .

سكت عواء الكلاب وخيم صمت كصمت المقابر ... واصلوا تقدمهم بهدوء .. أخيرا وصلوا رأس الجسر .. همس سعد الدين في أذن محمود :

– لقد رشموا [1] لنا الخ .. وصارت أقدامنا على الكرزم [2] .

وضعوا أقدامهم على أول الجسر وبدأوا العبور ..حين أوشكوا على الوصول إلى آخر الجسر .. فتح الجحيم أبوابه .. انهالت على رؤوسهم القذائف من كل

الأنواع .. رأى محمود قائده ثروت بيك يطير في الهواء وسيفه في يده .. ثم يسقط عند طرف الجسر .. هم بأن يهرع لحمله .. ولكنه أحس بسيف من اللهب يخترق صدره .. مد يده إلى موضع الإصابة .. كان الدم ساخنا لزجا يتدفق من الجرح المفتوح .. خانته ركبتاه وسقط ... حين فتح عينيه رأى سعد الدين يهم بحمله .. هتق وهو يحس بنهايته تقترب :

-أنج بنفسك ودعني .

-ما زال طرف الجسر موصولا باليابسة .. أستطيع حملك إلى المعسكر .. ويمكن الله يفسح في عمرك .. حمله ومضى يخوض في الجثث التي تراكمت علي ما تبقي من الجسر حتى وصل اليابسة .. مدده على الشاطئ ووضع رأسه على ركبته.

نظر إلى الشاطئ الآخر ... كان عدد من الضباط والجنود قد تمكنوا من الوصول إلى نهاية الجسر ... سمع تكبيرهم وتهليلهم دقائق ثم سكتوا فجأة .. فتكت بهم نيران العدو .

الحنود الذين قفزوا إلى الماء محاولين السباحة للبر ... أضاءت كشافات الإنجليز سطح القناة وبدأت رشاشاتهم تتصيد الرؤوس الطافية على وجه الماء.

تأمل سعد الدين وجه محمود على أنوار الكشافات .. خيل إليه أنه يبتسم:

-عارف وين إنت يا محمود ؟!

1. رشموا : موهوا
2. الكرزم : نابض الفخ .

جاءه صوت محمود طلقا مستبشراً:

-أنا طالع حدرة السيد هاشم يوم الموسم .. وإيدي إيد سعدة .

ثقل رأسه على ركبة سعد الدين .. هزه سعد الدين فأدرك أنه مات .. سحب ركبته وأسند رأس صاحبه على التراب وأغلق عينيه.

*****

حين عبرت أول ثلة من الجند القناة إلى العدوة الأخرى ..أرسل جمال باشا برقية إلي السلطان والحكومة والولايات يبشرهم بعبور القناة .

وفي غزة كما في سائر المدن انتصبت الأفراح والليالي الملاح..وأقيمت أقواس النصر وزينت بالرايات العثمانية ... وصور الغازي الفاتح جمال باشا محرر الكنانة ..كانوا يهزجون ويرقصون في الشوراع وهم يلوحون بالسيوف:

بالسيف عبرنا الترعة

والسيف.. أخذنا الترعة

حمل محمد هاشم خبر الانتصار العظيم إلى صديقه أبو التوفيق وفي ظنه أنه سينال البشارة ... لم يكن يعلم أنه سينكأ جرحا في قلب صديقه عمره سبع سنوات ..دمعت عينا أبو التوفيق وهو يتذكر ولده البكر توفيق الذي قضي في حرب اليمن ....لكنه سرعان ما تمالك نفسه .. حرك الجمر في الموقد وغمغم :

–موتوا يا موتي وترتروا رجليكو .. ما راحت إلا عليكو.

لم تستيقظ الحارة من الحلم الوردي .. إلا حين تسلل مشعل ذات مساء إلى بيته حافيا ممزق الثياب هزيلا ناحلا من العدو المتواصل .. صرخت زوجته قبل أن تتعرف عليه .. وضع يده على فمها طالبا منها السكوت .

–أنا مشعل .

شرح لها ما حدث:

كنت أحرس خيمة القيادة ..رأيت اليوزباشي عزت يركب هجينه ويفر على ..

وجهه .. بعده تدفقت العساكر مهزومة تجري وقد أعطت ظهرها للترعة أمسكت بأحد الهاربين قال لي : الجنود الذين عبروا الترعة قضي عليهم جميعا .. حملقت فيه وقد أخذتني المفاجأة .. حسب أنني لم أفهم فصاح في وجهي : الدوله انكسرت.

قلتلو: للخرا ... وشمعت الخيط .

سقط على فراشه كالقتيل ... حين استيقظ عم الخبر الحارة ...سرى في طرقاتها الضيقة سريان النعي في يوم عرس .. انتصب العزاء في كل بيت .

بنات الحلواني طرن بالنبأ إلى سباط المفتي حيث تعمل سعدة الخادمة لزوجته ...كانت سعدة قد انتهت من غسل كومة من الثياب.. وقامت لنشرها على الحبل ..وقد انهد حيلها ..قالت كبراهن :

- البقية في حياتك يا سعدة .

حسبت أن والداها هو الذي مات ..ضربت يدها على صدرها .

- أبويا ؟!

قالت الصغرى :

- ياريت.

حملقت فيهن مشدوهة ..

-لاتعذبوني ..يكفي ما أنا فيه ..قولوا وريحوني .

جاء صوت سيدتها من الداخل وقد رابها ما يحدث في ساحة الدار .

-مين إللي معك يا سعدة ؟

داهمها خاطر مروع ..أمسكت بأصغرهن وهزتها بشدة .

- تكلمي يا شريفة قبل ما يقتلني الوهم .. بس ما تقوليش إنو محمود .

أطرقن برؤوسهن إلى الأرض .. والدموع في أعينهن .. قالت الكبرى وهي تحتضنها

:

الله يصبر قلبك عليه.

تهاوت سعدة بين ذراعيها فاقدة الوعي..حين استيقظت في اليوم التالي سحبت أقدامها سحبا إلى بيت محمود وهي تستند إلى الجدران .

كانت زينب في باحة الدار..حين رأتها سارعت إلي احتضان طفلها الذي يحبو حولها..كأنما خشيت عليه من عيون سعدة ..ورغم الزلزال الذي أصابها أمس إلا أنها وجدت في نفسها القدره لكي تتذوق أول انتصار لها .. هي أبشع نساء الحارة واقلهن حظا المطلقة من ابن عمها والمنبوذه من الجميع يصبح لها زوج يعيش معها وعلى ساعديها طفل كفلقة القمر.. ترضعه من صدرها..وتتذوق به مباهج الأمومة ..وأفراحها أما سعدة أجمل نساء الحارة فقد كتب عليها أنتفقد حبيبها..ويطلقها زوجها..وتتلطم في بيوت الناس لقمتها بخدمتها.

نهنهت سعدة دموعها وتهالكت على الأرض بين يدي زينب كأنما تطلب منها الرحمة.

-يا ريتني متت قبل محمود ..وألف قامة تراب على راسي.

نظرت إليها زينب بتشف :

-جايا تعزي أمي..أي لو شافتك لقتلت حالها.. مش مكفي إللي عملتيه أشارت إلي الباب دون إن يطرف لها جفن :

-حرام عليكي زينب ..خافي الله ..بلاش تكوني إنت والزمان عليه حلفتك بمحمود ما تظلميني.. حلفتك بهالصغير إللي على حضنك .

شدت زينب ذيل ثوبها بقسوة ودخلت غرفتها وأغلقت عليها الباب .

حين عاد الغتيت أخبرته زينب بما فعلت ..قال لها وقد أحس بقلبه برق لعذاب سعدة

:

– الرحمة يا زينب ..كيف الله بدو يرحمنا..إذا انتزعت الرحمة من قلوبنا ؟!

ثم غلبته سلاطة لسانه:

–لا بد أنك خفت على الفتنة .. خشيت أن أعود إلى البيت فجأة فأراها.. فتقع في قلبي من أول نظرة .

أخرج من عبه مما جمعه من المقابر.. الخبز والقسماط والتمر بضع حبات من التين الناشف.. ودعاهم إلى الطعام :

–تفضلوا على ما قسم.

ألقت طفلها في حجرة .. شمه إلى صدره بحنان لم يعهده في نفسه من قبل .. لاك تينة ناشفة حتى أنهكهما.. ثم وضعها في فم الصغير.. الذي راح يمتصها بنهم.

ضربت المجاعة أطنابها في كل الحارات .. اختفي مخزونهم من الحبوب والتمر والجميز الناشف .. شحت المياه بعد أن نفقت الحيوانات التي تجر السواقي.. أو نهبها العسكر .

انتشرت الكوليرا تحصد الناس حصدا .. سعدة فقدت إخوتها الأربعة واحدا وراء الآخر .. كل زيارة لها إلى البيت كانت تكشف غياب واحد منهم وأخيرا .. عادت فلم تجد والديها .. بكت عليكم طويلا ثم تأست بما يحدث للناس حولها .. عادت إلى بيت المفتي تعمل بإخلاص ودأب .. أحيانا تراقي من شباك السباط عبود الجنازات .. أمس وجده أحصت مرور سبع جنازات في يوم واحد .. قالت في سرها .. الجنازات للكبار وعليه القوم .. أما الفقراء مثل أبي وأمي فتحملهم عربة دفن الموتى إلى حفرة كبيرة خارج المدينه وتهيل عليهم التراب؟

سيدتها أم مصطفي زوجة المفتي .. ما زالت صابرة تدير المنزل كما لو أن شيئا لم يتغير في المدينة .. ولو لا مبالغتها في غلي الطعام وماء الشرب ..وإسرافها في غسل الخضار بمحاليل الدواء .. لما لاحظ أحد أي تغيير في نظام عملها .

موردو اللحم والخضار كانوا يتفننون في طرق تهريب بضاعتهم إلى داخل بيوت الأغنياء القادرين على دفع ثمنها الباهظ .. دون أن تقع في أيدي الجوعي الذين يسدون الطرقات

في ذلك اليوم تفننت سيدتها في وضع حبات الصنوبر واللوز المقلي على وجه طبق الأرز .. ووضعت بعناية قطعة لحم في كل صحن من صحون البامية حتى لا يحرم أحد في العائلة من طعمها اللذيذ .. ولم تنس أن تخص زوجها بقطعتين .

-سيدي المفتي تعبان كتير يا سعدة .. سيدي ما يغمض له جفن لا ليل ولا نهار .

أكملت سعدة وضع الأرغفة على المائدة والتأم شمل العائلة

جلس سيدنا المفتي وعلى يمنته شقيقه الذي يصغره في السن وعن يساره ولده مصطفى الذي عاد من اسطنبول ضابطا في الجيش .. بعد اختصار برامج الدراسة في الكلية الحربية بسبب قيام الحرب .. أشار المفتى لهم:

– تفضلوا .. باسم الله .

-وأنت ؟

-نفسي لا تطلب الطعام

قال شقيقه :

-أما زالوا يواصلون الضغط عليك ؟

– نعم يريدوني أن أبصم على شنق الناس بسبب وبدون سبب .. كما يفعل أسعد الشقيري وطابور العلماء الذين يزحفون على ركبهم أمام جمال باشا .

-ما كانت الأمور لتصل إلى هذا الحد بينك وبين جمال باشا لولا خطبتك في الجامع الأموي بدمشق .

-كان يتوقع مني أن أسبح بحمده وأقدس لك ؟!

-وبدلا من ذلك إنهلت على رأسه بعصا غليظة.

– لقد أخلصت النصيحة له وللدولة .. أهذا ما تسميه عصا غليظة.

ظهرت على وجه مصطفي علامات الدهشة .. كأنه يسمع خبر الخطبة لأول مرة ..فأوضح له عمه :

–ذهبت الوفود للسلام على جمال باشا بعد تعيينه قائدا للجيش الهمايوني الرابع .. وبدلا من أن يحمل والداك إليه خرج مال كما فعل الآخرون .. انتهز فرصة وجوده في دمشق وخطب الجمعة في الجامع الأموي ..كانت الخطبة في فضل العرب على المسلمين.

تأفف المفتي من لجاجة شقيقه وشرح لولده أصل المسألة كلها:

–لقد كان جمال باشا من الوقاحة بحبث اعترف لي صراحة أن سياسة جمعية الإتحاد والترقي هي تتريك الشعوب الخاضعة للأتراك بمن فيهم العرب.. وجعلهم يتكلمون اللغة التركية .. فذكرته بنصيحة المصلح الكبير جمال الدين الأفغاني الذي أشار على السلطان عبد الحميد .. بتعريب الأتراك إذا كان يريد صلاح الدولة وبقائها .. وبينت له مدى ضعف وركاكة اللغة التركية وتخلفها عن اللغة العربية لسان الأغلبية العظمى من مواطني الدولة العلية .. وسفهت رأي جماعة الإتحاد والترقي في تحويل العرب إلي اللسان التركي .. وفي خطبة الجمعة بينت فضل العرب على من سواهم من المسلمين .. استشهدت بالآية الكريمة ((إنه ذكر لك ولقومك)) وبالحديث الشريف ((أحب العرب لثلاث .. لأني عربي ..ولأن القرآن عربي ..ولأن لاعربية لغة أهل الجنة)) ... وبالحديث الشريف ((الكفر في العجمة .. ولا يبغض العرب إلا منافق .. وإذا ذل العرب ذل الإسلام)).

امتقع وجه مصطفي .. أدرك أن والده قد أوغر صدر جمال باشا.. وأن السفاح لن ينساها له أبدا ... استعاد مصطفي جأشه .. وواصل الحديث:

–لقد شنقوا اليوم رجلين قبالة الجامع العمري الكبير وأربعة أمام مسجد أبي العزم .. ويقال أن مشنقة أخري علقت في الطرق الغربي للمدينة .

صر المفتي على أسنانه بغيظ:

–منذ هزمهم الإنجليز على حافة القناة وهم ينكلون بنا .. بدلا من محاسبة أنفسهم .. واستعادة ولاء الناس للدولة وتأييدهم لها .

طرق الباب بشدة .. ثم سمعوا صوت تحطمه .. أطلت سعدة من الشباك

كان العسكر يحوطون السباط (1) .. لحظات ورأتهم ينتشرون في البيت يفتشون ويقلبون الأثاث .. ويعيثون فسادا .. أخيرا جاء أحد الضباط وفي يده رزمة من الخرائط.

-كنا على ثقة أنك عميل للإنجليز .. وهذا هو الدليل .. هذه الخرائط ممهورة بختم المعتمد البريطاني في مصر ... بماذا تفسر وجودها في بيتك؟

رد الفتي :

- جمال باشا ليس بحاجة إلي أسباب لشنقي أو شنق أي عربي ... ومع ذلك شوف أرضي فضولك.

منذ خمسة أعوام عينتني الدولة عضوا في لجنة الإشراف على رسم الحدود بين مصر والشام .. من رفح إلي طابا .. وهذه الخرائط مؤرخة بتاريخ انتدابي لهذا العمل الجليل .. الذي قمت به خدمة لهذه الدولة العلية التي ترغب في شنقي الآن .. نفذ الأوامر التي لديك يا بني .. وأرح نفسك من السؤال وأرحني من الجواب .. فأنا رجل تقدمت بي السن كما تري .

خفض الضابط التي رأسه إلى الأرض :

-الأوامر التي لدي يا سيدي إن أفتش البيت ..وأحرز ما أجده وأرسله إلى الديوان العرفي بعاليه لينظر فيه على أن تبقي أنت وولدك قيد الإقامة الجبرية حتى يصدر الأمر بشأنك .

أشار الضابط إلى العسكر :

-احملوا كل هذه الخرائط وما عثرتم عليه من المجلات والكتب والنشرات إلى الديوان العرفي بعاليه .. وشددوا الحراسة على البيت .. فلا يدخل أحد ولا يخرج إلا بأذننا .

1.السباط :عقود حجرية تقام على جانبي الطريق وتبني عليها غرفة كبيره تشرف شبابيكها على الماره من الجهتين .

صرخت أم مصطفي وسقطت مغشيا عليها ..هرعت إليها نساء البيت يحاولن إيقاظها .. استعادت وعيها ولكنها ظالت تهذي حتى الصباح .

-عين وصابتنا.. عين ما صلت عالنبي.

خطر لسعدة أنها الوحيدة الدخيلة على هذه الدار.. وأن العين المقصودة هي عينها.. وتذكرت ما قالت لها زينب : (بره يا وش النحس .. يا مشومه .. يا خرابه البيوت) .. قالت لنفسها.. ليش تزعلي من زينب سعدة.. زينب معاها حق.. إنت خربت بيت محمود .. وخربت بيت أهلك إللي أخذتهم الكوريرا.. والسراسينا[1] على بيت المفتي والله يعلم على مين بعد هيك.

قبل أن يطلع الفجر تدلت سعدة من سطح الجيران وانطلقت إلى الحارة.. كانت بحاجة إلى البكاء افتقدت ذراعا تتعلق بها .. وصدرا حنونا ترتح رأسها عليه .

أطل وجه محمود من عتمة الطرق وغنى لها كما تعود أن يفعل:

وين سعدة تقيل وين سعدة تنام

تحت ظل العريشة وفوق ريش النعام

حين وصلت الحارة كانت الشوارع خالية ومعظم البيوت مهجورة هرب الناس من الوباء إلى الحقول والسواقي البعيدة.

وجدت نفسها أمام بيت الحلواني .. كان الباب مفتوحا.. فأوجست خيفة.. هل غادرت بنات الحلواني الحارة فيمن غادر ؟ واين ذهبن ؟!

تسللت إلى الداخل.. شمت رائحة كالعفن وسمعت صوتا كالنحيب حدقت في المكان .. تبينت شبح امرأة تتكوم على الفراش .. منفوخة البطن وشعثاء الشعر.. كانت صغري بنات الحلواني .. ما أن تعرفت عليها حتى صرخت:

1. السراسينا: كلمة تركية معناها الدور .

-شريفة .

-احتضنتها .. وأغرقتا في البكاء .

شريفه الحلواني كانت حاملا في شهرها التاسع .. حين ظهر عليها الحمل خافت أن يرجمها أهل الحارة كما فعلوا بخضرة .. لزمت البيت إتقاء للفضيحة .. شقيقتها وفرتا بعض المؤن لها ووعدن بالمزيد .. ثم انطلقتا مع العسكر..نفذت المؤن ولم تر شريفة لهن وجها .. راضية وحدها دأبت على زيارتها في مخبئها.. ومقاسمتها كسرة الخبز وكوز الماء ولولاها لهلكت جوعا.

هتفت شريفة كالغريق الذي يتعلق بالقشة:

- أنا في عرضك يا سعدة.

ضمتها سعدة إلى صدرها وقالت في نفسها

-من وين لك هم .. ببعت إلك الله .

(18)

قاد الشيخ عبد الله المنشاوي الذي تفر عن بعد عزل المفتي .. صديقه الشيخ وحيد البتير في رحلة الحج إلى المقام الأطهر في عكا.. انطلقت العربة مسرعة بهم إلى بستان البهجة .. اجتازوا قصبة المدينة .. اندفعت الخيل في طريق ضيقة تحف بها المزارع وتظلها أشجار السرو .. فجأة اضطربت العربة صهلت الخيل وهي ترفع أذرعتها وتطوح بشواشيها في الهواء .. كادت العربة تقلب بهم حدقوا أمامهم كان أحد الدراويش يلوح بمحجانته (1) في وجه الخيل غير عابئ بالخطر الذي يهدده ..

حين توقفت العربة تماما .. اقترب من باب العربة وصاح بهم :

- رايحين لعند مسيلمة الكذاب؟؟ صح؟؟
- لم يحيروا جوابا .. فتابع:
- قولوا لمسيلمة.. الشاذلية ولعوا الفرن.

لسع بمحجانته(1) ظهور الخيل فانطلقت من جديد وهو يشيعها بلعناته

– إلى النار وبئس القرار .. حي .

اقشعر بدن الشيخ وحيد .. والتقط الحوذي أنفاسه..و قال كأنه يعتذر:

– دراويش الشاذلية الملاعبين لا يكفون عن التحرش بنا وتأليب أهل عكا علينا ورغم إن سيدنا أحسن إليهم وأجزل لهم العطايا .. إلا أنهم بطروا النعمة وانقلبوا علينا ولولاهم لآمن أهل عكا جميعنا بالبهائية.

قال الشيخ عبد الله:

–ماذا عن الفرن؟

–ظل سيدنا يحاول جاهدا كسب الشاذلية إلى جانبه ولكن شيخهم اشترط مناظرة علنية بينهما..تمت المناظرة في ساحة عكا.. وشهدها خلق كثيرون ..

ساق الجمال المبارك حججه وبراهينه .. ولكن شيخ الشاذلية ظل على عناده ومكابرته.. أخيرا ضاق صدر الناس بالملاسنة التي طالت دون جدوي .. فجأة سحب شيخ الشاذلية سيدنا إلى ركن في الساحة .. كان هناك فرن في أوج اشتغاله.. حدق شيخ الشاذلية في النار التي تضطرم داخل الفرن.. وأشار إلى الخباز وصبيانه بالمغادرة .. قال سيدنا:

-في هذا الأتون الملتهب توجد حياة يهددها الموت .. ما قولك في هذا ؟؟

لم يجب الجمال مبارك..

صاح الشيخ الشاذلية:

-تدخل الفرن وتخرجها.. أم أدخل وأخرجها أنا؟

تراجع الجمال المبارك إلى الوراء ..هتف النظارة بالشيخ أن يثبت القول بالفعل.

سكت الحوذي .. فسألاه بصوت واحد وقد شاقتهم الحكايه:

-هل فعلها شيخ الشاذليه؟

تنهد الحوذي :

بغمضة عين .. دخل الفرن المتاجج وأخرج حطبة ملتهبة براحة يده .. دقها في الأرض فانفلقت وخرجت منها دودة بيضاء طولها شبر.. تتلوي على بلاط الساحة .. هلل أتباع الطريقة الشاذلية وكبروا .. والتفوا حول شيخهم معتبرهم واحد من كراماته.

قال الشيخ عبد الله بلهفة :

-دخل النار وخرج منها دون أن يحترق؟

-لم تحرق النار شعرة من شعر ذقنه.

-وماذا فعل سيدنا؟

-نزل إلى بستان البهجة معتكر المزاج وهو يردد (ساحر مشعوذ .. ساحر مشعوذ)

ظلا ساهمين .. حتى وصلت العربة.. أبصرا ازدحام العربات في المكان همس الشيخ عبد الله في أذن الشيخ وحيد:

-يبدو إن الحج الجمعة[1]

تأفف الشيخ من سماجة دليله وقال في سرة :

-إذا كان الغراب دليل قوم .. يدل بهم إلى الربع الخراب .

تابع المنشاوي :

-لك أن تتيه على كل أقرانك..فسوف تتلقى بنفسك كلمات عبد البهاء التامات .. وستحل عليك البركات .. وتغمرك الخيرات ..

ثم حذر صديقه :

-لا تعارض أية أوامر تصدر إليك .. مهما كانت .. وعند التنفيذ .. نفذ ما تقدر عليه .. واصطنع الأعذار لما يعجزك ولا تنس ماأنزل إليك من قول الجمال المبارك (ليس الحق إلا ما ينطق به لساني.. فاسألوا الآيات ومتونها مني .. وليس لأحد أن يتكلم أي كلمة أو ينطق بلفظة بغير رضاي)

لا تدع أحدا يتشكك في ولائك .. بعد كل ما أجزلوه لك من العطاء .. وأخذوه عليك من المواثيق .

فكر الشيخ وحيد (المواثيق .. هذا مربط الفرس.. سندات الأمانة بكل مبلغ تسلمه)..قال المنشاوي : هذه مجرد ورقه تثبت بها حسن نيتك فلا تحملها على محمل الكمبيالة.

في البهو وجدا الكثيرين في انتظار التشريف بالمثول بين يدي الجمال المبارك .. جلسا بينهم .. رحب بهم ميرزا أحمد سهراب شارحا لهم ما يدوور حولهم:

1.حين يتصادف الوقوف بعرفه يوم الجمعه يتضاعف عدد الحجاج طلبا للثواب الجزيل.

-في مجلسة تبطل فوارق الطبقات ويمنحني التعصب الديني وتتكسر القيود ولا يبقي للمسلم والمسيحي واليهودي سوى رباط المحبة الذي يجمع القلوب.

تابع وهو يشير إلى ركن البهو:

-السيدة الجليلة التي تصحب وفد الهنود هي الحاجة الآنسة مارتا روث وهي أمريكية تبشر بالدين الجديد في ايران والهند وأوروبا .. وقد أدخلت في البهائية خلقا كثيرا .. بهاء الله والعصر الجديد الكتاب الذي ترجم إلى خمسين لغه شرقية وغربية وبصحبته المستشرق اليهودي جوند تسيهر.

فتح باب الخلوة وخرج منه وفد كان بعضهم بملابس أهل البلاد وبعضهم بالملابس الأوروبية.

تأملهم الشيخ وحيد حين لاحظ الميرزا أحمد انشغاله بهم.. بين له جلية أمرهم :

-هذا هو صديقنا السيد داوود بن جوريون على رأس وفد من يهود فلسطين الذين دأبوا على تقديم تبرعاتهم السخية لرب المكان اعترافا بفضل وجميل والده بهاء الله الذي تنبأ بعودة اليهود إلى فلسطين في زمن ولده الجمال المبارك .

بلع الشيخ وحيد ريقه.. وهكذا إذن الأموال التي استلمتها وبددتها كاملة .. هي أموال هؤلاء اليهود .

اللعنة لقد سمع الشيخ وحيد كثيرا عن اليهود .. والصندوق القومي التابع لهم الذي استولى على بعض أراضي الجفتلك وأقام عليها مستوطنات زراعية .. والذي اشتري أراضي من عائلات لبنانية وسورية في شمال فلسطين .

قال الشيخ وحيد في سره :

-يا ولي من أعمي .. كيف لم أر ذلك من قبل ..(لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور).. تأمل القوم حوله .. وتذكر قوله تعالي:

-((ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوبهم لا يفقهون بها لهم أعين لا يبصرون بها لهم آذان لا يسمعون بها.. أولئك كالأنعام بل هم أضل .. أولئك هم لغافلون)).

ظلت الهواجس تلعب برأس مولانا الشيخ وحيد.. حتى جاء دوره وأدخل على الحضرة النوراء .. حمامة القدس .. ملاك الملكوت الأبهى .

نظر الشيخ وحيد دون أن يرى .. وأنصت دون أن يسمع .. وحين خرج من الحضرة .. عانقه الشيخ عبد الله المنشاوي مهنئا وسأله عن الأثر الذي تركه لقاء الذات المباركة في نفسه.. قال الشيخ وحيد كمن يحدث نفسه:

- لم أر .. ولم أسمع .. ولم أحس .. لست أنا .. أعني لم أكن موجودا.

امتقع وجه الشيخ عبد الله .. وهمس بصبر نافذ:

- رأيتك حين وقفت وأنت والدليل المرافق أمام الستائر المسدلة.. رأيتك تخلع نعليك .. رفعت الستارة ودخلت الإيوان الكبير الواسع .. في صدر الإيوان.. الجالس على الوسادة.. على رأسه قلنسوة كبيرة عالية .. ووجهه يطفح بالنور.. ذلك هو الجمال المبارك

لم يحر الشيخ وحيد جوابا.. قاده صديقه إلى خارج المقام الأطهر..

وحين انطلقت بهما المركبة إلى الخارج فتح الشيخ عبد الله كتابا مغلقا سلموه له وفيه تأكيد على التعليمات التي صدرت للشيخ وحيد: سنعمل على تولينه الإفتاء في غزة خلفا للمفتي المعزول .. وفي خطبة الجمعة الأولي بعد الدخول الانجليز المدينة عليه أن يعلن اعتقاله البهائية وأن يدعو الأهالي إلى الدخول في الدين الجديد .. وأن يحدثهم عن الفيوضات الإلهية للذات المباركة.. وأن يختم الخطبة بهذا الدعاء:

_(اللهم أيد الإمبراطور الأعظم جورج الخامس عاهل انجلترا بتوفيقاتك الرحمانية.. وأدم ظلها الظليل على هذا الإقليم الجليل بعونك وصونك وحمايتك.. إنك أنت المقتدر المتعالي العزيز الكريم)

وفي ذيل التكليف .. لاحظ المنشاوي هذه الجملة

-(أوكل الجمال المبارك إلى الشيخ عبد الله المنشاوي مراقبة الشيخ وحيد .. وحثه على أن يصدع بما أمر به) .

طال الصمت بين الرجلين والعربة تمضي في نزولها لشاطيء عكا.. أخيرا هتف الشيخ عبد الله :

-قل شيئا يا شيخ وحيد.

أجابه الشيخ وحيد وهو يصر على أسنانه :

-(الله ولي الذين آمنوا .. يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات .. أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

(19)

شنق الأتراك أول الفارين من السفر برلك..وضع مشعل ثوبه في أسنانه ولم يتوقف إلا في العريش .. سلم نفسه .. وعندما سأله اليوزباشي عزت عن تأخره شهرين كاملين ادعى أنه تاه في الصحراء خلال الإنسحاب شفع ادعاءه بصرة من المال لينت له قلب اليوزباشي.. وأعادته إلى خيمة مشعل حين وجد ابن خاله "خليل" شاويشا يشار له بالبنان .. فقد أصبح شاويشا لفرقه الهجانة .. وهي فرقة من متطوعي البدو الذين استأجرتهم الدوله بجمالهم .. وقام خليل بتدريبهم

كانت فرقه خليل تستعد لمغادرة العريش بعد أن صدرت لها أوامر باحتلال موقع الدويدار.

ظل خليل يسأله عن الأهل وهو يطمئنه أن الجميع بخير أخيرا أدرك مشعل ما الذي يريد خليل أن يسأل عنه بالتحديد... ولكنه استمر في مراوغته:

-أخبرتك أن الحاج أحمد الجندرمة وابن عمك اسماعيل في السوقيات وعمتك آمنة واليتيمين بخير.. وابراهيم في العسكر.. وزينب تزوجت الغتيت ورزقت منه بولد وسعدة تعمل خادمة في بيت المفتي بعد طلاقها من السروان .. والدي وإخوتي عمتيك أم التوفيق على حالهم .. هل بقي من الأهل أحد؟

نظر خليل في عيني مشعل مباشرة وسأله:

-وراضية؟

أحس مشعل بانتصاره .. فقد أوقع خليل في الكمين الذي أعده له .

راضية .. راضية .. إيش عاجبك في راضية ؟ شعنونة .. ومشنية .. ما يتزفر اوقية ملوخية

ضحك خليل لأول مرة منذ جاءه نعي محمود .. واسترسل مشعل:

-يا سيدي راضية بخير وتنتظر عودتك.

-وغزة يا مشعل؟

سرح بناظرته وقد علت وجهه سحابة من الحزن.

-يا ويلي على غزة ..الأتراك من جهة والكوليرا من جهة.. وإللي ما بتاخدوا عرباية البلدية .. بتاخدوا السوقيات.

ودع خليل إبن عمته مشعل وانطلق مع هجانته من البدو.. محطتهم الأولى كانت ببر بيوضة.. استراحوا فيها ليلة ثم واصلوا السير .. المهيضة كانت محطتهم الثانية ومنها.. إلى الدويدرا .

حين وصلوا الدويدار كمن خليل بهجانته في أحد الحفر ينتظر غياب الشمس.. كانت الحفرة موقعا سابقا أخلاه الإنجليز .. أبصر البدو أكياس الرمل تحيط بالحفرة فاندفعوا نحوها قبل أن تستطيع خليل إيقافهم وهم يتصايحون:

-دقيق .. دقيق يا عيال.

حملوا الأكياس وأرادوا الفرار بها .. لحق بهم خليل وهو يصرخ:

-هذه أكياس رمل وليست أكياس طحين أيها الحمقى.. افتحوها لتتأكدوا من كلامي.

طعنوا بحراب بنادقهم أحد الأكياس وتحسسوا الرمل الذي انهال منه .. وعادوا إلى مواقعهم يتأسفون على ما أصابهم:

- إخص إخص .. إخص إخص

كانت الضجة التي أثاروها قد نبهت العدو إليهم .. فاصلاهم نارا حامية وضاعت عليهم فرصة المباغتة.. مات من مات وهرب من هرب.. تسلل خليل إلى أحد الكثبان الخلفية .. حتى هدأ إطلاق النار.

بعد مسيره ساعات عشر على هجين ضال فكان صيدا ثمينا ركبه إلى مواقع الأتراك فقي المقيبرة.. استقبله هناك ضابط ألماني يدعي فرنجس.. يقود فرقة هجانة نظامية.. وكان القائد الألماني يستعد للهجوم على قطية.. أعجبه خليل فضمه إليه وكلفه بقياده فصيل من قواته.

كانت أخبار انتصارات الأتراك في سليمان باك بالعراق وحصارهم الناجح لكوت العمارة .. قد شحذت همه الأتراك .. ورفعت معنويات عسكرهم.. كذلك فقد وردت أخبار مؤكده أن شريف مكة سوف يرسل قوة من متطوعية الحجاز بقيادة ولده فيصل إلى سيناء للمساهمة في تحرير مصر من الإنجليز الكفار .

في القطية أراد خليل أن يثأر للهزيمة التي سببها له البدو .. خاض هو وفصيلته بحراً من الرصاص حتى أجلوا العدو من مواقعه بين القنطرة والقطية .. قطعوا طريق الإمدادات بالقطار عن آخر محطة له .. وحاصروا القطية من كل الجهات.

استسلمت لهم الحامية الإنجليزية في القطية بعد نفاذ ذخيرتها .. ساق خليل أسراه من الإنجليز كما تساق النعاج . وكان أكبر انتصار يحققه الأتراك في سيناء بعد هزيمتهم على حافة القناة.

في القطية وضع الضباط الألماني شارة جديدة على كتف خليل .. وأعطاه وساما علقه على صدره.. صار خليل(بيت شاويش) .

اليوزباشي عزت ازداد غطرسة بعد أخبار انتصارات الترك في العراق .. وازداد استفزازه للضباط العرب .. خليل المسالم بطبعه لم يرد على استفزازات ذلك الطوراني الأحمق.

واصل الأتراك استعدادهم لغزو موقع (رمانة) .. سلحت فصيلة خليل بمدافع الموزار .. التي أصلت الأستراليين وابلا من النيران .. وأجبرتهم

على التزحزح عن مواقعهم .. ولكن النجدات التي حملتها القطارات لهم ساعدتهم على الصمود .. ودحر الأتراك .

انسحب الأتراك انسحابا منظما حتي المقيبرة ومن هناك واصلوا انسحابهم حتي العريش حيث أكبر قاعدة للجيش التركي في سيناء .

أحمد شراب ضابط من خانيونس ألحق بالمعسكر .. حديثا استضاف خليل في خيمته وعندما تأكد شراب أنهما على انفراد همس في أذن خليل:

-شريف مكة أعلن الثورة على الأتراك.

انتفض خليل غاضبا:

-الآن .. ونحن في حرب مع أعداء الملة.

-أعداء الملة صاروا حلفاء شريف مكة.. وقد وعدوه بالمساعدة على قيم دولة عربية مستقلة في كافة الأقطار العربية التي يحكمها الأتراك .

-والأتراك ماذا كان رده فعلهم؟

-أعلنوا عزل الشريف حسين وتعينن الشريف علي حيدر مكانه .. وازدادوا شراسة في تعقب الأحرار والوطنين العرب وتعليقهم على المشانق.

سكت شراب .. والتقط خليل عودا وصار يخط في الأرض ثم غمغم :

-صرنا بين نارين .. سيوصم بالخيانة كل عربي في صفوف الأتراك ولو كان مخلصا صادق النية .. أي رعب هذا؟!

-لا ترتعب كثيرا .. فحالنا مع الأتراك ينطبق عليه المثل (ستي قبل الوحام عليله)
أكمل خليل وهو شارد الذهن :
-وإجا الوحام زادها تعليل.
لم يستطيع خليل أن ينام تلك الليلة.. وفي اليوم الثاني علم الأتراك من عيونهم أن الإنجليز احتلوا (بيوضة).

صدرت الأوامر إلى اليوزباشي عزت باختيار مائتي هجان لإجلاء الإنجليز من الموقع .. وكما توقع خليل فإن عزت لم يضيع الفرصة .. اختاره لاستكشاف الموقع .
-برنجي بلك.. برنجي طقم .. برنجي بيت شاويش .. لم يبق إلا أن يناديه بالاسم.
قام خليل بالمهمة الموكلة به خير قيام ..ولكن اليوزباشي لم يوجه إليه كلمة شكر .. بل أنه لم يبتسم في وجهه.

زادت رطانته فجاجة وقسوة .. حين تنبه الإنجليز إلى خطة الأتراك وأمطروهم بنيرانهم .. لم يعد أمام اليوزباشي عزت إلا الإنسحاب .. عندما نادى خليل بالاسم وكلفه شخصيا بحماية إنسحابهم .

-خليل أفندي .. سن دُردار .

أدي خليل التحية:

-تمام أفندم .

حين استدار للخروج سمع اليوز باشي عزت يهمس لمعاونه:

-بوعرب دايرمي (1) .

هكذا إذن .. يكلف بالإكتشاف.. ثم يكلف بحماية الإنسحاب.. ليس لأي سبب سوى لأنه عربي يستحق القتل.

ظلت الكلمة تئز في أذني خليل أكثر من أزيز الرصاص : بوعرب دايرمي(1) : بوعرب دايرمي.. بوعرب دايرمي .

استطاع خليل أن يحمي انسحاب الأتراك من الموقع بعد أن فقد ثلاثة من رجاله.. ثلاثة من العرب .. الذين أصبح قتلهم حلالا عند اليوزباشي عزت .

1. بوعرب دايرمي : العربي قتله حلال

انسحب خليل بمن بقي من رجاله إلى " المغارة " ومنها إلى "العوجا حفير" وهناك حظي العسكر بزياره القائد الألماني" فرنجس" بطل معركة إقطية .. خطب فيهم فرنجس بالألمانية ترجم كلامه إلى التركية ثم إلى العربية.. لأول مرة يتحدث أحد الضباط صراحة حول ثورة الشريف.

اتهم فرنجس الشريف بالخيانة وتوعده(سنحاربه .. ونطعمه بعر جمالنا) .

همس أحمد شراب في أذن خليل:

-إذا كان هذا ما سيفعلونه بشريف مكة ..فإن كل ما يفعلونه بنا قليل .

في الليل جمع الضباط العرب في حلقة أمام خيمة أحمد شراب وبدأوا يتهامسون حول ثورة الشريف والإذلال الذي يلحقه الأتراك بهم .

بدأ تشكيل فرقة هجانة من أربعمائة هجان بقياه فرنجس لتعزيز القوات التركية في المدينة المنورة.. في حربها المعلنة للقضاء على ثورة الشريف .. وقد فوجئ خليل باختياره ضمن هذه الفرقة .. وفوجئ أكثر حينما علم أنهم عينو جنديا مشاغبا إسمه سعد الدين ليكون" خزمتشي" له بعد أن رفض جميع الضباط استخدامه لما أشيع عنه من الفظاظة والوحشية ولكن ذلك كله لم يكدر خليل بمقدار بما قدره ما كدره إختيار اليوزباشي عزت ليكون نائب القائد في هذه الحملة .

* * *

تأمل سعد الدين وجه البيت شاويش خليل بشعره الأشقر وعينه الزرقاوين.. وقال في نفسه :(تركي آخر ..اللهم طولك يا روح).

أدى التحية وقدم نفسه بالتركية :

- دومان نفر سعد الدين محمد الطه .. خزمتشي سعادتلو أفندم .

-وقف خليل .. ودار حوله نصف دورة .. رآه طويلا في مثل عوده عريض المنكبين مثل الدوش ولكنه كباقي العسكر مهزول شاحب الوجه غائر العينين .

-لا تبدو شريرا كما أشيع عنك .. وجهك وجه فلاح عرف شظف العيش وليس وجه قاطع طريق .

بوغت سعد الدين :

-تتكلم العربية يا سيدي؟

نهره خليل :

-ما الذي دهاك: هل حسبتني تركيا؟ .. أنا خليل محمد وهبة من غزة

-عفوك يا سيدي هل أنت قريب محمود وهبة الذي ..

- أنا ابن عمه .. هل تعرفت عليه.. لعله كان همشرياتك .

-أنا استعفي يا سيدي .. لا أريد أن أعمل معك .. واحد يكفي.. واحد يكفي.. لا اريد أن أدفن العائلة كلها.

حملق فيه خليل مشدوها .. تابع سعد الدين.:

-لقد اصيب محمود أمامي.. وحين استشهد .. كان رأسه على ركبتي .

لم ينبس خليل بكلمة .. تابع سعد الدين كأنه يحدث نفسه:

-كان مقداما شجاعا .. لا يعبأ بالموت حتى حسبته يكره الحياة

حملق خليل في الرجل كأنه يستوعب ما سمعه .. طالت وقفتهما وكل منهما يحدق في الآخر:

قال خليل:

-ولهذا السبب لا تريد أن تعمل معي.. اطمئن أيها الأحمق .. في المرة القادمة سيكون على الوهابية إن يردو لك الجميل.. ستموت ورأسك على ركبة واحد منهم

أشار خليل إلى ركبته .. أغرقا كلامهما في الضحك .

دعاه خليل إلى الجلوس .. جلسا متقاربين مثل صديقين قديمين.

أخرج سعد الدين كيس الهيشة (1) ومده الي خليل.. رده خليل بإشارة من يده .
استل سعد الدين ورقة من دفتر سجائره حشاها بالتبغ ولفها بعناية وألصقها بلعابه ..
قضم طرفها وبصقه .. أشعل سيجارته ومضي يدخنها بنهم .. ثم سأل خليل:
-من هي سعدة ؟
-هل ذكرها لك ؟
-سألته قبل أن يغمض عينيه إن كان يعرف أين هو.. قال لي أنه يصعد حدرة السيد هاشم يوم الموسم ويده في يد سعدة .
هز خليل رأسه بأسي وقال في نفسه : أما أنا فسوف أصعد الحضرة ويدي فارغة .. لو كانت راضية أكبر قليلا لتزوجتها قبل خروجي في السفر برلك .. عشت محروما.. وسأموت محروما..

1.الهيشه : تبغ ردئ يستخدمه العسكر.

عندما تسللت سعدة هاربة من سطح دار المفتي كانت تتمني الموت .. وقر في ذهنها أن اقرب الطرق اليها إن تعود الي بيت اهلها حيث يعشش الوباء الذي فتك بهم واحدا وراء الاخر..

اما وقد صارت حياه شريفه ووليدها القادم منطوية بها وحسن تدبيرهم .. فانها وجدت ما تستحق إن تعيش له شبعتا من البكاء .. مسحت كل واحده منهما دموع الاخرى .. خرجتا الي فناء الدار كان القمر بدرا .. تذكرتا طفولتهما المشتركه وكيف كانتا تتركضا في الزقه الحاره في ليالي القمر.

امسكت سعده في ذيل شريفه ودفعتها امامها :

- جمال ابي جمال اخي .. سرقو لك اجمالك .

- هرولت شريف امامها وهي تردد :

-سيفي تحت راسي ما بسمع كلامك تعانقتا من جديد .. واغرقتا في الضحك .

-في الصباح كان الجوع قد بلغا فيهما اشده : قالت سعده في نفسها لم يعد لي عيش في دار المفتي .. ولو عدت لهم فلن يسمح لي العسكر في دخول البيت.. وفي الحاره لا احد يملك قوت يومه .. البيوت التي اغرقتها البلدية بالشمع الاحمر .. اكثر من البيوت المؤله . تذكرت السروان واطياب الطعام التي يخزنها في قبو بيته .. البرغل والسمن والتمر وخيرات الله قالت لشريفه.. -

هاتي المخده اربيطها علي بطني شديها مليح .

انزلت عليها الثوب وهتفت:

-الطريقه الوحيدة اللي بتحنن قلب السروان.

انطلقت الي القيسريه . في الدكان وجدت الشيخ المنشاوي ينادم زوجها السابق .. طمعا في نيل رضاه .. وما يتبع ذلك الرضى من المؤن االتي شحت في السوق .. او انقطعت منه .. والسروان يراوغه

سمعن المنشاوي يترقرق للسروال :

منذ ظهرت للاتراك خيانه المفتي .. افرجوا عني واعادوني الى وظيفتي..ولكنهم لم يعيدوا الي المال الذي صادروة مني ولي يصرفوا لي رواتبي

-بلاش مصاري يصرفولك نيشان .. زي النيشان الي صرفوه لرئيس البلديه

_رئيس البلديه.. ساعدهم في تجنيد العسكر الله وكيلك مافي بغزة ببيتي الا وغربلوة الناس بننستر بالحيطان.. واخوك حالته بتصعب على الكافر.

رد السروان ساخرا ..

–ما جامك تصعب على الكافر ..فمن الماكد انك حتصعب على صاحبك عبد البهاء .. اكتب له لكي يرفدك بنعمته السخيه.

–كيف يا صاحبي ؟ والطرق مقطوعه والعسكر ماضون في السلب والنهب.. وما كنت لاصدقك لو كان لدي ما اتبلغ به.

وقفت سعدة امم طليقها وفكت الغطراس.. تهتلت غتائرها السوداء وسطع محياهها .. كما يسطع البدر.. فخطت ركب السروان فهو يتامل وجهه الذي يحل عنا لمشنقه.. واحس بالنم يتعصر قلبه على طلاقها.

اشار الى بطنها

_ يا سال هادا ابنك الي تمنيته طول عمرك.ز حاولك اصقته بعد الي جرى على يدك.. ولكن الله لطف.. والشهر هادا اتممت شهور الحمل واجيت اعلمك وتحمل وحدة خطيته موتنا جوع

قالتها وانطلقت الي الشارع تتكيأ على الجدران

حين استيقذ من هول المفاجاة قال لرجاله

–الحهوها بدي اياه الولد .ز الولد ابني .تتشبث بجبه المنشاوي

_ الي بتجيب ولد بترجع لعصممه جوزها.. ولكانت مطلقه .زصح يا شيخ عبدالله

_ صح .. اختفت سعدة ولم يدركوا لها اثرقال السروان يعزي نفسه

_ كيف عرفت انه ولد اكيد بنت انا خلفتي كلها بنات صح يا شخ عبدالله

يهب من ياشاء الذكور ويهب من يشاء اناثان ويجع من يشاء عقيما

لعبت الظنون براس السروان واخذ يجهس ..

– بنت ولا ولد خلقه الله شريفه.

– ليش بدها تسقطه

–قال المنشاوي لا اظنها تقتل النفس التي حرم الله الا إن تموت جوعا او ياخذها الوباءضرب السروان كفا بكف

– ابنتي أنا يموت جوعا املك نص غزة .. وابني ثمرة قلبي يتشرد في الشوارع ظل ينوح كالذئب اكل اولادة.. الا انا قال المنشاوي ..

–إلى لها أهل ؟

–أهلها أخذتهم الكوليار

–أرسل الى بيت اهلها من يبخره ويكفيها هي وولدها فانها اذا جائها الماض لن ياوي الي مكان غيرة .. وحذاري إن تحس بان احد يراقب هاذا البيت او يتجسس عليه

–وللصوص؟ولا يجرا اللصوص على دخول بيت موبوا اغلقته البلديه بالشمع الأحمر.

استحسن السروان الفكرة.. قاد عمال البلديه الذين بخروا البيت .. وتحت جناح الظلام هرب الي البيت مخزونا جيدا من الطعام .

راقبت سعدة كل ذلك من سطح دار الحلواني.. وحين اطمئنت الى انصرافهم عن المكان ..هربت اليه .. واحصت غنائمها.. البرغل.. والشعيريه..والسمن..والزبيب وكل ما يلزم لامراة وطفلها مدة شهرين على الاقل.

في صباح اليوم التالي كانت راضيه قد افلتت من مراقبه امها .. هرعت الى دار الحلواني تحمل كسرة من الخبز استطاعت ادخارها مدت الكسرة الى شريفه ولكن شريفه لم تهجم على يدها كما في السابق وتخطف الكسرة.

تاملت شريفه هزل راضيه وشحوبها كانها تراها لاول مرة .

تاكلي فتافيت السفرة علشان توفري لي نصيبك من الخبز يا راضيه؟؟ دست يداها في جيبها واخرجت حفنه من الزبيب واللوز ووضعتها في يد راضيه .

_ كل يا حبيبتي .

تاملت راضيه جبات الزبيب واللوز وصخت بفزع:

–زبيب ولوز من وين ؟؟

اجابت شريفه:

–ما بنساش من فضله حد حتى الزانيه وابن الحرام .

اجهشت شريفه بالبكاء الهمت راضيه ما في يدها دفعه واضحه دون إن تحفل ببكاء شريفه استقر الطعام اللذيذ في معدتها الفارغه شعرت بنشوة وتدفق الدم في عروقها مدت يداها تطلب المزيد ناولتها شريفه حفنه اخرة لاكتها هذه المرة متانيه واستحلبتها في فمها كما يفعل الاطفال.

دخلت سعدة الدار وجيوبها منتفخه عانقتها راضيه وتحسست جيوبها :

-كل هاذا من دار المفتي ما اطيب هالناس

ثم التفتت الي شريفه:

-صحيح الدنيا لسى بخير

همت شريفه بالحديث وكن صرخه انطلقت من حلقها شقت هدوء المكان تبعتها صرخه اخرى اطول منها .. ساندتها الى الفراش وما هي الا دقائق حتى كانت صرخات الاطفال تختلطت بصرخات امه صاحت راضيه بفرح :

-ولد..ولد.

حملته راضيه وقربته من امه انظري يا شريفه.

اشاحت شريفه بوجهها عن الطفل:

-يا ريتني اندبيت في بير .. والا اخذتني الكوريرة (1) ولا كان شفت هاليوم قالها وسقطت في الغيبوبه .

1. الكوريرة: الكوريرا.

الا تراك ولقد قلت ذلك لجمال باشا دون مداوره كل عربي يقبل بما هو اقل من

(21)

في شقته بالقاهرة كان عزيز المصري جالسا مع بعض الاحرار العرب وقادة جمعيه العهد السريه قال عزيز المصري منذ عام 1908 ونحن نسعى لاستقلال العرب عن الا تراك ولقد قلت ذلك لجمال باشا دون مداوره كل عربي يقبل بما هو اقل من الاستقلا خائن وحين سالني لماذا لا نكون اصدقاء اجبته بجرائه :

-مذا عمل الاتراك لنا نحن العرب غير محاوله ابادتنا واستعبدلدنا واهانتنا

علق رشيد رضا:

-لا عجب انهم حكموا عليك بالاعدام لولا تخال بريطانيا

قاطعه رفيق العضم :

بل قل إن سبب نجاته العصيان الذي هدد به ثلثمائه من الضباط العرب في الجيش التركي

تدخل عبد الرحمن الشهبندر :

لا تنسوا تهديد الجمعيه الاصلاحيه في البصرة بالانفصال عن السلطنه اذا تم اعدام عزيز المصري

تابع عزيز المصري بحماس

إن الذي مضى من النضال في سبيل استقلا ل العرب ليس شيئا مذكورا بالنسبه لما هو اتى الانجليز يتوقعون مني الانضمام لثورة الشريف في مكه كرد للجميل الذي قدموه بانقاذي من زمرة الاتحاديين وما فتئوا يبلغونني ذلك تلميحا وتصريحا قلت لهم لان اجرد السيف على الاتراك قبل انا يتعهد الانجليز بتحقيق المطالب العربيه كلها .

سمعوا طرقا على الباب قال عزيز المصري:

لا بد انه نوري السعيد وقد دوعتكم لتكونوا شهودا علي الحديث بيني وبينة.

دخل نوري السعيد عانق الحاضرين واي احيه عسكرية عزيز المصري رد عليه ودعاه لجلوس .

جلس نوري السعيد متحفزا :

- انا موفد الشريف اليك .. ومعي اقرار بتعينك قائدا عاما للجيش العربي
- بل موفد الانجليز.

قال نوري مازحا:

- سيدي القائد الانجليز انقذو حياتك
- ويردون الان حياه الامه كلها ثمن لحياتي لقد طلبنا منهم الاعتراف باستقلال ووحده الولايات العربية الخاضعه للاتراك فراوغونا وما زالو ا يحيكون الدسائس مع الفرنسيين.

هم يريدون منا إن تستبدل احتلال التركي المسلم احتلال الاوروبي الكفار

قال الشهبندر:

- الانجليز معنيون باسلابهم وغير معنين بحقوقنا.
- احتد نوري السعيد:
- – لحقوق تؤخذها الان وهم بحاجه الينا فمتي ناخذها؟؟!!
- قال رفيق العظم:

اذا صحت الاشعات عن اتفاقيات سايكس بيكو فسوف تفرض علينا التجزئة وكيانات هزيله يخططون لاقامتها تظل بحاجه ابديه الي دعمهم ومساندتهم.

صر عزيز المصري علي اسنانه:

- هذه الكيانات المصطنعة سوف تنشاء لها مصالح وامتيازات وسوف تصبح حجر عثرة في طريق الوحده اذا فرضوا علينا التجزئة يا نوري فان امل الامه العربية في الوحده سيضيع .

- عارضه نوري السعيد:

- الشري لدية تاكيدات من بريطانيا

- قاطعه رشيد رضا:

- – اذا كانت لدية مثل التاكيدات فلماذا لا يخرجها الي العلن لماذا يحتفظ بها سرا ؟

تدخل عبد الرحمن الشهبندر:

- الشريف لا يهمه امر الوحده او الاستقتلال بقدر ما تهمه مصالحه مصالح وعائلته الم تقرا او ما يروجة في صحيفه القلبه بان العرب ثاروا الان الاتحاديين وتطاولوا علي مقام السلطان عبد الحميد وسلبوا حقوقة الشرعيه.. يعني لو ظل السلطان عبد الحميد لما ثار العرب,

- تابع الشهبندر:

- الشريف رجل بسيط وعلي الفطرة وليس مؤهلا لمواجه دهاقين السياسة في الغرب.

قال نوري السعيد:

تعلمون إن باقي الامراء رفضو تولي القياده .. ابن سعود الادريسي ابن الرشيد وحتي الشيخ خزعل.

قال رشيد رضا :

_ ابن مسعود يقود حركة اصوليه ولا يستطيع إن يرفع السيف علي اخوانه في العقيده مولاه للكفار وكثيرا ما ردد لخلصانه اقبل اموال الانجليز واسلحتهم .. ولكنني لن احارب بالنيابه عنهم وتوسل نوري السعيد موجها خطابه إلىعزيز المصري:

انت اعظم ضابط عربي في الجيش التركي انت بطل برقه وقاهر الطليان لا احد غيرك يستطيع إن يحسم تردد الضباط العرب الذين ما زالو علي ولاتهم للاتراك انت وحدك تستطيع دعوتهم للالتحاق بنا لكي نبني جيشا حقيقيا بمعدات واسلحه حديثه جيشا يستطيع إن يحسم الموقف علي الارض لو بدا أي تلاعب من طرف حلفائنا الانجليز.

قال المصري:

-وهل سيسمح الانجليز لنا ببناء هذا الجيش ؟

- لن نطلب الاذن سنبنية شاءوا ام ابوا

هذه مغامرة تريدونني إن اخطو خطوة الي المجهول

إن ابيع الي الانجليز يقينا لا يرقي اليه الشك بحفنه من الشكوك والريب كلا لن افعل ذلك

قال نوري السعيد:

- انا اري إن تضيع هذه الفرصه من ايدينا إن الوقت اثمت ما تملك ولو بقينا علي ترددنا فسنعطي الفرصه لجمال باشا ليقضي علي من بقي منا حيا
- – من يضمن عدم تدخل الشريف.
- تريد ضمانه ؟؟إن جيشا عربيا تقوده انت هو الضمانه ضباط القياده كلهم من رجالك في جمعيه العهد ولن يطيعوا احدا سواك ياسين الهاشمي وطه الهاشمي وجيمل المدفعي وتحسين علي ومولود مخلص وجعفر العسكري كيف تخشي من الشريف وانت تحديث السلطان نفسة حين اعلنت الدستور في مقدونيا قبل يومين من قيام نيازي باعلانه في اسطنبول ..
- كيف تخشي الشريف وانت تحديث جيوش ايطاليا الجرارة علي ساحل ليبا ..
- ورغم قله الجنود ونفاذ المال المؤن الحقت بالطيان في 16 تموز اكبر هزيمة لحقت بهم في تاريخهم كله حتي كله حتي إن معركتك معهم في طرابلس يدرسونها في كليات الحرب كاعظم المعارك في زمننا هكذا في العسكرية..

اما في السياسه فلولا تدخلك مع الامام يحي وعقدكللصلح المشرف بينه وبين الدوله العلية لما قالت بعدها الشريف يعي ذلك كله وما اظنة الا سيترك لك القياده الفعليه ويقنع بمنصب الخلافه الذي هو افضل بالنسبة له من أي منصب دنيوي اخر

قطب الشهبندر جبينة وتنهد:

- وصلتني رساله من دمشق امس وبها اخبار سيئه

- مد يده للرساله الي عزيز المصري الذي تناولها وقراء :

- سكر جمال باشا بخمرة النصر انطلق يعتقل العشرات بدون بينه ولا جريره اقسم إن لا يدع احدا من زعماء العرب واحرارهم علي قيد الحياه

دخل احد الرجال عزيز المصري ممتقع الوجه:

- سيدي رسول من غزة يقول إن لديه اخبارا عاجله .

- – ادخله .

- دخل الرسول وعليه عثاء السفر .. تعرف عليه عزيز المصري وسال:

- ما ورائكيا عمران؟

- الاتراك شنقوا مفتي احمد عارف الحسيني واعدموا ولده مصطفى رميا بالرصاص واقتادوا احرار غزة في الاصفاد الي القوقاز وبلاد الرومللي وعلي راسهم الشيخ محي الدين عبد الشافي وحمدي الحسيني ومحمد الريس وسعيد الحسيني ورشيد ابو خضرا وسعيد ابو رمضان ومحمد ابو رمضان وحسني خيال واحمد حلاوه.

ثار عزيز المصري وضرب المائدة بقبضه يده:

- الكلب انه يدفع بنا الي احضان الانجليز بلا رحمه.

(22)انزلت شريفه ما في احشائها انزاح عن صدرها كابوس الحمل المخيف .. لتتلقاه سعده بين ذراعيها كم يتلقي وعدا مكتوبا عليه.

وكلما ازداد اهمال امه وقسوتها .. كان حب سعده يزداد بتفجر حنانها فيضا لا نهايه له.

رفضت امه إن تسميه فاسمته سعده الاسم الذي لم تحب غيره في الاسماء

انتفتحت شهيه شريفه علي الطعام بعد الولاده قالت لها راضيه ماحه وهي تراها تلتهم كل شي يوضع امامها:

- مرضعه وبتاكل قد اربعه.

استردت شريفه عافيتها واستردت ايضا طيشها وخفتها في الاربعين انتهت ايام النفاس اغتسلت شريفه ولبست احسن ثيابها وجلست تاملت شعرها الاثيث الفاحم ووجهها الذي استعاد نضارته وبهاءه انحدرت المراه الي عنقها وصدرها الممتلىء الريان وخصرها وبطنها واردافها

وكل شيء رجع لاصلو كاني لا حبلت ولا ولدت

بكي محمود فلم تعره التفاتا وعاصت المرود في المكحله حتي امتلا وبدا تتكحل رسمت لكا عين شرطه لتبدو اكثر سعه وجمالا زاد بكاء الطفل فاشارت الي راضيه :

- هزيلو الكونيا(1) بركن يسكع (2)

- هزت راضيه الكونيا ولكن الصبي لم يسكع

- 1. الكونيا: السرير.

- يسكع: يغفو

توسلت راضية :

–من شن الله رضعي محمود الولد نطف من العياط

تناولته شريفه متذمرة:

- توي اللي طفحت.

- ألقمته ثديها:

– لابتشبع ولا بتقنع .. صحيح ابن حرام.

- استعاذت راضيه بالله .

يا شيخه حرام عليكي

عادت تحدق في المرآة تأملت عينيها وطالعتهما تلك النظرة الفاترة الشقية التي خلبت الباب الرجال.

قال له البيت شاويش جاويد وكان عجوزا متصابيا

- عينكي بترمي الفارس علي ظهر الفرس .

جاويد لم يحمل معها غلوه واحدة تركته نائما وسلبت كل مدخراته حين استيقظ لم يجدها في خيمته ولا في خيام العسكر ولعله ما زال يبحث عنها أخذت تدندن:

أشكوكيه .. أشكوكيه

بتسوى ألفين وميه

بتسوى الوالي والقاضي

وبتسوى رئيس البلديه

اشكوكيه.. اشكوكيه

***

أخذوا جوزي عالعسكر

وأنا درت مغنيــه

اشكوكيه.. اشكوكيه

وضعت الطفل جانبا وقفت تتمطى أحست بجسدها يستيقظ ويفح كأفعى نامت الشتاء بطوله... لم تعد قادرة علي لمه أو كبح جماحه

فتحت خزانتها وتناولت غطاء للرأس.. لفت الملاءة حول وسطها وأسدلت الغطا راس علي رأسها.

- أنا طالعة.. بدي أشوف وش الله.

قالت سعدة وهي تحس بالعاصفة القادمة:

-وش الله ولا وش العسكر؟!

-مالهم العسكر مش اولاد زينا زيهم؟!

-أنا خايفة عليكي يا شريفة.

-من إيش ؟.. هما غيلان بدهم ياكلوني.

أمسكت راضيه بذيل ثوبها محاوله منعها من الخروج.

-والعيب.. والحرام ..والتوبة النصوحة .. إللي تبتيها على إيديه ؟

-خللي العيب والحرام إلك ولسعدة .. وما تحاسبنيش علي التوبة.. بحاسب الكل الله

سحبت ثوبها من يد راضية وانطلقت نحو الباب:

إللي بلاني ما بلاكو وأنا مش زيكو.. أنا كلابية(1)

صفقت الباب خلفها ومضت

نظرت راضية إلي الطفل في حجر سعده فابتسم لها ملوحا بذراعيه هتفت تناغيه:

أمك بالعش وإلا طارت.

ردت سعدة:

إمو غارت.

ثم أكملت بغيظ:

1. كلابية: المرأه التي لا تستطيع الاستغناء عن الرجال

غارت في ستين داهية.

تابعت شريفه سيرتها الأولي.. زادت فترات غيابها عن البيت ..وزاد تعلق الطفل بسعدة..التي لم تكف عن العناية به لحظة واحدة.. حين يجوع في النهار.. تغلي له الينسون أو الكراوية أو الحلبة.. تدق له الزبيب والتمر وتضعه في شاشة نظيفة ليستحلبه في نهم .. يتصبر به حتى تعود أمه.

ذات مساء عادت شريفة بعد غياب النهار كله لم تلتفت إلي سعدة.. تشاغلت بإرضاع الطفل.. حين فرغت وضعته جانبا قالت لسعدة:

-صار عمرو ثلاثة أشهر .. إذا ما بدك إياه .. حُطيه علي باب الجامع.

وأنت يا شريفة؟

- بدي أتجوز وأرحل بعد أسبوع.

- ومين عريس الغفلة ؟

- ضابط شاب.. حبني يا سعدة .. أبوه باشا كبير.. أغا من إللي بنسمع عنهم في الحواديت.. سيأخذني معه إلي اسطنبول لأعيش مع أهله حتى تنتهي الحرب

-والضابط ..عارف انك أم وعندك ولد برضع ؟

- أنا مش أم يا سعدة .. أنا بنت بنوت.. وحسك عينك تخربي عليه.. بافضحك في الحارة كلها.. وبحلف علي المصحف إنو الولد إبنك وإنك خلفتيه من العسكر.

تأملتها سعدة ذاهلة وقالت في سرها:

- يا قحبة.. يا بوشتية(1) إللي فيكي حطيتي فيه!!!؟

اختفت شريفه.. ذهبت ولم تعد ..وقع الولد في ركب سعدة.. ألهته بالكراوية واليانسون خلال النهار ولكنه صرخ الليل بطوله.. يريد أن يرضع ..قالت راضية:

- 1. بشت : كلمه تركيه تعني السافل المتمرس في السفالة.

لن يسكت جوعه إلا الحليب

حلمته سعده إلي عائشة زوجه موسى الجرو وتوسلت لها:

زكاة عنك ولو مصة الولد طول الليل يصرخ.

نظرت إليها عائشة كمن ينظر إلي معتوه:

- أم عجل بدها أم عجلين نخالة .. أنا عندي توم.. لا بكنوا ولا بونوا.. وجاية تطلبي مني أرضع ابن السروان.. خذي الولد لأبوه إللي نشف ريقو وهو يدور عليكي وعليه.. القرع ما بربي إلا علي عودو يا مجنونة,

مصمصت شفتيها وأغلقت الباب

- باين عليكي غاوية فقر وشحططة يا بنت أبو زر

طافت به سعده كل بيوت الحارة فلم يسعفه احد.

أخيرا وصلت إلي جامع الأيبكي.. تذكرت وصيه أمه "حطيه علي باب الجامع"

ولم لا !!!؟ لقد خلقه الله ولن يتخلي عنه ...ركعت تحت جدار المسجد.. سوت التراب بيدها واضجعته.. وأحكمت لف الخرقة حول رأسه حتى لا يصيبه البرد.

-ابخاطر الله فيك.

تركته ومضت وهو يصرخ.. لم تكد تبتعد خطوات حتى سكت صراخ الطفل فجأة.. التفتت لترى سبب سكوته المفاجئ.. وقف شعر رأسها من الرعب ..رأت قطيعا من الكلاب كأنما انشقت عنها الأرض.. برزت أنيابها وتدلت ألسنتها من الجوع.. تتشمم الخرقة وتحاول الوصول إلي ما بداخلها ..هرعت إليه كالمجنونة.. اختطفته.. وضمته إلي صدرها وأجهشت بالبكاء.

***

دخلت سعدة دكان السروان ..وضعت أمامه لفافة بداخلها طفل..

حدق فيه السروان مذهولا وصرخ بصوت اهتزت له جنبات القيسرية:

-ولدي وفلذة كبدي.

تأمل الطفل وهو لا يصدق نفسه:

-آمنت بالله شبه المرحوم أبويه مخلق منطق .

تناولته وضمه إلي صدره.. سعدة مضت إلي حال سبيلها.. لحقها رجال السروان وعادوا بها.. ركع السروان علي ركبتيه:

-في عرضك يا سعدة رضعي الولد وبعد الفطام.. إذا حبيتي تقعدي بشيلك علي راسي.. وإذا حبيتي تمشي ما حدا بتعرضلك بسوء.

-بزازي نشفو يا سالم من القهر والمرض.. والظلم إللي ظلمتني إياه . -بلاش ترضعيه.. بندبرلوا مرضعة.. المهم يضل في حضنك.. الولد محتاجلك يا سعدة.. خليكي معانا ولو سنة.

قالت وهي تهز سبابتها في وجهه:

-سنة واحده.. وتكف نسوانك عني.

-نسواني وبناتي خدامين تحت رجليكي ورجلين إبنا ..بدي أسميه" شحتة" علي اسم أبويه "شحته سالم شحته السروان" .

تحدثه سعدة بشراسة كأنها تريد إذلاله

-إسمو محمود.. سميتو علي إسم المرحوم.

مسحها السروان في جلده السميك :

-يا ستي محمود.. محمود.. خير الأسماء ما حمد وما عبد.

(23)

طلع القمر بدرا محطة السكة الحديد بمدينه معان.. جلسوا في حلقات أمام خيامهم يتبادلون الحديث همسا حول أخبار ثورة الشريف.

منذ فصل الهجانة الأربعمائة من العوجا حفير حتى وصلوا معان وهم يتحملون وهج الشمس والآلام المبرحة في ظهورهم والجوع والعطش والاهانات المتلاحقة من الضباط الأتراك التي تصل إلي حد الإذلال والتشفي ليل معان حمل لهم احساسا رائعا بانتمائهم.. فالصحراء الممتدة أمامهم هي العربية الأم.. التي تحمل جنين الثورة تحمل حلم العرب باستقلال الحرية بعيدا عن نير الأتراك الذي ازدادت وطأته واشتدت بالخوف والرهبة.. صاروا يتصرفون بعصبية تبلغ حد العنف

قال الشاويش أحمد بيدس للأومباشي رجب السقا والبيت شاويش خليل وهبة مرافقه سعد الدين:

-اغلب الظن أننا سنغادر بعد يومين.. لن نركب القطار بل نسير بمحاذاة السكة الحديد حتى المدينة المنورة.. القطارات لا تسير إلا نادرا لانعدام الوقود ..ولا تحمل إلا كبار الضباط.

مربهماليوزباشي عزت..سمعهم يتحدثون بالعربية فاستشاط غضباً..عرج علي مجلسهم وانتهرهم بفظاظة :

- أولان.. جنقله كيم قرنور (1)

هبوا واقفين.. تقديم الشاويش بيدس وأدي التحية.

- سيدي نحن نتكلم لغة القران

1. من الذي يتحدث بلغه الغجر؟

لم يكد جملته حتى التهبت كف اليوزباشي صدغه بصفعه مدوية.. بكل غيظ الذي يحمله الشاويش بيدس في صدره من تصرفات اليوزباشي عزت تراجع اليوزباشي خطوتين إلي الوراء استل مسدسه.. وافرغ ثلاث رصاصات في صدر بيدس .. سقط الرجل بعدها يتخبط في دمه

-بوعرب.. خاين.. بزاونك (1)

قالها اليوزباشي عزت واغمد مسدسه ومضي

صلوا علي ميتهم و دفنوه.. وعادوا إلي خيامهم ينتظرون الأوامر بالزحف إلي المدينة المنورة للقضاء علي ثورة الشريف.

قال سعد الدين للبيت شاويش خليل:

-هل بقي لديك ما تدافع عنه هذه الدولة العلية؟

أجابه خليل:

اسحب جميلنا بعد صلاه الفجر إلي عين الماء.. كأنك تريد السقاية.. ثم اكمن بهما خلف التلة حيث سأوافيك من الجهة الأخربو نهرب سويا لنلتحق بالشريف

سكت سعد الدين ولم يتبادلا بعدها كلمه واحده حتى التقيا خلف التلة

همس سعد الدين في أذنه:

- اسحب الجمال سحبا حتى نبتعد عن المعسكر .
- سال خليل
- لماذا لا نركب؟
- إذا ركبنا الهجين وهي قريبه من العسكر لن نستطيع السيطرة عليها ستطير لتلحق بالجيش وباقي الجمال التي الفت صحبتها.

1. عربي سافل حقير.

-سحبا جمليهما وركضا حتى انقطعت نفاسهما

تربعت الشمس في راده الضحى أناخ سعد الدين الجملين.. أشار لخليل بالركوب ..ظلت الهجين تعدو بهما حتى غابت الشمس في واد مليء بأشجار الغيلانة (1)..

كمنا في الوادي منتظرين طلوع الصباح.. قبل إن يناما شربا آخر قطرة من الماء. أيقظتهما نسمات الصبا الباردة.. شدا علي جمليهما.. وواصلا العدو بلغ بهما الظمأ مبلغه.. أحس خليل أنه أشرف علي الموت .. أشار لسعد الدين.. لم أعد قادر على

تحمل العطش.. اتجه سعد الدين إلي قاع الوادي.. كان الطين ما زال رطبا.. حفر بالحربة حتى وجد الماء.. شربا وارتويا وسقيا جمليهما.. ملأ سعد الدين الغضارة.. بالماء وانطلقا حتى مالت الشمس للمغيب ..نزلا أحد الشعاب وتركا الجمال ترعى .. جمعا ماستطاعا جمعه من" سبل الحيا"(2) وفركاه حتى ملأا الخرج بالقمح.. أشعلا النار.. ووضعا قليلا من السنابل للشواء.. ثم فركاه بأيديهما وأخذا يمضغانه بتلذذ.

قال خليل:

–لقد تسرعنا باتخاذ قرار الهرب.. لو تظلمنا على اليوزباشي عزت عند فرنجس لما سكت عنه.. ولكان ذلك خيرا لنا من نزع قلادة الطاعة وعصيان الله والسلطان.

لم يجبه سعد الدين ..أخرج كيس تبغه ولف ورقة .. بعناية بالغة.. تناول عودا من النار ..أشعل سيجارته وأخذ يمتصها بنهم.

واصل خليل هواجسه:

1. الغيلانة: شجرة من عائله الصفصاف.
2. سبل الحيا : القمح البري الذي ينبت في الجبال.

- أبعد كل جهادنا الصادق في سبيل الله والسلطان ننكص علي أعقابنا وننضم للإنجليز أعداء الملة.

قال سعد الدين:

–وفرنجس صاحبك.. أليس من أعداء الملة.. أم إن الألمان دخلوا في الإسلام دون إن نعلم؟

هب خليل واقفا:

-لو.. سأعود إلي المخيم وأدعي أننا تهنا عن غير قصد.. فرنجس صديقي وما أظنه سيخذلني

صر سعد الدين علي أسنانه:

-الله يلعن الذرة إللي ما إلها عرق ..بدك ترجع للمعسكر .. وتعتذر لفرنجس وتصالح اليوزباشي عزت.. قدامك طريق طويلة.. إيش رايك تقبل هالزوادة من أخوك سعد الدين.

تناول كيسا من خرج راحلته ورماه أمام خليل.

فتح خليل الكيس وحدق بداخله كان راس اليوزباشي عزت مقطوعا من أسفل الجمجمة.. وعروقه ما زالت تنز دما

طاش صواب خليل.. ألقي بالرأس جانبا وهجم علي سعد الدين:

- وبش(1).. سافل.. لا تستحق شرف الجندية.. قوم يا كلب.. دافع عن نفسك.

بدل أن ينهض سعد الدين أغرق في الضحك ثم استلقي علي قفاه ..ركله خليل حتى استنفذ قواه ..أخيرا تركه وذهب يستند علي جذوع الغيلانة.

1. وبش : وغد

(24)

((يا أهالي غزة ... أوامر من جمال باشا..

إرحلوا خلال يومين.. ولو زحفا على الركب..

وكل من يتأخر يحرق هو وأمتعته))

يا أهالي غزة....

كانت خانيونس قد سقطت بيد الإنجليز بعد معركة دامية تداخلت فيها خطوط القتال.. تذابح العسكر بالسلاح الأبيض.. فل الحديد الحديد ..الأتراك انسحبوا إلى خط غزة بئر السبع لمداواة جراحهم.. والإستعداد للمعركة القادمة.

طاف قارعو الطبول بكل حارات المدينة وأر باضها يحملون إلي الناس ما لم يكن في الحسبان .

لم يكن لدي أغلب الناس ما يستحق أن يحملوه فحملوا أنفسهم على الصبر.. مضوا يسحبون خطاهم سحبا إلي خارج المدينة.. اتفق الوهايبة وانسباؤبهم علي التجمع في وادي الزيت ليقبضوا ليلتهم الأولي هناك قبل أن يواصلوا الرحيل إلى نابلس ..اسماعيل كان أول الواصلين.. ما أن أشرف على الوادي حتى اقشعر بدنه. رأي العسكر يعملون بهمة في اقتلاع أشجار الزيتون وتحويلها إلى أكوام من الحطب.. ترك رسن الحمار الذي يحمل أولاده ومتاعه لعزيزة.. وانطلق يعدو كالمجنون حتى لحق بالعسكر.. كانوا يعدون أحد المناشير لقص شجرة جديدة ركع أمام الضابط ضارعا:

- حرام عليكم.. هادا رزقنا ورزق عيالنا.. الزتونة شجره مبروكة.

لم يعر العسكر التفاتا.. نصبوا المنشار علي جذع الشجرة وبدأوا بالنشر

صاح فيه الضابط نافذ :

- القطارات أيضا مبروكة.. مجهود حربي لازم يستمر.. حطب يوك ؟! جهاد يوك؟!

- بلاش الزتون.. كل السجر إلا الزتون .

- زتون علي راسو ريشه؟!

– الزتون مر عليه اليونان والرومان والفرس وجيش هولاكو.. ما حدا قطعو.. ولا مس فرع منو.

- هولاكو ما كان عندو بوابير بتمشي علي بخار.. بخار بدو نار .. نار بدو حطب

لكز جواده.. فدار به نصف دورة معلنا إنتهاء المناقشة.

ركض إسماعيل واحتضن الشجرة التي ينشرونها.

–الزتونه إمي وأبويا.. والله ما بتمسوها وفي رمق..

أشار الضابط إليهم:

–مجنون.. احمل مجنون وإرمي بعيد.

حمله أربعه من العسكر من يديه وقدميه وساروا به مسافة بعيدة .. طرحوا به فوقع على ظهره.. لكنه تحامل.. وعاد إلى الموقع يحتضن الشجرة ويصرح :

–إنتو مش مسلمين ولا كفار.. إنتو وحوش وكسرت علينا.

انهال الضباط علي رأسه بالسوط.. تشقق ظهره وسال الدم من رقبته وكتفيه.. وهو متشبث بجذع الشجرة.

وضعت عزيزة طفلتها الرضيعة علي الأرض بين إخوتها.. وركضت تستجير بالمارة :

–في عرضكم يا رجال.. العسكر رح يموتو جوزي.

كانوا جميعا قد جربوا ظلم العسكر ويعرفون أنه بلاء لا يمكن دفعه..

فالكف لا تعاند المخرز.. نظروا إليها بإشفاق.. وواصلوا طريقهم وكان الأمر لا يعنيهم.

تعب الضباط ولم يتزحزح إسماعيل.. أخيرا أشار الضابط لرجاله:

–قيدوا يديه بالحبال.. واربطوه إلى سرج حصاني.

حين فزعوا من ربطه.. دفع الضابط المهماز في خاصرة الجواد.. انطلق يجر اسماعيل.. تلوى المسكين على الأرض كدودة .. تمزقت ثيابه.. تمزقت معها نتف

من لحمه.. أخيرا وصل الضابط إلى حيث تقف عزيزة والأولاد.. رمى الحبل وقال لها:

- إذا عاد ثانية .. نشرت رقبته.

انحنت عزيزة عليه تمسح وجهه بطرف غطاراسها وهي تجوح:

- الزتون فداك يا أبو مصطفى.. نفسك عندي بالدنيا واللي فيها.

جلست وأسندته إليها.. ناولته شربة ماء.. تأمل أشجار الزيتون وهي تتهاوى تحت ضربات الفؤوس.. وحزات المناشير ..وصرخ كأن الفؤوس تقطع جسده.

–الزتون مش أي سجرة يا عزيزة ..الزتون إجدودنا إللي راحو واولادنا إللي جايين تخلص من ذراعيها.. ونهض متثاقلا .. تقدم خطوات.. كانت ركبتاه قد تحطتما فلم تحمله ساقاه .. تهاوى يدق الأرض بقبضة يده ويصرخ:

–خدي الأولاد.. وروحوا للعسكر كل ولد يحضن سجرة.. وإذا نشروها ينشروه معاها.

لج في البكاء مثل إمرأة

وصل الغتيت .. ابنه على كتفه ويده على كتف صبيه مدحت ..

وخلفه زينب تسند أمها.. كان قد وعد زينب ألا يستعطي أمام أهلها.. حتى لا يحرجها معهم.. خاصة اسماعيل الذي يحسب له الغتيت ألف حساب.

حين علم بما حدث .. أحس بأنه أضاع فرصة التسول طوال الطريق دون مبرر.. قال يؤنب نفسه:

- يا ماخد زينب علي مالها.. راح المال .. وضلت زينب علي حالها.

كان الجوع قد بلغ به مبلغه.. تحسس الطريق بعصاه.. ومضى يتعثر في العابرين وهو يبرطم:

- صرتوا شحاتين يا دار وهبة.. الله دحرج الوقية وخلا الكل سوية..

إيدكو علي كتفي أعملكم الشحاتة.. صنعه في اليد أمان من الفقر؟

مد يده علي طولها وأخذ يجأر بأعلى صوته:

- لله يا محسنين.. حسنه لها لضرير العاجز.. نسيب دار وهبة.

الحاج أحمد استأذن قائد الجندرمة لكي يرحل عائلته إلى نابلس..

أعطاه القائد حمارين هزيلين من حمير السخرة.. اختص شقيقته آمنة وولديها بحمار لمتاعهم ..واستخدم الحمار الآخر لعائلته.

هتفت آمنة وهي لا تجد في بيتها ما تحمله على الحمار:

- قالوا للعنز إرحلي.. قالت توب على.. توب على الوتد.

قبل أن يتحرك الموكب.. أصر على أن يغرس آخر حفائر الكرم الذي اشتراه من آمنة.. باللوز.. ظلوا انتظاره حتى انتصف الليل.. نفض كفيه من تراب كرمه.. وتنهد وهو يسوق قافلته:

- ازرع ونام.. والزرع ما بنام .. حا .. حا

حين بلغت القافلة الطريق العام.. كان الإزدحام علي أشده .. اختلطت رحائل القوم المغادرة غزة بإمدادات العسكر.. التي تزال تريد إلى خط الدفاع الجديد.

بصعوبة بالغه تجاوز الحاج أحمد إختناق الطريق.. وصلوا جباليا.

طلعت الشمس عليهم عند جميزة صالحة.. مدت إمرأة من جباليا يدها ولمست جذع الجميزة :

-يا درا ويا درا.. يا جميزة صالحة.. يا مرجعه الغياب.. نرجع بلادنا ونهوفك(1).

خرج عن الطريق قليلا.. لكي يعيد شد المتاع على ظهري الحمارين ..وصلت عربة من عربات الجيش تجرها بغال هزيلة.. غاصت عجلات العربة في الرمل.. ولم تستطيع البغال سحبها.. إنهال السائق بسوطه علي ظهر البغال التي تلوث ثم تهالكت على الأرض ذهب ولده حسين ليتفرج.. كان في السابعة من عمره.. ترجل ضابط من العربة ورطن بالتركية:

-بو زقاق نارايا تشقار (2)

لم يكن الطفل يعرف من التركية سوى عبارة واحدة فأجابه:

-ترك شابي إلمام أفندم(3)

حدق فيه الضابط مذهولا.. وهو يسمعه يجيب علي سؤاله بتركية سليمة وفصيحة: حسبة يسخر منه.. سحب سوطه لكي يؤدب الصبي.. هرع الحاج أحمد يحتضن ولده .. إلى حيث يقف باقي أفراد عائلته.. وهو يغلي من الغضب.

مر بهم الشيخ علي إمام المسجد الأيبكي يدفع أمامه بغله الحرون المحمل بالمتاع وخلفه أفراد عائلته.. قال للحاج أحمد:

_ أبو التوفيق وراءنا.

وواصل سيره .

1. نهوفك: تراك عاميه في جباليا
2. إلى أين تؤدي هذا الطريق؟
3. أنا لا ألم باللغة التركية يا سيدي؟

وصل أبو التوفيق يسحب جملا عفيا وخلفه ولداه عبد الحميد ومحمد يسحبان بغلا عليه متاع العائلة.. راضية كانت تعدو خلفهما وعلى كتفها صرة ثياب.. أشار أبو التوفيق إلى الهودج على ظهر الجمل:

-أختك أم التوفيق وكناينها في الهودج وأنا العبد إللي شروه من السوق عشان يسحب الجمل .

قال الحاج أحمد يهون عليه:

-أنت سيدنا وتاج راسنا يا أبو التوفيق.. وسيد القوم وخادمها.

أطلت أم التوفيق من ستاره الهودج والدموع في عينيها وسألت الحاج أحمد:

-إيش أخبار مشعل يا أخو؟

-مشعل مقيد فرار.. وأنا أول واحد راح يسلمو للعسكر.. إذا وقع في إيدي

أجهشت أم التوفيق بالبكاء.. وانطلقت القافلة.

حين وصلوا إلى وادي الزيت.. قلب الشيخ علي البتير النظر في الوادي ولم يصدق عينيه:

-قاعا صفصفا كأن لم يغن بالأمس.

استقبلهم زينب على مدخل الوادي .. وروت لهم ما حدث.. هرع الحاج أحمد إلى حيث يرقد ابن أخيه مثخنا بالجراح ..لمس جبينه ..فتح إسماعيل عينيه وغمغم.

هادي الدولة إللي خدمناها العمر كلو.

نظر الحاج أحمد إلى العسكر.. كانوا يواصلون ارتكاب جريمتهم دون اكتراث .. بعضهم يعمل في اقتلاع الأشجار والبعض يعمل في تقطيع أوصالها وتحميلها علي

العربات.. تناول بندقيته من خرج الحمار ودكها بالبارود.. وهو يغمغم (قطع الأرزاق من قطع الأعناق.. والله ما بقصوا سجرة إلا بعد ما يقصوا رقبتي)

-159-

صرخ أبو التوفيق وهو يرى البندقي مشرعة في يد الحاج أحمد :

- هادا موسم الباذنجان .. والجنون طب في العلية كلها .

أشار لولده عبد الحميد :

-خلص منو البارودة خللي هالنهار يمر على خير .

هجم عبد الحميد على خاله وتعاركا معا حتى استطاع أن يأخذ منه البندقية .. أطلقها في الهواء وأعادها إلى خرج الحمار .

احتضن الشيخ على الحاج أحمد .. وربت على كتفه :

-استهدي بالله .. وأطلب منو العوض .. حدا فينا معشم يرجع للزتون .. والا يرجع لغزة .

استكان الحاج أحمد صاغرا .. وجلس والدموع في عينيه يردد :

-((والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين .. والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين)) .. لقد ضيع الأتراك كل شئ .. كل شئ .

انتهزت آمنة الفرصة لتحن قلب شقيقها الحاج أحمد على ابن أخيه خليل الذي التحق بالشريف .

- رخليك تعذر خليل ؟

إنه يعرف في أعماقه أن خليل على حق .. ولكن المكابرة كانت من طبعه .. فلج في عناده .. أنشب مخالبه في كتفها .. وهزها بقسوه :

- خليل رح يموت كافر .. عاصي الله والسلطان .. و إذا بدك تمشي معانا إياكي تجيبي سيرتو على لسانك .

انتفض الجسد المسجى .. شهقت عزيزة :

- الزلمة رح يروح من إيديه .. وإنتو بتطلعوا .

انتفض الجسد بقوة .. ثم أخذته نوبة سعال شديدة ظل صدره يعلو ويهبط حتى كاد يتمزق .. أخيرا هدأ بين ذراعي عزيزة ولكن الدم تدفق من شفتيه وأنفه .

نزعت عزيزة غطار اسها .. ومسحت الدم وهي تولول :

-160-

–ما تسبنيش يا أبو مصطفى.. أولادك قطاطيم لحم.. وأنا قليلة حيلة.

غربت عيناه ..وثقل رأسه في حجرها ..هزته بيدها وصرخت :

–إسماعيل .

أدركت انه مات.. لطمت خديها بوحشية.. أحاطوا بها.. محاولين منعها.. قاومتهم حتى أغمي عليها.

في الصباح حملوه إلى جوار قبر جدتهم فاطمة والده جدهم يونس.. حفروا له.. ووسدوه التراب.. ونفضوا أيديهم.

حمل أبو التوفيق عزيزة و أولادها على ظهر الهودج وهي بين الحياة والموت .. إم التوفيق وكناينها الذين أخلوا الهودج طواعية لعزيزة وأولادها سرن على أقدامهن.

راضية حزنت علي زوج أختها كثيرا.. وانشغلت مع أمها وباقي نساء الحارة في مواساة عزيزة.. وحين انطلقوا اتجاه نابلس..يعافرون وعورة المسارب الضيقة بين حقول القمح المهجورة.. تذكرت خيل الذي التحق بجيش الشريف وانقطعت أخباره..

هل حقا سيموت كافرا ويدخل النار ؟؟

تدفقت الدموع من عينيها حتى حج

-161-

في بير سعيد حيث نصب الأمير فيصل معسكره ..اقتاد الحراس خليل وسعد الدين لمقابلته .. استقبلتهم الأمير واقفا في منتصف خيمته ورحب بهم:

-يالله ان تحبا.. يا لله ان يحيا.

تأمله خليل بثوبه الأبيض وعباءته السواء والمقصبة بالذهب .. عقاله وكوفيته المسدلة على كتفه.. لم يكن فارغ الطول مثله.. كان جسده نحيفا.. ووجهه شاحبا.. ولكن عينيه الواسعتين تشعان حيوية ونبلا.. أما صوته فكان عريضا أخاذا.. صوت يشحن القلب بالقوة والعزم.. صوت رجل مُهاب تعود أن يأمر فيطاع.

قبلا يد الأمير وركبته.. أشار لهما بالنهوض واقتدهما إلى صدر الخيمة.. أجلسهما أمامه وطلب لهما القهوة.. عاملهما كضيفين.. واستمع لحكايتهما بعناية. حين فرغا رحب بهما.

- حياكم الله.. انتو أولادنا.. الجيش جيشكم.. والعسكر عسكركم .

استدعي ضابط الأركان.. دخل ضابط وأدى التحية.. تأملا ثيابه العسكريه.. لم يكن يضع علي رأسه الكلبك مثل ضباط الأتراك.. ولكنه بدلا من ذلك كان يعتمر كوفية وعقالا .

قال له الأمير :

- يا مولود هادو لا شباب عرب.. من أهل النخوة والحمية.. شرواك.. انضموا لعسكرنا.. دير بالك عليهم.. اعطيهم الرتب إللي بستحقوها وسلمهم السلاح والعدة.

اختبرهم هم مولود وفرح بهم.. وأعطي خليل رتبة ملازم.. وأعطي سعد الدين رتبه بيت شاويش وضمهما للجيش العرب.

مرت أيام كثيرة وهما غارقان في التدريب واعداد الجنود المتطوعين من القبائل في الجيش النظامي.

كان خليل يخشي من كل قلبه أن يواجه الأتراك في معركة يقتل فيها المسلم أخاه المسلم.. فيذهب القاتل والمقتول إلى النار.. وقد سره أن يشتغل بتدريب الجنود بعيدا عن ساحات القتال إلا أن سروره هذا لم يكن ليستمر طويلا .. فحالما أتم تدريب فرقته.. استعرض مولد السرايا كلها واختبرها.

أحرزت سريه خليل التفوق علي الجميع ..عانقه مولود ومنحه نجمة أخري علي كتفيه.. وأمره بالانتقال إلى المعظم ومنها إلى العقبة التي سقطت حديثا في يد عودة أبوتايه .

من العقبة تحركت سريه خليل إلى وادي موسي.. حيث ما زال الأتراك يخندقون في الضواحي .. ويجمعون حشودهم لإستعادة العقبة .

أخفي خليل سريته بين الشعاب.. وتسلل بصحبة اثنين من عساكره إلى مخيم الأتراك تحت جنح الظلام.

اختطفوا ملازما تركيا ابتعد عن المخيم وعادوا به إلى مكمنهم .. كان الجوع يلوي أمعاءه.. وحين رأى الطعام بكي من القهر.

قال له خليل:

-الطعام كله لك .

أكل الملازم بنهم.. أكل حتى امتلأ بطنه وشرب حتى اكتفى.. أشعلوا له سيجارة مج أنفاسها بقوة.. شعر كأنما ردت له حياته.. انحلت عقده لسانه.. عرفوا منه أن والده تركي وأمه عربية وأنه من انطاكية.. توفي والدة قبل أن يولد.. وكفله أخواله.. كان يائسا من نتيجة الحرب.. وسره جدا أن يقع في الأسر.. لم يكلفهم جهدا يذكر لكي يخبرهم بكل ما يعرفه.. قال لهم: تقرر الهجوم علي العقبة غدا عند أول شعاع.. والذي سيقوم بالهجوم فرقه كاملة.. ستة عشر طابورا.. وأربعة الايات.

سيعبرون الوادي خلف الطلائع التي سوف تسبقهم بساعة واحدة لاستكشاف الطريق.. رسم خليل خطة محكمة للتصدي لهم.. نصب مدفعين ثقيلين علي قمة

الجبلين المطلين علي الوادي .. وفي السفوح نصب الرشاشات (المتراليوز) الطائرات الألمانية شدد على عدم إطلاق النار إلا بعد أن يصدر أوامره.
احتفظ خليل بالملازم التركي وعامله معاملة كريمة.. سأله خليل عن نسيه العرب إلى الأتراك في القوة المهاجمة فطمأنه :

- لم تعد القيادة تثق بالعرب.. لذلك فهي تنقلهم إلى الجبهات البعيدة.. انهم يخشون إذا حشدوهم في مواجهة جيش الشريف.. أن يفروا من معسكرهم للإلتحاق بقواته.

قال خليل في سره : هكذا ضمنت أن لا أفاجا غدا بوجود الدوش بين القتلى .

مع أول شعاع اليوم التالي.. حومت طائرة استكشاف ألمانية.. حبس خليل أنفاسه.. لو كشفتهم الطائرة فلن يتم الهجوم.. وربما قصفهم الألمان من الجو..
لم تطل هواجس خليل .. فقد بدأت طلائع الأتراك في الظهور..
مروا دون أن تعترضهم أحد .. بعد ساعة من عبورهم زحفت القوة التركية المهاجمة.. انتظر خليل حتى وقعت القوة كلها في مرمي النيران.. أصدر خليل أوامره.. انهالت قذائف المدفعية تدك حشود الأتراك وتفتك بهم.. حاول بعضهم الفرار باتجاه السفوح المحيطة.. تلقتهم رشاشات المتراليوز.. كان الكمين محكما كالقضاء المنزل.. رآهم خليل يتساقطون تساقط والجنادب .. سمع صرخاتهم من مكمنه في الشعب.. وبدلا من أن تغمره الفرحه لنجاحه ..أحس بشئ داخله يتمزق.. كأنه فوجئ بما حدث.. ردد بحرقة(حسبي الله ونعم الوكيل)
انكسرت الموجه الأولي والثانية من المهاجمين وتقهقر الباقون على

أعقابهم.. وحين جاء مولد مخلص لتفقد أرض المعركة.. عانق خليل ومنحه رتبة يوزباشي .

قال له سعد الدين حين التقيا بعد المعركة:

-لا أراك تبدو فرحا بانتصارك أو بترقيتك.. لعلك في قرارة نفسك ما زلت تلومني علي قتل اليوزباشي عزات.. فلولا رأسه المقطوعة لكنت الآن في الجهة الأخرى من الجبهة.. قتيلا.. أو جريحا .. أو فارا علي وجهك في الصحراء.. أيها اليوزباشي التعيس الحظ .

تنهد خليل وقال لصاحبه :

فكرك وين الله راح يحطنا يوم القيامة وفي الحديث الشريف (إذا التقي المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول إلى النار)

قهقه سعد الدين:

- هيك طمنتني.. يعني ضمنا الأتراك يروحوا على النار

تأفف خليل من لجاجة صاحبه :

-أنا مش بكيان على الأتراك أنا سألتك عنا.

-إحنا ما رح تفرق معانا.. لأنو حياتنا كلها عشناها في النار بفضل جماعه الإتحاد والترقي إللي استعبدونا وداسوا علي كرامتنا.. يا سيدي إبي وبعداك ما رب.

تأمله خليل وهتف:

العبط نعمه الله لا يحرمك من العبط يا سعد الدين

كانت هذه أول عمادة بالدم في حرب خليل ضد الأتراك.. بعدما وصلته أخبار اقتلاع زيتون الوادي وقتلهم لإبن عمه إسماعيل وما عادت نفسه تذهب عليهم حسرات

اكتشف الحاج أحمد أن الناس في المدن الصغيرة وفي الأرياف عموما لم يبلغوا حد الموت جوعا ..كما في المدن الكبيرة ..وأنهم ما زالوا يحصلون على كفاف يومهم من البساتين والكروم السخية التي واصلت عطاءها زمن الحرب .. كما أن الجبال المنيعة التي آوى إليها الناس حمتهم من نهب العسكر لأقواتهم و مواشيهم.

ضمن الحاج أحمد كرم تين في نابلس به بيت وثلاث بوايك من الطين .. وطابون لإعداد أرغفة الخبز.. سكن هو وعائلته البيت.. أعطي بابكة لآمنة وولديها هاشم وصالح .. وبايكة لأرملة أخيه أبو خليل وأولادها القصر رزق وفايز وفايق.. والثالثة لزينب وشقيقها مدحت وأمها وزوجها الغتيت.

التحق الحاج أحمد بالجندرمة.. كان أول مرتب يتقاضاه جراية من الدقيق .. صنعت منها محضية أرغفة حملتها آمنة إلي السوق.. باعتها بثمن باهظ .. في اليوم التالي أعادتا الكرة .. وفي الأيام التي تلت احترفت العائلة صنع وبيع الخبز.. صار اسمهم دار الخبازة.. نشطت الأمهات في صنع الخبز ونشط الأولاد في توزيعه على حارات المدينة.

أبو التوفيق اكتشف أن أهل نابلس عريقون في صناعة الزيت والزيتون.. أبا عن جد وأنه لا سبيل أمامه لمنافستهم.. فترك مهنته السابقة وامتهن الصباغة.

اشتري دكان صباغ توفي صاحبها دون أن يترك خلفه ولد يرث صنعته.. سكن هو وعائلته البيت الملحق بالمصبغة.. تعلم أبو التوفيق من صبيان الصباغ الحرفة.. كلف ولديه عبد الحميد ومحمد بالطواف في المدينة لإحضار الثياب من البيوت.. وإعادتها لأصحابها وتقاضي الأجرة منهم.

قال لأم التوفيق وكناينها:

–أنا مش فاتح إتكيه .. اللي بدها تاكل ..تاكل من عرق جبينها.. والإيد البطالة نجسة.

اشتغلت زوجه مشعل في حياكة وتقطيب الثياب قبل صنعها.. وزوجة عبد الحميد وعزيزة في غسل الثياب قبل وطيها..و أم التوفيق وراضية في النشر على الحبال أو جمع الثياب بعد أن يجف .

وزوجة علي الحبال أو جمع الثياب بعد أن تجف.

حقق أبو التوفيق دخلا لا بأس به وتوسعت أعماله .. ضم إليه زينب زوجة الغتيت .. وكلما ازداد عدد المهاجرين من غزة وقراها في نابلس ازداهرت صناعة أبو التوفيق واشتد عودها .

صحة أم التوفيق لم تسعفها على تحمل الشقاء والعنت الذي سببته لها المصبغة .. صارت تتبرم بحالها يوما بعد يوم ولن تعد تكف عن الشكوى .

الروائح المنبعثة من المصبغة كانت تسبب لها الغيثان .. إعتلت معدتها و أصابها السقم .. طلبت منه أن يعفيها من العمل وأن يستأجر لها بيتا .. أو كرما بعيدا عن المصبغة .. راوغ .. وماطل في ذلك .. غادرت إلى البيت شقيقها الحاج أحمد .

ظن أبو التوفيق أن الأمر لايعدو زيادة قصيرة للسؤال عن ولدها مشعل الذي انقطعت أخباره .. أو ابن أخيها خليل الذي لحق بالشريف .. وأنها سرعان ما ستعود إليه .. لكنها إعتصمت هناك ولم تعد ثم تبعتها راضية .. وأخيراً كنتاها .

قال أبو التوفيق لولده عبد الحميد :

روح إسبحهم من جدايل شعرهم .

كان عبد الحميد متواطئا معهن فقد شق عليه العمل في المصبغة .. وحن إلى حياة البطالة والدعة التي تعود عليها في غزة .

- هادو لا اطنبو على الوهايبة .. والوهايبة رجال بحموا طنيبهم .

فاض كيل أبو التوفيق .. حين سمع عبد الحميد يباهيه بأخواله :

- الوهايبة فيهم فص .. بحسبوه عرق مراجل (1)

تحمل أبو التوفيق غيابها أسبوعا .. في الأسبوع الثاني قال له الغتيت وهو يجلس إلى جانبه :

ريحتك غلبت على ريحة المصبغة .

صاح فيه أبو التوفيق :

- مالها ريحتي ؟!

دار الغتيت برأسه نصف دورة كأنه يطارد بمنخريه ثم تابع :

- مثل ريحة تيس الحصيدة.

نهره أبو التوفيق :

- اخرس .. قطع لسانك .

في الأسبوع الثالث نهض أبو التوفيق في منتصف الليل يحك صدره المشعر ..خلع ثوبه ودنى من النواس .. اكتشف طفحا أحمر يلهب جلده .. أدرك أنه لن يصبر على فراقها أكثر من ذلك .. قام من فوره يخبط في ظلام الليل خبط عشواء حتى وصل الكرم ..وجدهم نائمين .. ظل يجأر حتى أيقظ الموتى في مقابرهم .

خرجت له أم التوفيق .. وضعت يدها على فمه .

- أسترنا الناس نايمين .

- إللي نايم يصحى .. وإللي إحنا في طيزو يضرطنا .

- في عرضك ياأبو التوفيق .

جرها من جدائل شعرها حتى غابا وراء أشجار التين الملتفة .. طواها تحته وهي تبكي من الغيظ والقهر .. قام عنها.. كانت ماتزال تنشج وجسدها كله من شدة النحيب .. هدأت ثائرة أبو التوفيق .. تأملها بإشفاق .. رق لها قبله .. لأول مرة في حياته يدرك كم هو فظ وقاسي القلب ..

هذه المرأة الرائعة .. التي شاركته السراء والضراء .. فرحت لفرحه .. وحزنت لحزنه .. تحطم قلبها عندما ثكلت إبنهما البكر في حرب اليمن .. وها هي مشدوهة البال على ولدها الثاني الذي اختفي في الحرب وانقطعت أخباره .

قال بأسي وهو يضمها إلى صدره :

- سامحيني يا أم التوفيق .. يا كوم البنور .

غلبه الحنان قبل رأسها ويديها وقال فيها شعرا :

ليش الزعل يا أحبا ب ما قلنا كلام يغيض

والقلب من جالكم مثل الهدوم البيض

قالت أم التوفيق :

- ومين بدو يشوف القلوب .. إذا كانت نظيفة وإلا وسخة .. الناس بتشوف إيدينا ووجوهنا وثيابنا إللي ملخطة بالسخام .. بتشم ريحتنا إللي أزنخ من ريحة السردين الفايت .

اتجهت إلى السماء ضارعة :

- يارب توب علينا هالشغلة .

مسح أبو التوفيق دموعها .. ووعدها خيرا .

في الصباح طاف أبو بكل دكاكين نابلس وأعلمهم أنه وضع المصبغة للبيع . لم يمر على ذلك أسبوع واحد حتى قبض أبو التوفيق ضعف الثمن الذي دفعه عند شرائها .. عاد بالنقود إلى أم التوفيق التي مازالت معتصمة في كرم الحاج أحمد .

وضع النقود في حجرها وقال أمام كل الوهايبة :

- العبد وما مكت إيدو .. لسيدو

تأملته أم التوفيق وهي بين مكذب ومصدق

-169-

تحدرت دمعة كبيرة من عين أبو التوفيق .. كانت هذه أول مرة تراه يبكي منذ تزوجته .. أدركت مقدار التضحية التي ضحاها في سبيلها.. تناولت يده وقبلتها ووضعتها على رأسها بتأثر بالغ :

- انشالله بتضل على راسنا يا أبو التوفيق عز ودرا .

زغردت زوجة عبد الحميد دون وعى .. غادرت سلفتها زوجة مشعل المكان حانقة :

-إللي جوزها .. بتلعب بأصابعها .. والكبه عليه إللي مش عارفاه طيب والا ميت .

تبعتها راضيه تهون عليها .. وتعتذر عما بدر من زوجة عبد الحميد دون قصد.

❋ ❋ ❋

بعد أسبوعين عثر أبو التوفيق على عمل جديد .. اشترى دكان قصاب وفي سوق نابلس .. لبس دراعة وتحزم من الجلد .. تتدلى على جانبيه المدي والسكاكين.. وجلس في صدر الدكان .

الدكان النظيف الذي لم يشهد تعليق ذبيحة واحدة منذ بدأت الحرب وبدأت معها المجاعة .. لم يغامر أبو التوفيق بتغيير نظامه هذا .

كان الأغنياء يتسللون إلى الدكان في النهار لحجز طلباتهم ودفع ثمنها سلفا .. يسجل الشيخ علي الأسماء والطلبيات في سجله .

وفي الليل وتحت جنح الظلام يتم الذبح في كرم الحاج أحمد بعيدا عن أعين الرقباء والجائعين .. تقطع الذبيحة قطعا صغيرة تلف بالورق جيدا ويخبئها الغتيت في جيوب ثوبه الواسعة .. تلك الجيوب التي فصلت خصيصا لإختزان صدقات المحسنين من الخبز والكعك والتمر زمن الأعياد والمواسم .. يدور الغتيت بهذه القطع في الليل ويدق على أبواب الزبائن كأنه شحاذ يستعطى أهل الخير .. دون أن يشك فيه أحد .

أحيانا يستخفه الطرب .. وهو يؤدي دوره فينادي على زبائنه :

- لحمتك يا رب .

لم يكن الغتيت ليرضى بأقل من رأس الذبيحة أجرا له على مغامرته الليلية هذه .. وفي آخر الليل يتربع على اللقان يفت الخبز في المرق الساخن .. ويتلذذ بالتهام الثريد الدسم أو مصمصة عظام الرأس أو لهط المخ .. وكان يجود على زوجته وأمها بنصيب من الطعام وحين يسمع مضغهما وازدرادهما .. يقول لأمها :

-السبع يا حماتي بطعم أهلو والديب مقوي (1) .

1.مقوي : من الإقواء (شدة الهزال الناجم عن الجوع المتواصل) .

(27)

كانت ليلة فظيعة ..

قال الدوش وهو يمسح الدماء عن حربة بندقيته :-

- السنكي انطعج قي بطونهم .. وثم أخد ينشد:

إلا وسردية من الشرق [1] ومقدمها حسن سرحان

مادد إيدو على البرشق [2] وناوي عالطوشه وضرب الزان [3]

***

إلا وسردية من الغرب ومقدمها الأمير زيدان

مادد إيدو على البرشق وناوي عالطوشه وضرب الزان

***

تأفف رفاقه المتعبون وطلبوا منه السكوت ثم سرعان ما أخلدوا للنوم .

خيم الصمت على الخنادق .. خلع الدوش البسطار من قدمه بصعوبة بالغة .

-الله يلعن الحرب وسنينها .. هادي أول مرة أشلح البسطار .. عشرة أيام .. معركة رهيبة ..كسرنا شوكة الإنجليز .. ورديناهم عن غزة .. بدهم شهر كامل عشان يدفنوا جيفهم .

وضع البسطار تحت رأسه وراح في النوم .

لم يستيقظ إلا ضحى اليوم التالي بعد أن أحرقت الشمس أطرافه وأطراف العسكر .. كان محمد الغطريف قد تسلل إلى المواقع التي أخلاها الإنجليز وعاد بثلاثة علب من التنك في حجم قبضة الكف عالجها العسكر في الحرب حتى شقوها .. تشم الدوش ما بها:

1. وصف لإحدى معارك بني هلال .. والسرديه كوكبة الفرسان .
2. البرشق : مقبض السيف .
3. الزان : الرماح .

- ريحتها زفر ؟.. أنا غشيم عن الزفر ؟.. هدولا الإنجليز بعبوا الزفر في علب التنك عشان عساكرهم يقووا علينا .. إحنا إللي القسماط مدود في قلوبنا .

مد الغطريف أصبعه وتناول قليلا منه ودسها في فمه .

لعق أصبعه :

-قاورما .. على الطلاق قاورما .

امتدت أصابع العسكر تلعق المعجون الشهي حتى أتو على العلب الثلاثة: ارتفعت مطرات المياه إلى أفواههم وشربوا حتى ارتووا .. اشتدت حرارة الشمس.. فنشروا شراع خيمة على رؤوسهم .

قال الغطريف للدوش :

- ماوصلتش أوامر إجديدة ؟

أجاب الدوش :

-الضابط نامق أفندي استدعوه في القيادة .. أكيد رح يتسلم خطة الهجوم على الانجليز .. إحنا كسرناهم كسرة وما رح يرد راسهم إلا الترعة ..صار إلهم سنتين بهجموا على غزة وبنردهم .... هادي غزة محرمة على الكفار من يوم ما الله بشر فيها النبي ..مسمعتوش بالحديث الشريف : (أبشركم بالعروسين غزة وعسقلان) .

رجع الضابط .. دعاهم للإلتفاف حوله .. رسم بعصاه خطا على الأرض وقال لهم هذه هي تحصينات جيشنا من البحر بمحاذاة وادي غزة حتى رابية المنطار.. الإنجليز كما تعلمون قصفوا مواقعنا طوال الأسبوع الماضي بالمدفعية الثقيلة وصب اسطولهم في البحر حممه على غزة حتى جعل عاليها سافلها ..حيت تيقن موري (1) أنه سحقنا سحقا .. أمر قواته بالهجوم..

1. موري : قائد القوات البريطانيه العامله شرق القناه .

صبرنا عليه حتى توغلت قوته مسافة كافية .. وخرجنا له من تحت الركام والأنقاض .. فتكت مدافع الألمان بقواته الرئيسية ..توليتم أنتم بالرماية بالسلاح الإجهاز على من تبقى .. هل تعلمون كم وصلت خسائرهم في هذه الليلة بإعترافهم؟ ستة آلاف وأربعمائة قتيل وجريح .

كبر العسكر وهللوا .

سأل الغطريف :

-نحن كما خسرنا يا سيدي الضابط ؟

-خسائرنا ألفين وخمسمائة قتيل وجريح .

سمعوا زخات الرصاص .. وهدير المدافع خلفهم .

شخر الدوش :

-هل صارت الحرب وراءنا ؟

أجابه الضابط :

-لا تخش شيئا يا ابراهيم .. إن قواتنا تطهر رابية أبو العزم (1) ..تسلل إليها الإنجليز أمس وحاصرناهم فيها .

انصرفوا إلى تنظيف أسلحتهم وملابسهم ..على أن يجتمع الطابور بعد صلاة العصر .. الدوش واصل الدندنة .. وهو منهمك في تنظيف بارودته .

ما بين حمص وحما .. ضاع الولف مني

بالله يا أهل الهوى حدا يوصلني

صدر البنية هودج ..والهودج جاملني

ويا سايقين الهودج إمشوا شويه شويه

هب هواء ساخن لفح وجوههم .. قال خليل الداهوك وهو يتشمم الهواء المحمل برائحة العشب الجاف :

1. أبو العزم : حيث يقع معبد شمشون الجبار وفقا لبعض الروايات .

-هادا هو الحصيدة .

نفخ الدوش ماسورة بندقيتة ودس فيها خرقة من القماش .. دفعها بالشيش .. وصار يحركها داخل الماسورة .

-معلوم .. إحنا في نيسان .. اللي فيه بتقع الحصيده وين ما كان .. أهلنا بسموها جمعة المنافع .

تحسر الغطريف على أيام الفلحة :

- أخ على جرزة قمح إفريك .. أشويها في النار وأسفها.

علق الداهوك ساخرا :

- همك بطنك .. يا أبو القاورمة .

إحتد الغطريف :

- وإنت إيش همك .. يابو راس إكبير .. العلم إللي جبتو في كر[1] .. وإللا المركبة اللي وسقتها بن .. وإلا تجارة اهلك إللي من مصر للشام !!

- أهلي إسيادك وأسياد إللي خلفوك .

اشتبكنا بالأيدي .. تغالبنا .. ثم تدحرجا على الأرض وكل منهما يقسم أن سيقتل صاحبه .. حال بينهما باقي العسكر .. تأملهم الدوش بأسمالهم البالية ..وسحنهم المقلوبة ..كان يدرك أنهم أعطوا كل ما عندهم ولم يبقى لديهم شئ يعطونه.. ستة أعوام وهم تحت السلاح .. لا يعرفون عن أخبار أهلهم وذويهم إلا النزر اليسير .. هؤلاء الإنجليز مثل الشبح كلما قتلته ..عاد إليك ثانية . لقد قتلوهم مرة واثنتين وثلاثا ومائة مرة ..ولكنهم ظلوا دائما هناك ..خلف أكمة ما .. وراء تل ما .. عند منعطف ما .. أي رعب هذا ؟

1. الكر : الشبكة التي يحمل فيها القش

تذكر وجوه رفاقه الذين أكلتهم الحرب .. وقال في نفسه : فيما يتصارع هؤلاء الحمقى.. نحن ندين بحياتنا بالصدفة المجردة .. وقد لا تشرق علينا شمس الغد.

كف العسكر عن العراك ..جلسوا مهزولين.. شاحبي الوجوه .. مطأطئي الرؤوس .. حدث الدوش نفسه : في أول الحرب كانوا يهزجون ويغنون ويتمازحون .. صدورهم واسعة .. وقلوبهم دافئة بالحب والتسامح .. ما الذي جرى لهم .. الآن يتشاجرون باستمرار .. يشتبكون بسبب وبدون سبب .

الحرب اللعينة .. عرقتهم كما يعرق الوحش فريسته .. تركتهم هياكل منخوبة..جلدن على عظم .. حتى ان تغيرت .. لما أعد إبراهيم الدوش الذي يقول للأرض اشتدي ما عليكي قدي .. لماذا أحس أنني محطم ومهزوم تماما؟ هب الهواء ساخنا ثقيلا يحمل رائحة عفونة لا يخطئها الأنف .. ضاق صدره .. وانقبض قلبه:

- هبت ريحة الموت يا اولاد .

لم يكد يكمل كلامه حتى انفتحت عليهم أبواب جهنم .. وقعت الخطوط الأمامية للأتراك في مرمى المدفعية الثقيلة للإنجليز .. انهال سيل القذائف .. انخسفت الأرض بالدوش وفصيلته .

حين سكتت المدافع كان الدم يسيل من كل مكان في جسده .. نظر إلى ساقه .. كانت بطة ساقه محفورة حتى العظم ..شق ثوبه وربط ساقه فوق الركبة ليمنع تدفق الدم نظر حوليه فوجد أشلاء متناثرة .. استند إلى بندقيته ومضى يجر قدمه في اتجاه غزة .. قضى الليل كله وهو يحجل كالغراب .

أخيرا وصل الحارة مع طلوع الشمس .. راعه السكون الذي يخيم عليها .. وعهده بها تطن كخلية النحل .

خاض في عشب الزقاق إلى وسطه .. منحيا ببندقيته نباتات العليق .. والعوسج والقريص التي استفحلت في الطريق .

راعه أن يجد أبواب البيوت اقتلعت .. وأن يجد السقوف قد هدمت ونزعت أخشابها .. لابد أن الأتراك استخدموها وقودا لقطاراتهم .. تذكر الأخبار التي وصلته عما حل بوادي الزيت .. تنهد بمرارة .

هذه الحرب أكلت الأخضر واليابس .. ولم نجن من ورائها شيئا .. شخر الدوش : صار فينا مثل مصيفة الغور .. لا صيفة صيفت .. ولا عرضها باقي عليها .

وصل إلى بيت الحلواني .. فوجده قائما كما عهده .. يبدو أن الأتراك لم يجدوا فيه من الحطب ما يغريهم بهدمه .. تذكر المثل :إبليس ما بخرب بيت حالو .

خطرت له سيرة بنات الحلواني بعد وفاة أبيهم .. أي خراب أفظع من ذلك.. الله يستر على الولايا.

كان قد أحب لطيفة كبرى بنات الحلواني في مطلع شبابه .. استنفذت الهدايا نصيبه من زيت الوادي عاما كاملا .. إلى أن رآها ذات ليلة في أحضان مشعل ابن عمته .

البيت الثاني الذي ظل قائما في الحارة هو بيت خميس أبو زر .. العائلة كلها أخذتها الكوليرا .. لا بد أن الإشارة التي وضعتها البلدية على باب البيت والتي ما زالت ماثلة رغم تقادم العهد .. أخافت الأتراك فحادو عنه إلى البيوت الأخرى .

دخل بيت الوهايبة .. وقف في الساحة وأجال بصره في مرابع الأمس .. كان السقف يتدلى بعد أن نزعوا أخشابه .. وإلى جانب الجدار رأى الربابة مفخوتة .. مقطوعة الوتر .. تذكر أهله الذين كانوا يتحلقون حوله وقد تمايلت أعطافهم . غبطة ورضى ..مع كل حزة من حزات الربابة .. غلبته الدموع فبكى .. وهاجت قريحته فأنشد :

يا حادي العيس خذني عابواديهم

عسى إللي حكم بالفراق يحكم وألاقيهم

كانوا سلاطين في عالي كراسيهم

صاروا دراويش.. والله ما قطع فيهم

لم يتحمل رؤية الخراب الذي حل ببيت الوهابية فخرج إلى الشارع ..
وقف ثانيه أمام باب خميس أبو زر .. الله يرحمك يا محمود.. فرحتك بسعدة ما تمت إجاها السروان زي القضا المستعجل .. لم تطاوعه نفسه على المغامرة بالدخول.. مع أن البيت هو الوحيد في الحارة الذي ما زال يحتفظ بأبوابه ونوافذه وسقفه.. حدث نفسه:

- هادي كوليرا مش لعبة .

سمع ضجة في الزقاق الإنجليز وراك وراك .. عمر البارودة .. وخود ساتر. نسي ألم ساقه .. ونسي مخاوفه من الكوليرا التي عششت في الداخل حشي بندقيته .. واختبأ خلف الباب يراقب الطريق .

إجتازه الموكب .. كان قطيعا من الكلاب الضالة .. يطارد حمارا جريحا بغيه الإجهاز عليه .. تنفس الدوش الصعداء .. اشتد الألم في ساقه .. استند على بندقيته وتقافز بقدميه السليمة حتى دخل الغرفة الموبوءة في دار أبو زر.. أغلق على نفسه الباب .. واستلقي .. لا يعرف كم نام .. ولكن ألم ساقه لم يهدأ وكذلك ألم الجوع الذي ظل يلوي معدته حتى وهو نائم .. قام يتوكأ على الجدران .. إرتطم بكيس فاع عليه النمل.. دس يده حتى قعر الكيس .. أخرج حنفة من التمر حشي بها فمه دون أن يعبأ بما عليها من النمل.. ولاكها وابتلعها بنواها.. ثم حشى فمه بحفنة ثانية سكتت آلام ومعدته ولكن آلام ساقه أعجزته .
في الفناء وجد الزير موضوعا تحت المزراب .. وبه بقايا من الماء والمطر.. سحب كوز ماء وشرب .. سمع طبلا يدق .. وصوت مناد ..

أرهف السمع .. كان الإنجليز يعلنون سقوط المدينة ويمنحون لأهلها الأمان .. تنهد الدوش :

– زالت دولة بني عثمان .. وصرنا في ذمة الإنجليز .. الله يرحم الميتين ..والطيبين .

أحس برأسه يحتقن.. والدنيا تدور به.. ترك الدوش بندقيته وخرج يستند على الجدران .. استسلم لقارع الطبل.

حين أفاق كان ممددا على السرير أبيض وساقه مربوطة إلى قائم قال له الحكيم الإنجليزي بعربية مكسرة:

– لو تأخرت يوما واحدا لخسرت ساقك .. ولو تأخرت يومين لخسرت حياتك.. من حسن حظك أننا أدركنا الغر غرينا وهي في بدايتها .. سوف يستغرق إخراج الشظايا من جسدك وقتا طويلا

(28)

تسلم المنشاوي رسالة من عكا وقعت على قلبه وقع الصاعقة.. فقد ابتعث عبد البهاء ساعده الأيمن مبرزا أحمد سهراب إلى غزة في مهمة رسمية .. ذات شقين.. الأول أن يحضر الميرزا أحمد بنفسه خطبة الجمعة التي سيعلن فيها الشيخ وحيد بشرى الظهور الأقدس في عكا ويدعو الناس علانية إلى الدخول في البهائية .. والشق الثاني .. أن يتعرف على الأتباع الجدد الذين يزعم المنشاوي أنه أدخلهم في حظيرة الدعوة .. وأن يجبي منهم الأموال.

قال المنشاوي للشيخ وحيد شقيق زوجته مشعل اللذين حضروا ليكونا في استقبال الميرزا عند وصوله لبيت المنشاوي:

– لقد انكشف أمرنا .. طوال حكم الأتراك كنا نزعم (للجمال المبارك) أننا ننشر الدعوة.. وأن الناس يقبلون علينا سرا خوفا من بطش الأتراك كنا نتذرع بالتقنية التي

أجازها والده بهاء الله حتى لا نرسل إليه أسماء هؤلاء الأتباع المزعومين .. أما قد انقشع حكم الأتراك.. واستتب الأمر لحلفائه الانجليز.. فما هو عذرنا وما هي حجتنا ؟

أنت يا شيخ وحيد منذ سقطت غزة في يد الإنجليز وأنت تعدهم بتلك الخطبة ولا تنجز وعدك حتى نفذ صبرهم.. فأرسلوا إليك رقيبا حسيبا .. على أية حال .. ما زلت تستطيع تخليص نفسك بكلمات معدودة تغمغم بها في خطبة الجمعة.. أما أنا فمصيبتي أدهي وأعظم..إنهم لا يريدون فقط التعرف بالأتباع المزعومين .. ولكنهم يريدون جباية أموالهم .

سأل الشيخ وحيد وهو شارد الذهن :

- أية أموال؟

-أموال الزكاة .. تسعة عشر مثقالا من الذهب عن كل مائه مثقال..

وميراث من لا ذريه له.. وثلث ميراث من له ذرية .. وجميع أوقاف التابع.. والديات كلها.. وغرامة الزنى.

تدخل مشعل ليظهر تضلعه في الدين الجديد:

- غرامة الزنى خير من الرجم حتى الموت .. الجمال المبارك أرسل رحمة للعالمين.

تابع المنشاوي دون اكتراث بنفاق مشعل :

-الزاني والزانية يؤدي كل منهما تسعة مثاقيل من الذهب لعبد البهاء .. فإن عادا إلى فعلتهما ضوعف عليهما الجزاء .

–الدين عند الله الإسلام .. من ابتغى غير الإسلام دينا فلن يقبل منه.. لن أتورط في ذكر أي شئ يتعلق بالبهائية في خطبه الجمعة لا أجرؤ على فعل ذلك .. الأعداء والحساد كثيرون .. وهم بانتظار زلة واحدة.. ليطبقوا على .

– إذا فاعد للميرزا أحمد جميع الأموال التي وقعت باستلامها.

– الأموال ليست بحوزتي كما تعلم .. الأموال بعضها ذهب هدايا لجمال باشا ورجال الدولة .. والباقي بددته كاملة .

–إذا يطلبونك للقضاء ويستصدرون أمرا .. بسجنك يا مفتي الديار

قاطعه مشعل :

– الانجليز ما عندهمش دقن إمشطه.. يا الدفع يا الحبس.. أحسن لك تخطب الجمعة وتطخ هالفشكة يا صابت .. يا خابت .

– والفضيحة .. والعلماء الذين سيؤلبون على العامة .. والله لو تفوهت بكلمة واحده مما تريدون أن أقوله .. لقطعني الناس إربا قبل أن أنزل عن المنبر.. وحتى لو أنني بقيت حيا بعد ذلك .. أين أخبئ وجهي من عيون الناس .

قال المنشاوي:

– والسجن.. أليس فضيحة وخزيا.. تسجن وتبقي الديون على قلبك وقلب أولادك..

لو قلتها على المنبر ستكون فقط وتسقط عنك الديون.. فلا يطالبونك بشئ

عض الشيخ وحيد أصبعه:

– يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا..

قال شيخه المنشاوي حين كان طالب علم في الأزهر:

–ياوحيد.. إن أعظم انتصار يحققه الشيطان علينا.. هو إقناعنا بعدم وجوده.. بأن تصرفنا تلقائية وبريئة جدا .. هكذا نبدأ انحدارنا بخطي واثقة مطمئنة .. حتى نصل إلى الحضيض عندها نسمع قهقهة الشيطان .. ونكشف أنه كان معنا يدا بيد.. وخطوة بخطوة من أول الطريق.

دق الباب ..هرول الشيخ المنشاوي يفتح لضيفه.. دخل الميرزا أحمد سهراب ومعه ثلاثة رجال أشداء ..عرف الشيخ وحيد أنهم حراسه.. إنتحى الحراس جانبا دون أن يسلموا.

عانق المنشاوي ضيفه.. وتنحى ليترك المجال للشيخ وحيد ومشعل .. عانقه الشيخ وحيد.. أما مشعل فلم يكتف بالعناق الحار.. بل أنه قبل يد سهراب مرتين .. قال الشيخ في سره :

- لقد راعنا ما بيته السفاح جمال باشا للحضرة والنوراء وحمدنا الله على نجاته وسلامته .

اعتدل سهراب في مجلسه وانتفخت أوداجه من الفخر وهو يتخذ سمت العارفين :

- عندما ظهرت بوادر الخطر .. أرسل اللورد كرازون تقريرا على جناح

السرعة إلى وزارة الخارجية البريطانية يلفها إلى أهمية حفظ حياه حضرة عبد البهاء .. ويوم وصول التقرير أوعز اللورد بلفور وزير الخارجية إلى الجنرال اللنبي بوضع كل إمكانياته لحفظ وصيانة الحضرة النوراء ورفاقه .. فأبرق الجنرال بعد فتح حيفا إلى لندن يطلب إعلان البشري بسلامته على العالم ونبه الحاكم العسكري لحيفا أن يتخذ التدابير اللازمة لحفظ الذات المباركة..

تعلمون أن جمال باشا كان قد استصدر أمرا من الآستانة بصلب حضرة عبد البهاء وعائلته في جبل الكرمل.

قال الشيخ وحيد في سره :

-جمال باشا لم يشنق إلا الشرفاء فقط أما المارقون والخونة وأعداء المله فقد كانوا أصدقاءه المقربين .

حضرت القهوة .. هرع مشعل يحمل الصينية ويدور بها على القوم .. ارتشفوا قهوتهم .. قال الميرزا للشيخ وحيد :

–موعدنا الجمعة القادمة يا شيخ وحيد .. جئت لأسمع بنفسي خطبتك العصماء مشهودا في التاريخ غزة التي أذن الله لها بالظهور سكت الشيخ وحيد رانت برهة من الصمت قبل ان يواصل مشعل تزلفه للميرزا :

معلوم الشيخ وحيد راح يعجبك وان وجماعتي اللي آمنوا على أيدي راح نكون أول المصلين عشان ناخد المبايعة من الناس

إستأذن الشيخ في الانصراف.. فأذنوا له مضي يتعثر في جبته حين وصل الدار استقبلته كاملة واجمة:

خير ؟!

- زارني عمي الشيخ علي وهددني بالقتل

- انخرطت بالبكاء هزها وحيد وهو يسالها عن جلية مادار بينهما :

كان عصبيا علي غير عادته وسألني إذا كان صحيحا ما يشاع عنك رأيت عينيه تقدحان شررا فخفت ونعقد لساني قال لي(ان كنتما بهائيين حل للمسلمين قتلكما وان كنت باقية على الإسلام وجب التفريق بينك وبينه)

- ماذا قلت له؟؟

- غلبني البكاء سمع الأذان راح الجامع يؤم الناس

تنهد الشيح وحيد وضاقت الدنيا في

وجهه خلع عمامته وجبته وعلقها علي الحائط تمدد في فراشه وهو يرتعد كأنما أصابته البرداء

اتركيني وحدي وأغلقي الباب وراءك

خرجت وأغلقت الباب وقفت بالخارج تتسمع كان ينوح ابن المفر لقد حق علينا قوله تعالي ((إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون.. وجعلنا من بين أيديهم سدا.. ومن خلفهم سدا فأغشيناهم.. فهم لا يبصرون)) ثم اغرق في البكاء ضربت كاملة بيدها علي صدرها:

يا أختي الزلمة صار زي النواحة الشاطرة

مشعل عاد إلى بيته وهو يحلم بذهب الميرزا .. دخل متسللا كعادته يتسقط أخبار والديه.. سمع أمه تقول لوالده :

-الدوش لما زرتو في المستشفي خطب مني عزيزة

مد التوفيق أصبعية في طاقه انفه وانتزع خصلة من الشعر فركها والقي بها إلى جانب الجدار عرفت أم التوفيق انه اتخذ قراره وقضي الأمر :

- مالو... أقل باب بيرد الكلاب
- قال مشعل في سره
- صدرت الموافقة ممهورة بالخاتم.

(29)

أعاد اليوزباشي خليل نصب خيمته التي اقتلعتها العاصفة و لم يكد يدلف تحتها حتى اقتحم المكان الملازم سعد الدين .. وهو يرغي ويزيد :

- أقطع دراعي إذا ما كان لورنس أعطانا خارطة مغشوشة عشان يتخلص منا .. في الأول تخلص من عزيز المصري .. وبعدو مولود مخلص واليوم إجا دورنا.

تذكر خليل تنحية مولود مخلص.. كان مولود قد جمع الضباط العرب في خيمته قبل تنحيه بليلة واحدة .. وفاجأهم الأمر.

-عزيز المصري كان على حق حين استقال وقفل عائدا إلى مصر .. هؤلاء الإنجليز لا يوثق بهم .. انظروا ما الذي يفعله لورنس .. أنه لا يكتفي بنسف خط السكة الحديدية.. ولكنه ينسف المحطات والجسور وخزانات المياه .. يقتلع ويدمر

كل ما في طريقه .. يريد أن يحل الخراب بكل شئ .. حتى لا تقف على أقدامنا مرة ثانية كأمة متحضرة.. متحدة.. ثم هذا الإسراف في القتل والتمثيل بالجثث .. وإعدام الأسري بالمئات .. لكي يعمق الهوة بيننا وبين الأتراك.. حتى لا يستطيع ردمها أحد .. وبين جيراننا حتى لا يجرؤ احد بعد ذلك على ذكر هذه الأخوة الموءودة ..

ناهيك بمحاولة بعثها أو الإستناد إليها .. يبدو أن ما سمعناه عن اتفاقيه سايكس بيكو .. عن وعد بلفور صحيح

تدخل البيكباشي جودت الأيوبي :

– لورنس قالها لي صراحة : لا نريد جيشا نظاميا.. نريد متطوعين من البدو بأسلحة خفيفة .. ويجتمعون إذا دعت الحاجة .. ويتفرقون إلى ديارهم بعد إنتهاء عملهم

قاطعة اللواء جعفر العسكري:

–ولكننا استطعنا بناء الجيش رغم أنفهم .. عزيز نفسه أنشا ثلاثة أفواج المشاة وثلاث بطاريات وفوج وهجانة وبلوك مهندسين قبل أن يغادر.. أي في برهة ستة أشهر .. مولود و نوري السعيد أتما ما بدأه عزيز .

قال البيكباشي على رضا:

– في معارك وادي موسي حقق جيشنا انتصارات أذهلت الأتراك.. رغم أنهم يفوقوننا أضعافا مضاعفة في العدد والتسليح .

زمجر مولود غاضبا:

– يبدو أن انتصاراتنا في وادي موسي والكويره وعين وحيد .. أزعجت الإنجليز أكثر مما أزعجت الأتراك.. لذلك فقد أمرنا لورنس بالرجوع على أعقابنا لاحتلال فصوعه جنوب معان .. وأغلب الظن أنه سيدفعنا بعد ذلك للتقهقر مرة بعد أخري حتى نصل إلى المدينة المنورة بحجة احتلال الحاميات التركية التي تركناها محاصرة وراءنا هل وراءنا .. هل تدرون لماذا ؟!

سكت الضابط وتابع القائد:

لكي يكون لهم وحدهم شرف دخول دمشق والتصرف بكل بلاد الشام بعد ذلك قال الأيوبي :

–منذ احتل الإنجليز غزة والقدس وهم يتنمردون لنا .. يمنعون عنا السلاح ويماطلون في إرسال الذخائر.. واليوم إلى الوراء.. إلى فصوعه.

تساءل جعفر العسكري بصير نافذ :

– ما الذي تستطيع عمله الآن؟

ضرب مولود مخلص على الطاولة بقبضة يده :

–نتمرد على الإنجليز .. نقدم للأمير فيصل استقالة جماعية أو يعطينا الضوء الأخضر .. لكي نزحف بقواتنا ولا نقف إلا في دمشق الشام .

اعترض جعفر العسكري:

–استقالة ؟! لم أسمع في التاريخ الحروب بمثل ذلك .. سيفرون الاستقالة لفيصل على أنها خيانه.

–اسمع يا جعفر .. الإنجليز حريصون على مصالحهم .. ويجب أن يكون نحن أيضا حريصين على مصالحنا .. إذا دخلنا دمشق قبلهم .. نشك حكومتنا ونعلن استقلال الولايات العربيه الأسيوية في دولة واحدة .. عندها نضع الإنجليز والفرنسيين في أمر واقع .

قال جعفر العسكري :

– لا أوافق على الإستقالة الجماعية .. أوافق على كتابه عريضة للأمير فيصل لشرح فيها وجهة نظرنا ونلتمس منه العون .

نهض مولود:

- افعلوا ما ترونه مناسبا.. أما أنا فقد حزمت أمري.. سأبلغ لورنس أنني لن أنفذ أوامره ولن أتوجه بالجيش إلى فصوعه .. الإتجاه الوحيد الذي سأقود فيه قواتي هو الشمال .. سأطلب منه أن يكف عن قتل الأسرى والتمثيل بهم لأن ذلك يتنافي مع ديننا وخلقنا.. لن أسمح له بتحويل الجيش العربي إلى عصابة من القتلة والمأجورين.

غادر مولود المكان وهو يرعد:

–إذا أراد فصوعه أو أي هدف وراءنا دونه نوري الشعلان ومتطوعي البادية .

***

صدر الأمر بتنحية مولود مخلص .. واحلال جعفر العسكري محله .. وبإنفاذ الأوامر السابقة بالإرتداد إلى فصوعه.. وها هو اللواء الهاشمي كله يعاني بعد تنحيه قائد من الضياع والتشتت في الصحراء.

قال سعد الدين ينتزع خليل من هواجسه:

–أتذكر حين هربنا من قاعدة الأتراك في معان باتجاه جيش الشريف ظل البدو يتناوبون علينا .. بدوي يجردنا من ثيابنا وبدوي بعده يكسونا ثيابنا غيرها.. حتى وصلنا مضارب فيصل في ينبع البحر هناك ألحقونا بالجيش العربي.. سلمونا هذه البدلة التي فرحنا بها كثيرا

صدقني يا خليل طوال الوقت لم أحس بأنني عار كما أحس الآن.. لنخلع هذه البدلة التي لم تعد عربية ولنبدأ الهرب من جديد .

–اثبت يا سعد الدين وكفاك حمقا.. الثورة لم تعد ثيابا نخلعها.. ولا رتبة نحملها.. الثورة العربية أصبحا جلدنا الذي لا نستطيع أن نعيش بدونه.. وليس أمامنا إلا أن نحقق حلم أمتنا في الحرية والاستقلال أو نموت دون ذلك.

جاءهم رسول من القائد .. للإجتماع به في خيمته.. هرعوا إلى هناك

قال جعفر العسكري :

- أبشركم أيها الإخوان .. بأن سمو الأمير فيصل استدعى اللواء مولد مخلص.. واستمع إليه مليا.. ووافقه على كل آرائه.. وأعاده إلى منصبه وطلب منه أن يستعد للهجوم على معان .. التي هي مفتاح الطريق إلى دمشق .

عائق الضباط بعضهم بعضا فرحين .. وهم يهتفون لفيصل بالنصر .

حين غادروا الخيمة كانت العاصفة قد هدأت وظهرت الشمس في سماء مازالت ملبدة بالغيوم .. سأل سعد الدين خليل :

– والآن بعد عوده حبيبك مولود .. ما الذي ستطلبه لنا؟

بعد فتح معان سأطلب اجازة ولو لعشرة أيام أزور فيها غزة .. فقد علمت بأن أهل قد عادوا إليها بعد اغترابهم عامين كاملين في نابلس .

قال سعد الدين في سره :

–قلة العقل بتعمل أكثر من هيك .. بدو يرجع لراضية.. فارس على ظهر الفرس بطل على صدره الأوسمة والناشين .

– إيش رأيك يا سعد في هالشورة؟

أحكم سعد وضع الفيصلية على رأسه .. وابتسم لصاحبه ابتسامه عريضة :

– هادي شورة .. زي اللبن في الحورة .

(30)

في بئر سالم قرب الرملة نصبت خيمة القيادة.. جلس اللنبي يتفحص التقارير التي وردته من الجبهة .. يمتص غليونه بنهم.. ويتأمل الخرائط الموضوعة أمامه.. قد تجهم وجهه وظهرت دوائر زرقاء حول عينيه.

دخل مساعده الجنرال ديدز وعدد من ضباطه.. أدوا التحية .. رد عليهم اللنبي وأشار لهم بالجلوس

-هذا الصباح رائع يا سيدي .. النسمات دافئة محمله بالأريج.. الربيع فيها هذا السهل من أجمل ما رأيت في حياتي .. وهذه بئر سالم ترتدي حلة من الأزهار الملونة .. لماذا لا تترك عنك هذه الخرائط لساعة تتنزه فيها حول المخيم .

قال اللنبي وكأنه لم يسمع شيئا من مساعده:

- خسرنا أمس خمسمائة وعشرين قتيلا .. ومائة من الجرحى.

علق ديدز :

-هؤلاء الأتراك الكلاب.

رمقه اللنبي بنظره فاترة:

ليس الأتراك فقط ولكن أهل البلاد يا ديدز .. فلاحو سوريا الأشداء يحاربوننا حربا باسلة .. يتقاضون منا ثمنا فادحا لكل شبر من الأرض ..

قال الميجور آرمسبي:

–لم يحفلوا بثورة الشريف ؟! ولم يفقدوا ولاءهم للسلطان ؟! لعل افتضاح معاهدة سايكس بيكو .. ووعد بلفور

قاطعه اللنبي:

–اللعنة على لويد جورج وحكومته .. نطلب المزيد من السلاح والعتاد والجند .. فيعطوننا المزيد من المؤامرات والدسائس.. لا يبذلون جهدا لإخفاء .

ما يحيكونه عن عيون العرب.. على الأقل حتى ينحسم الصراع على الأرض وتنتهي هذه الحرب .. سبعة آلاف قتيل في العلم على تخوم غزة .. وماذا كسبنا.. دخلنا المدينة .. كان اللعين فوق كرس قد أفرعها من كل معالم الحياة .. لا ناس ولا مؤن ولاغلال ولا مواشي.. تركها لنا أرضاً محروقة.. مدينة أشباح.. تركض في أزقتها قطعان الكلاب المسعورة التي أدمنت أكل الجثث .. دخلنا القدس ولم يتوقف نزف الدم .. أقام الأتراك خطوط دفاع جديدة.. أصلب من كل خطوطهم الأولى .. لولا فيصل وحصاره لثلاثين ألفاً من جنود الأتراك في الحجاز لتبدل ميدان الحرب ولا استطاعوا دحرنا إلى غرب القناة مرة ثانية .. ما هو الموقف على جبهة الحجاز الآن ؟

أجابه ديدز هو يشير بعصا إلى خارطة بين يدي اللنبي .. قد التف باقي الضباط يتابعون شرحه:

– قسم فيصل قواته إلى ثلاث وحدات .. خربت الوحدة الشمالية الخط الحديدي بين معان وعمان .. وعملت الوحدة الجنوبية من جنوب معان حتى المدورة وخربت الخط تخريبا يستحيل إصلاحه.. أما وحدة القلب فقد احتلت خطوط الدفاع الخارجية حول معان وخربت الخط الذي يقع مباشرة إلى جنوب معان وشمالها.. عن الخط وأسرت 450 أسيرا وغنمت كميات كبيرة من الذخائر.. وبهذا أصبح إخلاء المدينة مستحيلا ..[1]

قال آرمسبي :

-إن فيصلا باحتلاله المنطقة إلى الشرق من معان أصبح يحمي ميمنة جيشنا في فلسطين ويحمي خطا طويلا من خطوط مواصلاتنا وبنظره عابرة يا سيدي .

1.المدينه : يقصد بها المدينة المنورة بالحجاز حيث قبر الرسول محمد عليه الصلاة والسلام.

نـري أن القوات التركيـة يشـغلها العـرب ويعطونـها عـن حربنـا هـي أكثـر مـن نصـف الجيش التركـي..

هتف اللنبي وقد حزم أمره.

- أطلب فيصل للإجتماع بي على وجه السرعة .. أريده أن يقطع مواصلات الأتراك هنا .. بين دمشق والجنوب قبل أن نشن هجومنا القادم .

ثم أشار اللنبي إلى درعا بعصاه

- درعا يا ديدز هي النقطة الحيوية في مواصلات الأتراك وهي المحطة الرئيسية للسكك الحديدية وفيها يتفرغ الخط إلى حيفا .. فإذا عزلت درعا استحال على الأتراك يسرعوا بإرسال الإمدادات القطار إلى فلسطين ..وشلت الأعمال في مؤخرة قواتهم واقفلت دونهم أقصر الطرق للتراجع مما يحمل القائد الألماني على سحب بعض قواته الإحتياطية من الناصرة لكي يحمي درعا.. وبذلك تضعف المقاومة أمام جيشنا.

سكت اللنبي فخيم الصمت على الحاضرين ثم تابع :

- سأقوم غدا بجولة على الجبهة لتفقد الجرحى .. ووضع الأكاليل على قبور القتلى .. هذه ليست حربا أيها السادة .. أنا أدير مسخا قذرا .. هل بقي لديكم ما تعرضونه علي ؟

قال ديدز:

- سيدي لقد وصل أمس وفد يهودي من الحركة الصهيونية برئاسة الدكتور حاييم وايزمن ومع الوفد كتاب توصية من لويد جورج ومعهم مرافق من وزارة المستعمرات وقد أنزلناهم في المخيم .

صر اللنبي على أسنانه ومسح شاربه الكث بعصبية ثم أشار لباقي الضباط بالإنصراف .. حينما أصبحا وحيدين قال لديدز:

-ما الذي يفعله هؤلاء المرابون في مخيمي ؟

- الجثث تستهدي الجوارح يا سيدي

-هؤلاء ليسوا من الجوارح .. ماعرفنا لهم شوكة .. ولا رأيناهم في حرب أو ضرب .. هؤلاء من قراد الخيل .

- ماذا أقول لهم يا سيدي ؟

- قل لهم أنني سافرت بعيدا.. توغلت في خطوط الأعداء.. قل لهم أنني اختفيت.. مت.. قل لهم أي شئ .

- سيدي نحن لسنا بحاجة إلى مزيد من المشكلات مع الوزارة .. واليهود جزء من الإستراتيجية التي رسمتها حكومة بريطانيا للمنطقة.

-ديدز من منا يستخدم الآخر في هذه اللعبة .. نتذابح مع الأتراك لسنوات .. ثم نقدم الأرض التي أحرزناها بدمائنا .. على طبق من ذهب .. لحفنة من المهووسين الدينيين .. الذين يخرجون لنا من شقوق التاريخ..

-كلانا يستخدم الآخر يا سيدي .. نحن بحاجة إلى دولة يهودية في فلسطين تفصل المشرق العربي عن مصر وبلاد المغرب نهائيا تحول دون توحيد الأمة العربية وقيام دوله العرب .. التي شكلت الهاجس والكابوس لأوروبا سنين طويلة.. وهم بحاجة إلينا.. فلا أحد سوانا يستطيع إعادة الحياة إلى مومياء هلك في الدهر .. وذابت عظامه كما يذوب الرميم النخر .

فكر اللنبي مليا.. ثم تنهد :

-حسنا أدخلهم علي .

دخل الوفد .. كان أعضاؤه يحملون حقائب صغيرة من التي يحملها رجال الأعمال.. وضعوها جانبا.. تأملهم اللنبي ببزتهم المدنية.. ولحاهم وقلانسهم.. ثم انصرف يتأمل وايزمن في أناقته المفرطة.. قال اللنبي في نفسه: لا بد أن روتسيلد قد أنفق عليه كثيرا .. ثم أنه لا يبدو كنبي بمقدار ما يبدو كممثل في فرقة مسرح من الدرجة الثالثة ألقي الدكتور حاييم وايزمن نبذة عن تاريخ اليهود وأهداف الحركه الصهيونية ووعد بلفور.. حافظ اللنبي على هدوئه حتى انتهي وايزمن ثم نظر إليه مليا وقال:

- نحن العسكر لا نفهم في السياسة .. وعد بلفور الذي أشرت إليه لا يبدو لي أكثر من قصاصة ورق بها عبارات مبهمة بناقض بعضها بعضا .. وحسب معلوماتي فإن نسبة اليهود إلى العرب في فلسطين لا تتعدي الخمسة بالمائة وهي نسبة ستجعل من الصعب .. إن لم يكن من المستحيل تنفيذ وعد كهذا .

- أرض فلسطين يا جنرال هي أرض الميعاد .

- أرض فلسطين ما زالت بيد الأتراك .. وإذا كنت في عجلة من أمرك فاذهب وخذها منهم .. اسمحوا لي أيها السادة .

وضع قبعته على رأسه ووقف .. وقفوا جميعا .. أدى له ديدز التحية.. حياه بعجلة وهو يتمتم :

-اعتني بضيوفنا يا ديدز

خرج مسرعا إلى العربة المعدة له .. جلس خلف السائق..

- أسرع أيها السائق نفسه باستغراب وهو يتأمل خمائل الزهور حوله ويتنفس أريجها العطر:

-هل قال الرائحة.. لعله قال شيئا آخر.

(31)

زار مشعل إبن خاله في المستشفى الإنجليزي حيث يرقد .. كان الدوش يحكي للمرضى الذين تجمعوا حول سريره واحدة من شطحاته.. عنقه مشعل وجلس يصغي معهم.

قال أحد الجرحى للدوش :

– زعمت أن أشعر الناس هو ابن سيفا .. وبشهادة ابن صديق شاعر مصر ايش جمع الشامي على المغربي .

تنحنح الدوش .. وهز رأسه هزه العارف بما يقول .. وحين تأكد من حسن اصغائهم تابع روايته:

–ناجي الصواف تاجر الصوف الغزاوي باع الصوف في مصر .. اشتري حوايجو من بولاق وعزم شعراء مصر وجابهم معاه على غزة وعلى رأسهم أشعر واحد فيهم .. ابن صديق .. وصلت المركب غزة .. أولم لهم الصواف وليمة ..وعزم معهم شاعرنا ابن سيفا رجل إنجباري لابس توب عري على راسو لبده إمقيره .. والشعرا المصريين ثيابهم بتهفهف والطرابيش على روسهم مكوية وآخر أبهة القي الشعراء مصر قصايدهم وابن سيفا ساكت قال إبن صديق :

–بدنا قصيدة ياإبن سيفا توصف فيها هالقعدة وتذكر فيها إسمي .. بدو يعجز إبن سيفا المكان حوله .. وما فيه من بالات الصوف وأكياس الدهنة.. والرمان لتين وجمل الصواف الذي يجتر في مرقده عند طرف الحكورة .. وأنشد:

أول ما نبدي لخبط الصوف بالدهنه

جمل المحامل برخ واحتاج له دهنه

يا ماكل التين تحت الرمان اندهنا

وان صح لك ضيق يا ابن صديق اندهنا

-194-

قال له ابن صديق : إنت أشعر واحد فينا..احتد شعراء مصر خلعوا طرابيشهم وخبطوها في الأرض وتصايحوا:

-ده ظلم .

غضب ابن صديق وأنشد يقول أفلح من يصلي على طه الرسول تصايح الجرحى:

-عليه الصلاة وأزكي السلام.. عليه الصلاة وأزكي السلام

انشد الدوش :

يا قايلين الكلام.. هدوا ما تعلوشي

شعر ابن سيفا أصيل وغيرو بلوشي

إحنا نقول إبش وانتم لم تردوشي

لبده عاراس ابن سيفا بألف طربوشي

تابع الدوش وقد انبهر المرضي :

-الفصاحة.. و الكرم..و المراجل.. للغزازوة وبس

أكد المرضي وجهه نظر الدوش

-معلوم.. أكيد..يسلم تمك يا أبو عبد الله

انقض المرضى كل إلي سريره.. اقترب منه مشعل وأخبره بقصه فراره من العسكريه واختبائه في بستان البهجة بعكا..بتوصية من المنشاوي وكيف صار على دين البهائية وملتهم.. ثم أخذ يرغب الدوش في الدخول معه كيف صار على ممنيا النفس بصيد سمين الدوش أحمق..ولم يكن يحمل مع أبويا ليحة.. وقد وعدني المنشاوي بجنيه ذهبي عن كل رأس أدخله في البهائية و رأس الدوش على المقاس .

نظر الدوش إلى ساقه التي مازالت في لفائف الحبس ..كيف يتجرأ هذا الضلالي السافل على أن يعرض علي أمراً كهذا .. صحيح أنا طلبت إيد

عزيزة.. ولكنني لن أضحي بديني من أجلها ولو كانت السفيرة بذاتها (1) بس الخوف من الانجليز.

التفت إلي مشعل وسأله بلهفه :

-الانجليز.. إديروا على دين صاحبك البهاء.. والا لسه نصارى.

تلعثم مشعل.. أدرك بخبثه أن الدوش ليس وارد معاداة الانجليز الآن هم يعالجون ساقه.. ولكنه اضطر أن يصدقه الإجابة قدر المستطاع:

-الانجليز لسه نصارى.. ولكنهم أصدقاء للجمال المبارك وكلمتو عندهم ما يتصير تنتين.

استرد الدوش رباطة جاشه : لو كنت في صحتي ..ما خلليتو بعد للعشرة بس ملحوقة.. البركة في عمي الحاج أحمد.

-إللي ما إلو كبير.. يشتريلو كبير.. عليك بالحاج أحمد.. هوه اكبيرنا ومقدم عشيرنا ..وإذا الحاج أحمد دخل البهائية كل الوهابية بتدخل معاه.

فكر مشعل: بستاهل اكتر من هيك.. ملاقتش إلا الدوش إللي دماغو زي الصوان ..هادي بدها واحد دماغو طري ياخد ويعطي.. الحاج أحمد دماغو مش بس طري.. دماغو بخض .. وهوه عز الطلب.

قبل مشعل وجنتي الدوش.. وانطلق إلي الحاره يحصي غنائمه.. الوهابية فوق العشرين نفر يعني المسأله فيها عشرين ليرة دهب.. أنا باضمن الدنيا.. وهما يضمنوا

الآخرة.. إذا المسأله فيها خطيه لا سمح الله الخطية في رقبة الشيخ وحيد المنشاوي..
هما إللي تعلم في الأزهر.

الحاج أحمد العائد حديثا من نابلس.. احترف صناعة السلال .. احضر أعواد البوص من بركة قمر وقضي أيام الأسبوع في تصنيعها..

السفيرة عزيزة: من شخصيات تغريبه بني هلال اشتهرت بالجمال والفتنه.

-196-

دخل عليه مشعل وهو منهمك في تحزيم السسلال ليحملها إلى سوق الجمعة.

- إلك وإلا للديب يا خالي.

-يخسى الديب(1)

حكى مشعل لخاله الحاج أحمد الحكاية كلها.. ودعاه إلى عز الدنيا والآخرة.. ولم ينس إن يختم حديثه بالآية الكريمة ((إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا))

ظل الحاج احمد يحملق في مشعل دون إن ينبس ببنت شفه.. أخيرا ارتاب مشعل من سكوت خاله وسأله:

-إيش قلت يا خال؟

صر الحاج أحمد على أسنانه:

-بعت دينك للفرماسون(2).. قتلك جهاد في سبيل الله.

تناول الشنشرة من الأرض وانقض على مشعل.. بطحه كما يبطح الشاه عند ذبحها ووضع الشنشرة على رقبته صرخ مشعل:

- مش أنا يا خالي.. مش أنا.. الشيخ وحيد ..الشيخ وحيد بهائي..
واليوم في خطبه الجمعة في الجامع الكبير بدو يعلنها.

-جبت الغايبة يا ابن أختي.. جبت الغايبة.

رقع الحاج أحمد الشنشرة عن رقبة مشعل ونهض في إتجاه الباب..

تحسس مشعل الجرح الذي أحدثته الشنشرة في رقبته وصرخ وهو يري الدماء تلطخ كفه:

-إذا فيك مراجل.. أقتل الشيخ وحيد.

1. صيغه عامية تعني من جانب السائل طلب الغوث, ومن جانب المسؤول الإستعداد للإجابة
2. الفري ماسون: الحركة الماسونيه

لوح الحاج أحمد بالشنشرة في الفضاء وهو يردد لنفسه: (هبت ريح الجنة.. هبت ريح الجنة)

وصل دار الشيخ وحيد.. كان الباب مفتوحا.. دخل دون استئذان رأته كاملة فانخلع قلبها .. قالت بهلع:

-خير يا خالي؟

أزاحها عن طريقه وواصل التقدم باتجاه غرفة الشيخ.. ركل الباب بقدمه ركله أطاحت به.

-اطلع يا وحيد الكلب.. يا بايع دينك.

لم يجبه احد

دخل الغرفة يبحث بعينيه عن الشيخ وحيد.. ليقطع رقبته ..ولكنه سرعان ما أسقط ذراعه وترك الشنشرة تهوي إلى الأرض.

كان الشيخ وحيد معلقا في سقف من رقبته في سقف الغرفة وقد تدلي لسانه إلى صدره.

-نفدت من إيدي يا كلب.. شنقت حالك.. تفو عليك.. قاتل نفسو لا رحم تناول الشنشرة عن الأرض ومضي وهو يستمطر اللعنات على روح الشيخ وحيد.

(32)

قال الجنرال اللنبي لمساعده ديدز وهو يتفحص الخرائط أمامه :

-هل أعددت كل شئ ؟

-نعم سيدي فيصل وجنرالاته ينتظرون الإذن بالدخول.

-لورنس معهم؟

-لو لا أن فيصل أصر على احضاره لما دعوته.

- أعرف وجهة نظرك في لورنس.. قرأت التقارير التي تؤكد أن عودة أبو تايه شيخ الحويطات هو صاحب فكرة الهجوم على العقبة من الخلف وأنه وضع الخطة وزينها لفيصل.. ورفض قبول أي مال أو رجال لدعم خطته..مؤكدا لفيصل أنه يفعل ذلك كعربي بسيط يهمه تحرير أمته من نير الأتراك.. وان لورنس التحق بالحملة بعد أن توالت انتصارات عودة وصار فتحه العقبة أمرا محتماً

قال ديدز :

-لم يكتف هذه الأفاق بأن ينتحل لنفسه الفضل في كل شي.. بل إنه وصف عودة أبو تايه بأنه مرتزق جشع بشوق رجاله إلى الموت ليقبض من الحلفاء ثمن أرواحهم.. إلى متي سنحمل خداعه وتعاليه واحتقاره للآخرين.

-سنتحمل كل ذلك.. طالما أنه يصب في مصلحة الحلفاء .

إرتسمت على وجه ديدز علامات التعجب .

تابع الجنرال :

- ليس من مصلحة الحلفاء إبراز دور العرب وتضحياتهم في هذه الحرب ..حتى لا تكون في نهاية الحرب مدينين لهم بديون باهظة.. يتقاضون ثمنا عالياً.. أما لورنس فإنني أجزم بأنه مريض.. واطلب منك الكف عن مضايقته قال ديدز محتجا :

-المريض مكانه المستشفي وليس ساحة الحرب .

قال الجنرال كأنه يحدث نفسه:

- في هذه الحرب الملعونة .. أنا بحاجة إلى الجميع .. مرضى وأصحاء تصفح ورقه بأسماء الوفد المرافق لفيصل .. لورنس .. نوري السعيد .. جعفر العسكري .. علي رضا .. إلتفت إلى ديدز وقال بحزم :

-أدخل فيصل وحده.. فهو يبدو لينا ومتساهلا معنا إذا من الرقباء والشهود

بعد أن نتفق معه على النقاط المهمة تدخل الآخرين لدراسة التنفيذ والاتفاق على التفاصيل.

دخل فيصل معه لورنس.

صافحهم اللنبي:

-أهلا بك يا سمو الأمير في خيمتي المتواضعة.. هذا شرف عظيم لي.. وأنت يا لورنس.. أراك أدمنت ارتداء الثياب العربية.

تفحص ثوبه وعباءته وكوفيته وعقاله.. وخنجره

ثم التفت يتفحص ثياب الأمير:

-إنها تختلف عن ثياب صاحب السمو.. خاصة الياقة .. و.. هل هذه الثياب تدل على انتمائك لقبيلة معينة ؟

قال لورنس

-هذه الثياب أهداها لي نوري الشعلان وهي ما يرتديه شيوخ الرولا.

-حسنا ..حسنا.. هل الرولا جاهزة للإنقضاض على درعا .

نظر لورنس إلى فيصل كأنما يفسح له دورا في المحادثة.. التقط فيصل الخيط:

-الرولا جاهزة ..وكذلك عرب السراحين والسردية وفلاحو حوران..وهم يتجمعون في الأزرق استعداد للمعركة الفاصلة.

أشار اللنبي إلى خارطة أمامه:

بالإضافة إلى حشودكم في معركة درعا.. أريد تخصيص جزء من قواتكم لتعمل معنا استكشاف مواقع العدو أمامنا.. وأريدكم أن تزودونا بأدلاء موثوقين لمرافقة المصفحات على الطريق الصالحة للعبور.. وتهيئة أماكن مناسبة للكمائن

قال فيصل:

- سوف نبذل غاية جهدنا.. كما فعلنا دائما.

- اكسلانس.. هل ترغبون في طرح أية أسئلة؟

تشجع فيصل وأشار إلى خارطة أمامه:

-بعد تحرير درعا.. ينفتح الطريق أمام الجيش العربي إلى دمشق.. وسوف لا استطيع لجمهم.. إن دمشق عاصمة أجدادهم وموئل أمجادهم وهي بالنسبة لهم الحلم الذي انتظروا تحقيقه طويلا.. حكومة بريطانيا العظمى وعدت والدي بدولة عربية مستقلة.. ومراسلات مكماهون.

قاطعه اللنبي بجزم

-يا صاحب السمو.. أنا رجل عسكري لا أفهم في السياسة ولا أستطيع أن أعدك بشيء.. أما عن دخول دمشق.. فسوف ندخلها معا.. جنبا إلى جنب.. لاقبلنا.. ولا بعدنا.

التفت إلى لورنس :

-ما الذي تستطيع حشده لمعركة درعا؟

-بالإضافة إلى رجال القبائل ..هناك 500 جندي نظامي من الفرسان مسنودون بمدفعية فرنسية الصنع (عيار 65 طلق سريع) وعشرين متراليوز وسيارتين مصفحتين للاقتحام .

- سنزودك بفرقة هجانة.. وطيارتين .. ستبدأ الحملة يوم 19 أيلول وعلى القوات العربية أن تتقدم جيوش الحلفاء بمسافة لا تزيد عن أربعة أيام لا تقل عن يومين

إذا وصلتم دمشق انتظرونا على أبوابها حتى ندخلها سويا .. سوف يسلمك ديدز الخطة مكتوبة بالتفصيل يا لورنس والآن ادخلوا باقي الضباط .

دخل الضباط العرب الخيمة.. وأدوا التحية للقائد العام.

قام اللنبي إلى مكتبه وتناول بعض الأوسمة

-هذه الأوسمة أيها السادة ستوزع عليكم اعترافا ببسالتكم في ساحة معان

نادي لورنس:

-اللواء جعفر العسكري.. تقدم جعفر.

علق اللنبي على صدره الوسام.

-وسام الإستحقاق برتبة قوماندور

ثم نودي على الباقين ليتقلدوا أوسمتهم.. أصغرهم وأدناهم رتبة كان خليل:

-اليوزباشي خليل محمد وهبة.

تقدم بخطي ثابتة وأدى التحية.

ثبت اللنبي الوسام على صدره .. حدث خليل نفسه: ما أعجب تصاريف الزمن .. يصبح العدو حليفاً يعلق على صدورنا النياشين ويصبح الأخ عدوا يفصل بيننا وبينه نهر من الدم

دعاهم اللنبي إلى حفلة تكريم تقام على شرفهم ..في نهاية الحفلة همس مولود مخلص في أذن الأمير فيصل:

-هل تطرقتم إلى موضوع دمشق يا صاحب السمو ؟

-فعلنا ذلك

-هل وعدكم اللنبي بشئ؟

رد فيصل ساهما:

-اللنبي اهتم بما نلبس أكثر من اهتمامه بما نقول.

قبل أن يخلد اللنبي إلى النوم دعا لورنس إلى خيمته:

سحب الجنرال اللنبي زجاجة من درج مكتبه وسكب قدحين.. تناول واحدا منهما وأشار إلى لورنس ليتناول الآخر.. حين أتى لورنس على قدحه.. فاجأه اللنبي:

– سمعت إن خطابي عند دخولنا القدس لم يعجبك؟

– كان خطابك رائعا يا سيدي.. ما عدا الفقرة الأخيرة .

–تعني قولي.. اليوم انتهت آخر حرب صليبية ؟

–بالضبط

هز الجنرال رأسه مستوضحا.. فتابع لورنس:

–علمنا التاريخ يا سيدي .. أن الحروب الصليبية يبدأ بدخولنا القدس ولا تنتهي إلا بخروجنا منها .

وخزه الجنرال بنظرة قاسية ..اقشعر لها بدنه.

أعاد الجنرال ملء القدحين وتابع مؤنبا :

– لشدما تبدو محبطا ومخيبا للآمال يا لورنس .. إشرب .

تناول لورنس قدحه.. ثقلت أجفا الجنرال ولكنه استمر في المحاورة :

–هل ينطبق ذلك على اليهود يا كولونيل ؟

–اليهود دخلوها غزاة فاتحين قبل ثلاثة آلاف سنة كما دخلناها اليوم .. ثم خرجوا منها كما سنخرج

– لكن صديقك وايزمان يدعي أنهم ....

قاطعه لورنس :

–حكموها ستين سنة .. ومائة .. أي حق تعطيهم المائة في بلد عمرها خمسة آلاف سنه من التاريخ المكتوب؟

– ألست واحدا من كبار المتحمسين لعودة اليهود إلى فلسطين ؟

–أنا متحمس لكل ما فيه مصلحة بريطانيا يا سيدي.. قد أغير ثيابي.. ولساني.. وعادتي .. ولكنني لا أغير ولائي.. قد يظن بعضهم أنني أخدم

سيدين أحيانا .. ولكن ثق يا سيدي أنني دائما وأبدا أمحض الولاء كله لوطني. خلع الجنرال طاقيته العسكرية عن رأسه .. وضعها على الطاولة أمامه.. كان النعاس قد بدأ يعقد أجفانه .. تأمل لورنس شعره الأشيب .. ووجهه الذي بدأ مرهقا مغضنا .. خيل إليه أن الجنرال طعن في السن بغتة.. قال في سره : ذئب عجوز متفرد .. ولكنه ما زال شرسا .. سريع الإنقضاض .

نهض الجنرال واتجه إلى سرير في ركن المكتب:

–ليلة طيبة يا كولونيل.

فهم لورنس الإشارة .. أدى التحية للجنرال وانصرف .

(33)

اشتعلت راضية الفرن ..راحت تلقمه بالوقود حتى احمرت طينته تماما.. أزاحت أمها لقان العجين.. استكانت أمها لرغبتها مرغمة.. فهي مدللة لا تكاد تتقن عملا من أعمال البيت.

– سأخبز أنا هذه المرة:

رصت راضية أول وجبة من الخبز داخل الفرن.. انتفخت الأرغفة واستدارت وتوردت.. حركت الأرغفة بالمصماع لتقرب أحدها من النار وتبعد الآخر.. أخيرا أفرغت الأرغفة الناضجة في الفرش الخشبي.. قالت لأمها متحدية:

–خبزي والا خبزك يا أم التوفيق ؟

ضحكت أم التوفيق وهي ترى طفلتها المدللة.. آخر العنقود.. تتبوع و تخبز.

-والله ما ناقصك إلا العدل يا بنت بطني.

تمتمت راضية

-هوا أنا صغيرة؟!

انشغلت راضيه برص الوجبة الثانية.

أبو التوفيق وأهل الحارة كلهم كانوا مشغولين بتركيب حجر جديد للبد.. بعد أن أتم أبو التوفيق ترميم جدرانه وسقفه.. ورغم أن اقتلاع زيتون وادي الزيت قد حرم أبو التوفيق من مورد ثابت طوال.. الموسم.. إلا أنه لم يستسلم .. وعمد إلى أن يضمن زيتون الحارات المحيطة بحارته ويعمل لحسابه الخاص.. بدل أن يعمل لقاء حصة كما كان يفعل قبل سفر برلك .

أنهى الرجال عملهم بهمة أثلجت صدر أبو التوفيق.. الذي أخذ يكيل المديح لهم:

-مردود إلكم بالأفراح يا شباب .

قال محمد هاشم:

-الأفراح إمطوله .. وموسم الزيت عالبواب.. خلينا نلوت أصابيعنا يا بو التوفيق.

- مرحبا بكم .. تستاهلوا.. كل واحد منكم إلو عندي إبريق زيت .

تصايحوا فرحين بالوعد .. وانصرفوا مهللين.

أغلق أبو التوفيق باب البد بالمزلاج .. وهم بالمغادرة .. حين سمع صوت أخيه الشيخ علي قادما من الجامع وهو يلهث :

- مكتوب.. مكتوب من خليل وهبة .

تناول أبو التوفيق المكتوب بلهفة ..وسحب أخاه إلى داخل البيت وهو لا يكاد يصدق نفسه.. لوح لهم بالمكتوب.. ثم هتف لزوجته:

- مكتوب من إبن أخوكي خليل .

خفق قلب راضية بشدة .. تركت الخبز داخل الفرن .. وهرعت تقف أمام والدها محدقة في يده مشدوهة .. تناولت أمها المصماع وسارعت بإخراج الأرغفة قبل أن تحترق وهي تهتف :

- يا مثبت العقل والدين.

اتخذ الشيخ علي مجلسه على الحصير في باحة الدار وقرأ لهم الرسالة :

إلى عمتي الغالية أم التوفيق وزوجها عز النسايب وفخر الأقران والأقارب أبو التوفيق وأبناءها عبد الحميد ومشعل ومحمد وبناتها المصونات المكنونات .

شخر أبو التوفيق :

-و بعدين.. هات المفيد يا شيخ علي

تابع الشيخ علي دون إن يعبأ باعتراض أبو التوفيق:

سلام سليم أرق من النسيم وأحلى من العافية على قلب السقيم.. بعد السؤال عن عزيز خاطر جنابكم نفيدكم بأننا والحمد لله بخير.. ولا ينقصنا الا مشاهدة أنواركم البهية.. وقد أتم الله فتح درعا على يدنا واقتحمناها عنوة في

معية سمو الأمير فيصل وأركان حربه .. طلبت إجازة شهرين وسأكون في طرفكم العامر قريبا جدا إن شاء الله والمقصود أن أخطب إبنه عمتي راضية وأتشرف بمصاهرتكم وتجديد النسب إليكم .

لم تنتظر راضيه إتمام قراءة الرسالة.. طارت بالخبز إلى زوجة مشعل.. وزوجة عبد الحميد .. وبيوت الوهايبة.. والدنيا لا تكاد تتسع لها من الفرحه.

دق الغتيت بعكازه باب أبو التوفيق .. ولم ينتظر الرد.. دفع الباب ودخل حين توسط باحة الدار شم رائحة الخبز.. فتحلب لعابه.

تلمس بعكازه موضع خطاه حتى وصل إلى جانب الجدار وجلس متربعا.. قرر أن يخصمهم بإحدى مدائحه النبوية كي تحل البركة عليهم وعلى أهل الحارة .. أطلق جعيرته بالغناء :

طه الزين نصر مولاه

هوه والصديق وياه

هو والصديق والإثنين

محمد يا كحيل العين

العنكبوت خيم عالزين

خيم على الغار وكساه

خرجت أم التوفيق على الصوت :

-إيش حدفك علينا؟!

-إجاكو مكتوب من خليل أفندي .. جوز مرتي .. بدي الحلوان .

شهقت أم التوفيق : صدق من سماك غتيت

ناولته رغيفا ساخنا .. اشتمه بشراهة:

- هادا موكول الأكابر .. خبز قمح صافي مش مخلوط لا درة ولا شعير .

شق الرغيف بأصابعه .. وأعاده لأم التوفيق

-حطي لي في معلقة زيت.. وحصوتين ملح.. وإذا في قرينين فلفل صدقة عن أولادك.

غابت أم توفيق قليلا داخل البيت وعادت له بما طلبه .

قضم قضمة كبيرة .. لاكها متلذذا.. وتابع.

- إندري يا بنت وهبة إذا أجا خليل أفندي بالسلامة تكسيني توب .. وتكسي مرتي فستان.

تأملت أم التوفيق ثيابه الرثة وهيأته المزرية.. أحست بالرثاء لزينب وغمغمت: يا ريتها بارت ألفين سنة ولا وقعت هالوقعة.

اقتحم البيت طفل جميل وسيم في الخامسة من عمره ..جري إلى أم التوفيق واحتضنها..

كيف حالك يابن زينب

انحنت عليه تقبله وهي تهمس لنفسها

-بطلع من الشوك ورد

جاءها صوت الغتيت يلح في المسأله:

- إيش قلتي يا أم التوفيق

–قلت إن شاالله .. الله يقدم إللي فيه الخير

وضع يده على كتف الصبي

- حسن كبر وصار يسحبني.. بعد مدحت ما قطع فيه.. مدحت هج على يافا لحق بنات الحلواني .

غادر الغتيت الدار وهو يهمهم:

–طيب يا بنات ابليس

كانت راضية عائدة من بيوت الوهايبة.. سمعت الغتيت وهو يشكو غياب مدحت.

تذكرت راضية كيف عادت شريفه إلى الحارة بعد غيبتها الطويلة.. كانت تسن أسنانها لتقضم الثروة التي هبطت على سعدة.. وتنسج الشراك لفضح سعدة والإيقاع بها إذا رفضت مقاسمتها .. عرضت خطتها على راضية فهي الشاهد الوحيد على أن محمود إبنها وليس ابن سعدة .. قالت لها راضية :

–لمي حالك يا شريفة .. ما رح تطلعي إلا بالفضيحة.. سعدة خلفت من السروان توم صبيان شحتة وعطية.. ولما نسوانو كادولها وسحرولها طلقهم ورمى بناتهم في الشارع ..وكتب كل أملاكو لسعدة بيع شرا قبل ما يموت غمغمت شريفة :

– مساكين انشردوا بالشوارع .. وسعدة لهفت المال كلو .

–سعده أصيلة وعملت بأصلها.. عينت راتب لكل وحدة من نسوانو وبناتو يكفيها وزيادة.

جربت شريفه استدرار عطف راضية لتكسبها إلى جانبها:

– وإبني مهجه قلبي.. بلاش اشوفو؟

–في هادي معك حق.. شوفيه بس إوعك يعرف إنك إمو.

– ليش يا راضية .

–بكرا لما يكبر ويعايروه فيكي.. بدبحك زي الغنمة ..

–طيب يا راضية اشوفو من بعيد لبعيد.

اصطحبتها راضية إلى سعدة التي أحسنت وفادتهما.. تناولا طعام الغداء على مائدة سعدة ومنحت سعدة شريفة كيسا من النقود.

– إبنك في الكتاب .. إذا بدك تشوفيه استني لما يرجع.

قالت شريفه وهي تخفي المال في صدرها :

–أنا مليش أولاد.. أنا بنت بنوت.

تبادلت راضية وسعدة النظرات وابتسمتا بمرارة .

شريفه باعت بيتها في الحارة.. ومروحتش على يافا وإيدها فارغة.. أخذت معها مدحت وهبة.

* * *

قال مشعل لزوجته وهي منهمكه في خياطة ملابس الزبائن الذين باتوا يقصدونها بعد أن ذاع صيت ماكينتها في البلد:

-خليل وقع والا رما الهوى.

أفلتت يد ماكينة الخياطة.. وحملقت فيه غير مدركة قصده.. أخرج علبة دخانه لف سيجارة أشعلها بعود ثقاب.. جيد منها نفسين قبل أن يشرح لها خطته

-الشيخ وحيد شنق حالو.. والمنشاوي هج على عكا.. وتركوني في بوز المدفع.. الناس بتغامزوا على وين ما رحت .. البهائي .. البهائي.. وأبويا بقول للناس : يا ريتو مات في الحرب زي أخوه .. ما عاد ليش قعود.. هادي بلد أهلها غز(1) ومناقيرهم حديد ..لازم أهج على يافا

-وإيش تعمل في يافا؟

-افتح دكانه إسمانة هناك وأترزق.. الرزقة هناك سهلة .. واليهود معاهم مصاري وبصرفوا من غير وعي.

أوجست زوجته خيفة.. فقد اشتد في طلب المال من أبيه.. حتى اجبره .. على الإستنجاد بالدوش لحمايته.. الدوش أسبغ حمايته على عمته وزوجها وعينه على عزيزة مشعل وقف في

طريق الزواج .. طلب من الدوش خمس ليرات استفكاك.. ولما يئس من الدوش تحول عليها ..هي زوجته وأم بناته الثلاثة .. أتى على مصاغها كله ودفعها .. إلى الإستدانة من أهلها مرات عديدة .. وها هو الآن ينتظر القروش القليلة التي تحصل عليها من أجرة الخياطة.. لكي ينفقها على حاجاته.

1. غز : مغول.. همج .

أخيرا عقبت مجاهدة ألا تحمل لهجتها أي تشهير بسلوكه :

-من وين يا حسرة .. الدكانة بدها رسمال .. وإحنا عالحديدة.

قال معنفاً:

-إحنا على كنز.. خليل دب صدور من دهب الشريف.

-وإيش خص الخليل في الدكانة ؟

-الوهايبة ما دخلوش دين البها .. يدفعوا الجزية.. خليل يدفع عنهم كلهم.

فرك عقب السيجارة في ارض الغرفة الطينية حتى أطفأه تماما .. ثم قذف به من الباب.

شهقت زوجته ودقت صدرها:

-ما عادش في قلبك شفقه ولا رحمة .. مش خايف من الدوش.

-الدوش ديتو معروفة .. قال المتل إلهي الكلب بعظمة .. الدوش ياخد عزيزة حلال زلال .. ومن غير استفكاك.

-وخالك الحج أحمد؟

-الحج أحمد مهدود حيلو في الكرم .. بزرع لوز..وتوت.. وجميز..وبقلم التين و العنب و بستنى يطلع من الحشيش إدشيش.

قال مولود مخلص لمرافقه خليل وهبه وهو يتصفح التقارير التي قدمها له:

-كيف حال ذراعك ؟

حرك خليل أصابعه خارج الضمادة الملفوفة حول ذراعه :

-بخير يا سيدي .. الطبيب وعدني بفك الضمادة غدا.

-جراح النصر تتعافى بسرعة يا خليل .. ونسأل الله أن يقينا جراح الهزيمة..أنا فخور بك .. ولولا بسالتك في معركة درعا....

-عفوك يا سيدي .. أنا لم فعل شيئا غير واجبي .

-طلبت ترقيتك إلى رتبة مقدم .. أما زلت تريد تلك الإجازة للسفر إلى غزة ؟

-نعم يا سيدي.. إن ابنة عمتي .

- أعرف القصة .. كبرت وتخشى أن يخطبها سواك.. اسمع يا خليل .. لن أفرط فيك إلا بعد فتح دمشق .. ندخل دمشق .. ثم أعطيك الوقت الذي تريده .. شهر .. سنة .. عشر سنوات.

انشغل بقراءة أول التقارير ..ثم علق :

-هكذا إذن .. ستة آلاف جندي هم كل ما تبقى من الجيش الهمايوني الرابع .. الذي أراد جمال باشا أن يستبيح به أمة العرب .. لقد صدقت نبوءة الزهاوي.

جمال لأنت القبح سموك ضده

وثوبك إذ أزملت فيه ذليل

تريد لمجد العرب فيما أتيته

زوالا ومجد العرب ليس يزول

وراءك لا تقرب رواسي يعرب

فقرت رواسيها عليك وبيل

صمه برهة .. انشغل فيها بقراءة التقرير الثاني .. ثم سأل خليل:

-أما زالوا يواصلون إنسحابهم ؟

-طوقتنا دمشق وتركنا الطريق إلى رياق مفتوحا حتى الأتراك بسلام كما أمرتنا .. مدافعنا تطلق قذائفها بين الحين والآخر على جانبي الطريق لكي نسرع إنسحابهم.

-عظيم.. لا نريد مزيدا من الدم.

-ولكن لورنس.

-ماذا عن لورنس هذه المرة؟

-أطلق قوات البادية في أثر الأتراك المنسحبين.

-تبا له.. ألا يكفيه قتله للأسرى والجرحى في المدورة ومعان ودرعا.. ألا تكفي المخازي التي يتناقلها عنه الضباط والجنود.. أين عودة أبو تايه .. لقد وعدني عودة.

-الحويطات حين رأوا الرولا ينطلقون لسلب الأتراك .. عز عليهم أن ينفرد منافسوهم بالغنائم.. ولم يستطع عودة لجمهم.

-والأمير؟

-الأمير في خيمته ينتظر وصول اللنبي.

-اللعنة على لورنس واللنبي وسائر الحلفاء .. على الأمير أن يوقف هذه المجزرة .. قبل أن تصبح وصمة عار في جبيننا .

انطلق مولود فزعا إلى خيمة الأمير.

تهاوى خليل على مقعد أمام مكتب قائده .. ومسح دمعه تحدرت من عينيه.

زاره سعد الدين قبل يوم واحد من مصرعه .. للإطمئنان على ذراعه ..و حين انصرف الزوار عن سريره .. وخلا المستشفى تماما همس في أذنه:

-اليوم صادفني لورنس على تخوم المخيم .. وأمرني بأن أقف وقفة انتباه ....

تحسس بطرف سبابته ذراعي وعروق رقبتي .. وأطراف شاربي .. ثم طلب أن أوافيه في خيمته الليلة .

شخر خليل :

-إللي ما بعرف الصقر بشويه.

رد سعد الدين ضاحكا :

- إنت نويت السفر لغزة .. والزوادة عليه.

تذكر خليل راس اليوزباشي عزت المقطوعة من أسفل الجمجمة .. وعروق رقبته تنزف دما.. وقال لسعد الدين:

-بلاها يا صاحبي .. بلاها .. سلامتك عندي بالدنيا .

-ورحمة محمود وهبة إللي استشهد على ركبتي .. هالمسألة ما فيها فصال .

كانت تلك أخر مرة يرى فيها سعد الدين .. قتله لورنس في تلك الليلة المشؤومة .. مدعيا أنه لص جاء لسرقته.

لم يستطع مولود الإنفراد بالأمير .. ظلت وفود الأهالي تزحم خيمته حتى ساعات الصبح .. من كل المدن السورية .. جاءوا لمبايعة فيصل .. وليس من دمشق

وحدها .. كانوا يعانقون فيه الأمل والحلم الذي انتظروا تحقيقه طويلا .. التحرر من نير الأتراك .. واستعادة أمجاد أسلافهم .

في بداية الثورة كانت الوفود قليلة ... وكانوا يفاوضون فيصل طويلا ويساومونه على كبيرة وصغيرة ..الآن صارت الوفود لا تكاد تنقطع عن خيمته .. ولم يعد هناك مساومة

الرجال الذين قدموا لمبايعته..يقولون كلمة واحدة أو كلمتين ثم تتحبس أصواتهم وتفيض عيونهم بالدمع .. فينهارون على ركبته يقبلونها .. أو يلثمون يمناه ويضعونها على رؤوسهم وقلوبهم تبركا.

آلاف السنين تم اختصارها دافعة واحدة ولم يعد فيصل .. رجلا .. ولا أميرا .. ولا ملكا .. صار الهاشمي.. ابن نبيا .. محمد عليه الصلاة والسلام.

لم يستطع الإنفراد بالأمير إلا قبيل الصبح .. كان الأمير متعبا وبحاجة ماسة إلى الراحة .. وكان الوقت قد فات فالذين أراد إيقافهم .. بدأوا في العودة إلى المعسكر مثقلين بالغنائم .. بعد أن أتموا فعلتهم.

ترجل لورنس عن حصانه .. على باب خيمة الأمير .. ابتسم ابتسامه خبيثة .. ومد يده لمصافحة مولود .. كانت ملابسه البدوية البيضاء ملطخه بالدم.

حدق فيه مولود .. دون أن يعير يده الممدودة التفاتا.

رأى اللمعة نفسها في عينيه.. ورأى ارتجافة يديه.. كان جسده مفعما بنشوة القتل ..

قال مولود في نفسه: لابد أنه ولغ في الدم حتى ارتوى .. وهكذا كان يبدو دائما بعد قتله للأسرى .. وهكذا بدا عندما خرج من خيمته وعلى كيفه دماء سعد الدين.

إنت مو آدمي .. إنت غول.. غول فظيع .. هم لعنه وحلت علينا.

بهتت الإبتسامه على شفتي لورنس .. أطرق برأسه إلى الأرض .. ثم ما لبث أن انسل إلى خيمة الأمير كما تنسل الحية الرقطاء.

❋ ❋ ❋

إلى خيمته فوجد خليل جالسا على مقعده .. وقد سرقته إغفاءة..

هب خليل وأدى التحية .

– لا فائدة يا خليل.. سبق السيف العذل .. هل وصلت تقارير جديدة؟

–نعم يا سيدي.. وقد وضعتها أمامك .

قرأ مولود:

آخر قطار يقل ضباطا أتراكا غادر اليوم دمشق إلى محطة رياق .. وادي بردى ما زال يعج بفلول الأتراك المنسحبين .. مشاة.. خيولا.. وأمتعة مبعثرة دون نظام.

تناول تقرير آخر:

- اليوم 30 أيلول .. رفع سكان بيروت الراية العربية .. وحذت حذو بيروت كل مدن الساحل.

دمشق استكملت زينتها وتهيأت لإستقبال فيصل .. آلاف الأعلام العربية رفعت على المباني والشوارع .. رجال فيصل وأنصاره داخل المدينة.. استولي على زمام الأمور .. رفعوا العلم العربي على مباني الحكومة.. وأرسلوا إلى فيصل بأن المدينة جاهزة لاستقباله .

في الليل وعلى ضوء الحرائق التي أشعلها الأتراك والألمان في مخازن الإعاشة ومستودعات الذخائر.. تسلل رجال القبائل واتخذوا مواقعهم داخل المدينة في.. الصباح شق مولود مخلص بجيشه شوارع دمشق .. كان الناس يبكون ويعانقون بعضهم بعضا .. النساء تلوح من الشرفات للجيش المنتصر وتقذف له بالورود والرياحين.. بصعوبة بالغة.. تقدم خليل بفرسانه.. لإحتلال محطة سكة الحديد في دمشق.. وسط الآلاف الذين تدفقوا إلى الشوارع.. نساء ورجالا من كل الأعمار يدبكون ويهزجون.. كأنما أصابهم مس.

فكر خليل في نفسه :

-خمسة أعوام مضت على سفر برلك.. أي جحيم خوضوا فيه حتى قدر لهم أن يروا فجر هذا اليوم .. أعوام من الفقد والفجيعة والذل .. الذي لم تقتله المجاعة قتلته الكوليرا .. أو قضي نحبه على عيدان المشانق.. غير الآلاف الذين سيقوا وقودا للحرب في ميادين القتال البعيدة.

الآن انتهي ذلك كله.. وصار أثرا في آثار الماضي.. ها هم يرقصون ثملين بنعمة البقاء أحياء

واصل خليل تقدمه.. وهم يدبكون ويلوحون له بسيوفهم ويهزجون..

في حومة الميدانـي

بخيولها الضواري

تقحم لهيب النار

على اسمك يا بوغازي

ابن النبي العدناني

قايدهم أبو غازي

***

اصطفت الطبجية[1]

بسلاحها المجلية

ورایاتنا العربية

ترفرف على بو غازي

***

اصطفت الصواري

بخيولها الضواري

تقحم لهيب النار

على اسمك يا بوغازي

* * *

أخيرا وصل خليل المحطة .. أخذ جنوده المواقع لهم.. اختار خليل مكتب مدير المحطة مقرا له.. أزاح عن الجداران صور جمال باشا وفتح النافذة .. دخلت نسمات رقيقة.. تشمم خليل رائحة الأرض المزروعة .. تنفس عميقا .. هذه نسائم الغوطة.. تذكر غزة في مثل هذا الوقت من السنة .. لابد أن الغزازوة مشغولون الآن بحراثة أرضهم ورمي البذر للموسم الجديد.

تخيل الحراثين وهم يسوقون ثيرانهم ودوابهم في مسارب الحقول الضيقة والنساء بالثوب والغطاراس ..وعلى رؤوسهن صرر الخبز والزعتر والبصل وقدور السلق وعدس .. سماء تشرين المرقطة بالغنم ورفوف الكركز .

1. الطبجيه : المدافع.

-217-

تري هل وجد أبو التوفيق زيتونا ليعصره هذه السنة .. بعد أن اقتلع الأتراك زيتون الوادي.. وراضية هل تسلمت رسالته.

لم يخرجه من أفكاره إلا صوت مساعده الدمشقي الملازم نصيف الذي أدي التحية أمامه :

-سيدي دورية الإستكشاف جاهزة.

امتطي خليل حصانه الأسود ومضي يستكشف المكان..

لم يكد يتقدم به الحصان إلى الساحة حتى تحلق الناس حوله بطبولهم ومزاميرهم.. زغردت النساء للفارس.. استخف المزمار حصان خليل .. فأخذ يرقص به ويدور وسط الحلقة على إيقاع النغم.

كانت فرحة الناس الطاغية قد سرت إليه كالعدوى.. أحس بدبيب الفرح يتسلل إلى قلبه لأول مرة منذ غادر غزة وعلى وجهه أنفاس راضية.. وهي تدق صدره : العسكرية للرجال .. وإيش للنسوان يا خليل .

علت الأهازيج من حوله.

وسعوا المرجة

والمرجة لينا

وهدت اسطنبول

صهلة خيلنا

تدفقت البنات على الساحة وفي أيديهن أكواب الجلاب يطرفن بها على العسكر.

قبلت إحداهن ركبته.. وسرج جواده:

-محوط بالله يا هالفارس.. محوط بالله .. ناولته كوبا شربه دفعه واحدة .

- صحة يا خي.

دار الشراب في رأسه.. مدت يدها.. ناولها الكأس الفارغ ..حدق في وجهها وتخيل أنها تشبه راضية.. دار به الحصان دورة كاملة.. بحث عنها في المكان الذي تركها فيه.. لم يعثر لها على أثر.. اختفت.

وسعوا المرجـة

لقلعة حلـب

عربيه رايتنا....

وعسكرنا عرب

دار به حصان عدة دورات قبل أن يوقفه أحد الشباب .. ويناوله كأسا أخرى ..

شربها خليل .. وأعادها إليه .. تأمل وجهه .. وغمغم :

- كأنه وجه سعد الدين .

اجتاحه فرح طاغ زلزل كيانه .. أحس أنه يتوحد بهذه الجموع .

قال له الملازم نصيف :

- علنيا الإنطلاق الآن .

رد عليه خليل :

- اذهب أنت على رأس الدورية .

انصرف الملازم لإكمال المهمه .. أشهر خليل سيفه .. وأخذ يلوح به ويهزج معهم .

وسعوا المرجه

لصنعا اليمن

خفاقه راياتنا

عا طول الزمن

ظل الحصان يرقص ويدور به في الحلقة .. حتى صارت كل وجوه النساء وجه راضية .. وكل وجوه الرجال وجه سعد الدين

(35)

صهل حصان أسود ورد حوض الجماقية .. على ظهره فارس كأنه عقاب الجو.. أجفلت حمير السقايين .. وابتعدت عن الحوض لتفسح مكانا للعطاش الواردين .. ترجل الفارس .. أرخى عنان جواده .. تقدم الجواد إلى الحوض وغب حتى ارتوى .. مد الفارس يديه إلى المزراب .. ملأ كفه وقربها من فمه .. حرك شفتيه كأنه يريد أن يلثم الماء قبل شربه .. نهل من الماء .. ثم احتسى .. ثم شرب .. أحس بالماء يسري في جسده سريان الدم .. يبل عروقه ويطفئ غلته .. ستة أعوام طوال .. جرب خلالها ماء المطر وماء الينابيع .. وماء الأنهار .. وماء الآبار

العميقة .. والهرابات .. ولكن ذلك كله لم يشف غليله .. الماء في سبيل الجماقية وحده يستطيع ذلك .. هذا الماء الذي جرى في عروقه مع حليب أمه .

-الحمد لله .

مسح شفيته بظاهر كفه .. تأمل الساحة كأنما تركها أمس .. الأزقة المتفرعة عنها .. ذؤابات الشجر التي تطل من خلف جدران البيوت الطينية الواطئة .. الظلال العميقة التي تكتنف المكان .. شم رائحة الحطب يشتعل في فرن قريب .. حط سرب حمام على الأرض .. تنازع ديكان وملأا المكان صياحاً .. بينما انهمكت دجاجات سمينة في نكش الأرض الرخوة المبللة بماء الساقية .. هنا درج خطواته الأولى متعلقاً بثوب أمه .. وهنا لعب مع أترابه من أولاد الحارة .. وهنا خفق قلبه بالحب لأول مرة .. اغرورقت عيناه بالدمع .

تعريف عليه بعض السقايين .. هبوا لمعانقته والترحيب به .. طار الصبية إلى البلد يحملون البشرى بعودة خليل أفندي .. هرعت راضية إلى الباب دون أن تضع غطاء رأسها فأوقفتها أمها :

- يامجنونة حطي على راسك .

نزعت الأم غطاء رأسها وأسبلته على رأس إبنتها التي طاشت من الفرحة ولم تعد قادرة على كبحها .

حين انفلتت من قبضة أمها كانت قامة خليل الفارعة تسد الباب .. تسمرت في مكانها .. تقدم الفارس بملابسه العسكرية وقد لمعت على كتفه وصدره أوسمة الحرب .. سمعت دقات كعبه ترج دمها وترج الحارة كلها .

أخيراً وقف أمامها .. فتح ذراعيه على طولهما .. استقرت بين ذراعيه كفرخ يمام رجع إلي عشه .. ضغط عليها ذراعيه .. اختلطت أنفاسهما .. امتزجت روحها بروحه .. حلقا بعيداً مثل طائرين (1) .. لم يدريا كم مر عليهما .. أخيراً تنبها على صوت يقرع بشدة .. كان أهل الحاره يتعجلون دورهم في السلام على البطل .. فاتح دمشق الشام .

حين وصل الحاج أحمد عانقه خليل وقبل يده .. احتضنه الحاج أحمد والدموع في عينيه :

سلامات من وادي الغضا يا بن غانم .

سلامات من وادي الغضا يا دياب (2)

انسلت راضية إلى غرفتها .. فتحت أمها الباب ليتدفقوا جمعيا داخل البيت .

ظل هذا حال أهل الحارة ثلاثة أيام .. في اليوم الأول أولم له أبو التوفيق ذبيحة جمعت الناس كلهم .

قال له محمد هاشم صديق أبي التوفيق الذي آلت إليه المخترة :

- صحيح الإنجليز كانوا يبعتوا لفيصل صناديق الدهب ولورنس يكسرها بالبلطة .. ويغرف بإيديه ويوزع عليكو .

1. الإشاره إلى عناق محمود وسعدة الذي تابعته راضيه في طفولتها .
2. من تغريبة بني هلال

ضحك خليل :

- هادي دعايات الأتراك يا أبو هاشم .. عسكر الشريف حاربو عشان حرية العرب و إستقلالهم .. مش عشان دهب الإنجليز .

سأله أبو التوفيق بأسى :

- وراح منكو كتير ياخليل في الحرب .
- الأتراك ما سلموا شبر من الأرض قبل ما ندفع تمنو من دمنا .. إللي استشهد .. وإللي انفقد .. وإللي روح لأهلو على عكاكيز .

تدخل الدوش الذي ذاق ويلات الحرب :

- الحرب مش لعبة .. الحرب طاقة من طاقات جهنم .

قال المختار :

- بالك الإنجليز بصدقوا معانا .. و إلا بقسموا البلاد مع الفرنساوي وبنصير من إيد البايع لإيد الشاري ؟

تنهد خليل .. تذكر ما قاله له مولود مخلص و هو يودعه :

-الشريف إنخدع يا خليل .. الإنجليز خدعوه .. لبسونا طرف الخازوق .. والغليظ ورا .

جاء مشعل وعلى فمه إبتسامة خبيثة .. كان الجميع يعرفون أنه مازال على علاقة بالبهائية .. و أن الأخبار ترده من عكا .. فهناك أبالسة تسترق السمع لصرير الأقلام على اللوح المحفوظ .. وتنقل إليه الأخبار قبل أن ترتفع الأقلام وتجف الصحف .

قال مشعل بعد أن استقر في مجلسه إلى جانب خليل :

–الإنجليز عينوا يهودي إسمو هربرت صمويل مندوب سامي في القدس .. عشان ينفذ وعد بلفور .

كانت هذه أول مره يسمع فيها أهل الحارة عن بلفور ووعده ..

إستزادوه .. فزادهم من الشعر بيتاً.

– بلفور وزير إنجليزي .. وعد اليهود يعطيهم فلسطين .

زار الحاج أحمد :

- فشروا .. هادي طويلة على رقبة الإنجليز .. و رقبة اليهود .

أيده الشيخ علي إمام المسجد :

- فلسطين الله بارك حولها .. و أهلها أهل الرباط إلى يوم القيامة .. مقدروش عليها الصليبيين و لا الفرنسيين .. ولا راح يقدر عليها غيرهم .

اشتعل الحماس في رأس الدوش :

- نسيتوا لما إجا نابليون كيف اجودنا اتصدولو .. وطلع منها بالشنا وقلة التنا .

في اليوم الثاني أولم له المختار .. وفي اليوم الثالث ترأس عمه الحاج أحمد وليمة الوهايبة .

ما أن اتقضت الأيام الثلاثة .. حتى كان خليل على علم بشروط مشعل .. مائة ليرة استفكاك .. كشف راس لأخوها الكبير .. غير المهر والجهاز ..

وبدلا من أن يجادله أو يساومه .. أسر لراضية :

- أنا عارف أنو بطنو كبيرة وعينو فارغة .. و لكن دواه عندي .. سأزعم له أنني عدلت عن الزاوج بك .. وأنني أفكر في خطبة فتاة أخرى .. عندها سيتنازل و يقبل مني أي مبلغ أجود به .

- و إذا حتم رأيو يجوزني لواحد غيرك ؟

- إذا حتم رايو .. إطنبي على خالك الحاج أحمد .. فهو الوحيد الذي يخاف منه مشعل .. ويتأباه .

ترك خليل الحارة واشترى كروم مقاط على تخوم جباليا .. بنى بيتاً من الطين وبايكة .. اشترى حصيرا وفرشة ولحافا .. وذهب إلى الفواخير .. اشترى زيراً للماء وجرة وكرازا و إبريقا ولقانا وكشكولة ومصحانا وعشرة زبادي .. أشاع في الحارة أنه سيخطب إمرأة من حارة الزيتون .

هرع إليه مشعل .. صالحه على عشر ليرات استفكاك وخمسة دين شرعي بكمبيالة .. وغادر إلى يافا دون أن يحفل بحضور عرس أخته على خليل .. والذي كان عرساً لعزيزة أيضا على الدوش .

حمل الدوش عروسه إلى كروم زينو حيث تعيش هي و أولادها من إسماعيل .. وحمل خليل راضية إلى كروم مقاط .

الدوش قضي الليلة بالكاد مع عروسه .. وسط جلبة أولادها وصياحهم .. و بكاء طفلتها العليلة .. في الصباح حمل غرباله وانطلق إلى سوق الغلة .. حيث يعمل غرابلي بالكيلة لدى تجار الحبوب .. وقد أوغر ذلك صدر عزيزة على أختها راضية التي فازت بعريس من نوع آخر .. فلم يكن يضارع شغف خليل براضية إلا حبها المجنون له وتعلقها ببقائه إلى جوارها .. كانا يقضيان اليوم بطوله في الفراش .. و لا ينصرف أحدهما عن الآخر إلا إذا أضناهما الجوع .. عندها يقوم خليل ليعد طعاماً سريعاً يتناولانه في الفراش .. ليعودا إلى ما كانا فيه من المداعبة والعناق ..لم تعد راضية تطيق فراقه ولو لحظة واحدة .

سألت أمها ذات مرة إن كانت النساء على شاكلتها .. ضحكت أمها وقالت لها :

- الله خلق الزلمة بشهوة واحدة .. وخلق المرة بسبعين شهوة .. بس لجمها بالحيا .

افتقده عمه الحاج أحمد .. و اشتاق لمجالسته .. قال له الدوش :

- خليل بدوي مقروح .. وقع في جميز مسطوح .
- وإنت يا ابراهيم ؟
- أنا زي البل القرفان إللي شرب السجره (1) .

أنفق خليل في العام الأول من الزواج باقي مدخراته .. في العام الثاني باع حصانه ومعطفه ونياشينه وحتى حذاءه .. ولكنه لم يفرط في بندقيته .. خبأ البندقية في مكان أمين .. وظل يتفقدها كلما اشتاق لأيامه الخالية .

1. الجمل المريض الذي سقوه ماء البحر كعلاج له .

ما إن هل تشرين .. حتى كان الحاج أحمد قد جند معظم أهل الحارة لمساعدته في حرث أرض الوادي .. قال للوهايبة :

- السنة بنزرع الوادي قمح .. والسنة الجاية اشعير و إللي بعدها فول .. والناتج من الغلة بنصرفوا في غرس الوادي بالزيتون .. كل زتونة قلعوها الأتراك لازم نزرع زتونة بدالها .. عشان وادي الزيت يضل حامل إسمو .

أطاعه الوهابية عن بكرة أبيهم .. وحتى مدحت الذي هج إلي يافا مع بيت الحلواني أرسل يبارك المشروع وشفع رسالته بحفنة من البرايز .. حملت زينب صرة البرايز إلى الحاج أحمد .. ولكنه رفض أن يمد يده إلى المال ..

قال لزينب :

– والله لن أدخل على الوادي مالا حراما .. الوادي دم يونس الشهيد .. و دموع فاطمة الطاهرة .. إللي انعقدت في قلوبنا مثل حبات اللولو .. الوادي جهاد عبد الوهاب .. وتضحية جوهر .. وصبر الجازية على النوايب .

مد يده وهز سبابته في وجه زينب

–لن آخذ مالا من أحد .. إلا أن يكون طيباً من طيب .

عادت زينب إلي البيت بدموع عينيها .. تلقف الغتيت الصرة :

– هاتي المصاري .. إذا نجسين بنسبعهم (1) .. و إذا حرام بنقرى عليهم بصيروا حلال زلال .

فصل الغتيت قنبازاً وساكو وجبة و اشترى طربوشا لف عليه عمامة جديدة ناصعة البياض .. واستكمل هندامه بحذاء جديد :

قال لزينب بعد أن ساعدته في ارتداء ثيابه :

– أخ .. لو كان عندنا مراية .. لوقفت عليها ساعة .

1. بنسبعهم : غسلهم بالطين سبع مرات .. كما يغسل الوعاء الذي لعقه الكلب

دفعته زوجته إلي الحاج وهو يغمغم :

- خسارة هالكسوة تتغير في جنازات الفقرا والدراويش .. أي هادي بدها جنازة واحد من الأفندية الكبار .. أهل فوق .. الدفيعة .. لو عزريين يغرض معايا هاليومين .. وينش واحد منهم .

توقف على الباب يصلح هندامه .. تذكر كيف رفض الحاج أحمد المال لأنه من كد بنات الحلواني .. انطلق يدب على عصاه في طريقه إلى المسجد وهو يترغل :

- طيب يا بنات إبليس .

في اليوم الموعود استيقظ أهل الحارة دغشة .. حملوا قدور البامية وعدس .. وصرر الخبز والزعتر والبصل .. وعناقيد الفلفل الناشف .. ساقوا دوابهم ومحاريثهم إلى وادي الزيت .

هبت نسمات تشرين اللاذعة .. أحس الدوش بالبرد يتسلل إلى عظامه .. لف كوفيته حول وجهه ورقبته ونهر حماريه .. رغم أن الحفاء المتواصل جعل لحم قدميه سميكا مثل خف الجمل .. إلا أن الحصا المدبب الذي حلفت به الطريق كان يخترق يافوخه .

اشتد البرد .. طفر الدمع من عيون الدوش .. التفت وراءه .. كان إخوته يتباطأون في السير .

خليل ترك وراءه راضية في أيام نفاسها الأخيرة .. كان أبطأهم .

فكر خليل في نفسه :

- لقد اضطروا لإقتراض الزيت من جيرانهم لتدليك الطفل و أمه .. سقى الله أيام الزيت والزيتون .. ترى هل يعود الوادي إلى سابق عهده .

لم يخرجه من تأملاته إلا تأنيب الدوش :

-بتمشوا على بيض .. خفوا رجلكوا .. إذا وصلوا أهل الحارة قبلنا .. بتكون عيبه في حقنا .. إحنا اصحاب الحلال .. عمكو الحاج أحمد و أولادو

باتوا الليلة على رأس المارس [1] .. و هلقيت عنيه طارت وهو يتلفت عليكو .

تدفعوا خلفه .. حفارة مثله .. وأنصاف عراة .. وخلفهم نساء الوهايبة في هلاهيلهن البالية .. لشدما ما ساء حالهم بعد خراب وادي الزيت أصابتهم فاقة أكلت اللحم وعرقت العظم .. تركتهم معدمين يتكففون الناس .

خرجوا من الحارة إلى الحقول الفسيحة .. انتظموا مع الآخرين في قافلة طويلة ظلت تغذ السير حتى أشرفت على الوادي .. استقبلهم الحاج أحمد شيخ الفلحة مهللاً :

– ما بحرث الأرض إلا عجولها .. هادي الأرض البهمة الخرسة إللي طوت جدودنا واحد ورا الثاني .. صارت إمنا و أبونا .. المحاريت إللي بتشقها متل أصابع الوليد إللي بتنغمش صدر إمو علشان يلين قلبها .. وتدر بزازها عليه .

ربت على أكتاف شباب الوهايبة واحدا واحدا .. حين قامت بينهم وبين صغاره .. كانوا يتامى لا حول لهم ولا قوة .. صبية يافعين بين العاشرة والرابعة عشرة .

و ها هم يبلغون مبلغ الرجال .. يشدون هاماتهم .. وينتصبون على أرض آبائهم وأجدادهم .. يحرثون ويزرعون .. تصفحهم الحاج أحمد مستبشراً .. تذكر قوله تعالى :

(كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزارع) .. ثم هتف :

–اليوم يومكم يا أولاد .. ما ربيتك يا دمعتي إلا لشدتي .. إيديكو الطرية الناعمة بدها تيبس وتخشن وتشد على الحسيم لما يغوص في الأرض ويقلبها على الوشين .. بكرة القمح برمح رمح .. القنطار برمي عشرين :

1.المارس : القطعة المستطيلة من أرض الزراعة .. جمعها موارس .

يا الله إبراهيم .. عملهم كيف يحرتوا .. إنت عليك بإخونك .. و خليل بأولاد عزيزة و آمنة .. و أنا بحسن وحسين .

انصرف إلى أهل الحارة .. عائق الكبار وصافح الشباب .. ثم وزع عليهم الموارس .. انشغلوا بربط دوابهم إلى المحاريث .. وساقوها أمامهم بجلد وعزيمة .

انشق صدر الأرض .. مارت التربة الخصبة وانقلبت على الجانبين .. تهادت الدواب وئيدة مخلفة وراءها ثلوماً عميقة .. انقضت أسراب الطيور على الثلوم فرحة مستبشرة .. تتصايح .. وتتدافع بأجنحتها ومناقيرها لالتقاط الديدان الرخوة التي أخرجتها المحاريث من مخابئها .. وعلى طول المدى المفتوح أمامهم .. تناثرت أبيات الحلفاء الناشفة .. أما في المنخفضات وبطون السيول الصغيرة .. فقد استثىرت سيقان الينبوت .. والعوسج .

أذن الحاج أحمد لصلاة الظهر .. حلوا دوابهم عن المحاريث وتركوها ترعى .. صلوا خلفه ثم التفوا في حلقات صغيرة لتناول طعام الغداء .. سكبت النساء ما

احتوته القدور في كشاكيل الفخار .. وزعنها على الحراثين .. غطس الحراثون قرون الفلفل الناشف لكي تتخمر في حساء البامية وعدس .. و انهالوا يغمسون فيه خبزهم ويتلذذون بمضغه والتهامه .. حين انتهوا من الطعام تمددوا يريحون ظهورهم من عناء العمل .. بعضهم انصرف إلى تدخين لفافته أو حشو غليونه بالتبغ .

تأملهم خليل وقال في نفسه : هؤلاء أنباء حارتي .. الفلاحون البسطاء .. الذين سيقوا إلى الموت في حروب لم يعرفوا سبب إبتهائها.

ما هي الحرب قد انحسرت .. وعاد من بقي حياً منهم إلى الفلحة .. راضين .. قانعين .. لا يطلبون من الحياة سوى اللقمة والستر .

قالت عمته أم التوفيق حين عاد من الحرب : (أنا دعيتلك الله يعلي مراتبك .. والله قبل دعوتي) .. أية مراتب هذه التي تنتهي به إلى هذه الحالة

ترى أين استقر الحال بمولود مخلص وباقي رجال فيصل بعد أن طردهم الفرنساوية من الشام .. هل عاد مولود إلى العراق ليعنى بنخيل أبيه .. كان يقول له : (يا خليل إحنا مش فلاحين قمح وشعير زيكم .. إحنا نخالوه) .. ثم يشرح له أنواع التمور و أسماء النخيل من البنية إلى السحوق .

الوهايبة الصغار .. رزق شقيق الدوش .. وفايز وفايق أخواه من أبيه .. وحسن وحسين أبناء الحاج أحمد جلسوا يطببون أكفهم التي اشتعلت و تورمت كقناديل البحر .. من طول احتكاكها بمقابض المحاريث .

نساء العائلة جلسن غير بعيد عن الرجال للعناية بأطفالهن .. عزيزة وطفلتها العليلة .. أصغر خلفتها من إسماعيل .. ومحضية ورضيعها حسني .. و زينب وصغيرها الثالث المفطوم حديثاً و الذي لا يكف عن الصراخ .. سألت آمنة إبنة أخيها زينب عن حالها مع الغتيت .. تنهدت زينب و همست حتى لا يسمعها خليل :

- قرد موالف .. ولا غزال مخالف .

سمعتهما عزيزة فتذكرت حالها مع الدوش:

- الكّبه عليه أنا إللي أخدتو قرد ومخالف .

تأمل فايز نساء العائلة وقال لشقيقه الأصغر فايق :

- نسوان عيلتنا ما فيهم إللي بتنقض الوضو .. أي هّوه مدحت هج على يافا من قليل .
- يكون خاطرك تلحقو ؟؟!
- من كل وبد .

هتف فايق وهو يضغط على كفه المتورمة :

- خدني معك .. يافا لقمتها طرية .. وشربتها هنية .. مش زي غزة .. إللي لقمتها مغمسة بدم .

لم ينتبهوا من غفلتهم .. إلا والخيل تحيط بهم من كل جانب .. وخيالة شقر بعيون زرقاء يشرعون البنادق في صدروهم .. ثلاث شاحنات تحمل أبواباً وشبابيك ولوازم بناء .

قال الضابط بعربية مكسرة :

- إمشي من هون .. هادي مش أرضك .. كلو لازم يمشي .

ثم أكمل برطانة لم يفهموا منها شيئاً .

نظروا إلى خليل مستنجدين به .. فهو ضابط وحارب مع الإنجليز .. ولكن خليل لم يحرك ساكناً .. ظل مضطجعاً تحت الغيلابة كأن الأمر لايعنيه.

تقدم الترجمان المرافق للجند .. عرفه الدوش :

- هاد كمال فرح موظف المساحة .. إبن جريس فرح .. التاجر بخان الزيت .. خلليه يفهمنا الطابق .

أزاح الحاج أحمد البندقية عن صدره وتوجه إلى كمال :

- قلهم يا خواجا إنو وادي الزيت ملك الوهايبة .. إنت والمرحوم أبوك بتعرفوا هالكلام .. اشتريتو منا الزيت بدل المرة عشرة .

تأملهم كمال أفندي وتعرف عليهم .. ولكن ذلك لم يبدل شيئا .. قال لهم :

- أنا موظف .. يعني عبد مأمور .. إنتو عارفين إنو وادي الزيت من أراضي الفتح .. يعني ملك للسلطان .. بالتركي جفتلك .. جدودكو أخذوا الأرض مزارعة .. بحصة من الغلة .. الأتراك قلعوا الزتون .. و الأرض صارت بور .. الويركو (1) إللي عليها ما اندفع من عشر سنين .

إعترض الحاج أحمد :

- هادي سنين الحرب .. من وين بدنا ندفع والأتراك قلعوا الزتون .. وساقونا مع العسكر .

1. الويركو: ضريبة المزارعة

- النتيجة الأرض رجعت جفتلك زي ما كانت .. يعني ملك السلطان .

إحتج الدوش .

- بس يابو جريس السلطان إللي رجعتلو الأرض إنت .

رد كمال بصير نافذ :

- المندوب السامي البريطاني مطرح السلطان .. يعني الأرض المشاع كلها إللي في فلسطين صارت لحكومة الإنتداب .. و الإنجليز أحرار .. بعطوها لمين ما بدهم .

التفت الدوش إلى خليل :

- إحضرنا يا خليل أفندي .. مش هادولا إخونك الإنجليز .. وريهم النيشان إللي أعطاك إياه اللنبي .. أي إذا الأتراك قلعوا الزتون .. الإنجليز تعونك بدهم يقلعوا الأرض من شروشها .

تذكر خليل يوم ساق الأسرى الإنجليز في القطية كما تساق النعاج .. وتذكر سفالة اليوزباشي عزت التي دفعت به لعسكر الشريف .. وأنشد :

كانت شرارة نار تطفي من الندى

و أوقد لها العلام زارت لهايب (1)

– باطل .. والله لو صار الدم للركب .

نصحهم كمال أفندي :

- روحوا على المحكمة وارفعوا قضية عالمندوب السامي .. وطالبوا بحقكم.

قال الدوش :

- تشكي لمين ياللي القاضي غريمك .

1. من أقوال الزناتي خليفه في التغريبة .

نزل رجلان من الشاحنة الأولي .. ونصبوا لوحة عليها حروف غريبة .. وتحتها كتابة عربية بخط ردئ .. تهجاها حسين بصوت سمعه الجميع : (شركة مردوخ لإستصلاح الأراضي البور) .

حمل الدوش تقصيرته (1) وانفلت نحوهم :

- أي هيه نهيبة .. و الا أرض داشرة مالهاش إصحاب .. يا قاتل يا مقتول.

ترك الرجلان اللوحة .. وانطلقا يعدوان أمامه مثل أرنبين مذعورين .. اختفيا وراء الشاحنات :

- إطلعوا لي يا اولاد الميتة .

عمر الجنود بنادقهم .. وأطلقوها في الهواء .. لتحذيره .

أهل الحارة سمعوا صوت الرصاص فولوا الأدبار .. تاركين دوابهم تهيم على وجهها في العراء .

صرخت عزيزة .

- ضيعت أول بختي عشان الواد .. بديش أضيع الثاني قطع الواد وسنينو .

هبت كالمجنونة في إتجاه الدوش .. أدركته قبل أن يصل إلى الشاحنة .. تعلقت برقبته ومنعته من التقدم .. حاول الفكاك منها .. استماتت في الإطباق على رقبته .

انطلق الحاج أحمد خلف أهل الحارة منادياً بأعلى صوته :

- حي على الجهاد .. حي على الجهاد .

واصلوا فرارهم دون أن يأبهوا به :

- يا عيب الشوم عليكو .. تشردوا زي النسوان .. مش عارفين إنو الأرض عرض .. وين شرفكو .. كيف الواحد منكو بدو يعد حالو زلمه .. يفرد طولو قدام مرتو ويملي عينيها .. إخص عليكو .. إخص .

1. التقصيرة : عصا قصيرة غليظة .

رد عليه شيخ البطوش و هو في مشيته :

- لا يا حاج أحمد .. إحنا اتفقنا عالحرات .. مش الرومللي .

سمع خليل عمه يؤذن للجهاد في الفارين من أهل الحارة تذكر مقولة أبيه : عمك أحمد سندان عكس .. يا بنكسر .. يا بكسر تروس الساقية كلها .. استند في مجلسه وتابعه باشفاق .

حين اختفى أهل الحارة .. عاد الحاج أحمد يجر خطاه إلي حيث ترك الوهايبة وهو يدق صدره بكلتا يديه :

-يا قلة رجالي .. وضياع حالي .. خربت إديار الوهايبة ليوم الدين .

تعثرت خطاه وسقط على الأرض .. صرخت محضية .. هم بالنوض .. قام نصف قومة .. ولكنه سقط ثانية .. أخذ يفحص الأرض بيديه وقدميه إلى أن توقفت حركته وهمد تماماً .. جأرت آمنة بالصوت .. قام خليل من مكمنه تحت الغيلانة

واتجه إلى عمه ..حاول أن يجلسه فلم يستطع .. أخيراً حمله بين ذراعيه واسنده على ظهر الحمار ومضى عائداً به إلى الحارة والوهايبة في أثره .

(37)

لم يطل المرض الحاج أحمد .. فقد الحركة في الأسبوع الأول .. ثم ثقل عليه النطق في الأسبوع الثاني .. و بدأ إحتضاره في الأسبوع الثالث .

مشعل الذي استبدل العمامة بالطربوش .. والقنباز بالسروال اليافاوي والصديري زار غزة أثناء مرض خاله وعاده في الكرم .. جلس عند رأس خاله المحتضر .. ذرف دمعتين كان قد أعدهما لهذه المناسبة .. ثم خرج ليجلس وسط الوهايبة تحت الجميزة الكبيرة المواجهة لبيت خاله .. حيث نصب الدوش بكارج القهوة .. حدثهم عن نجاح دكانه في يافا و أنه يزور غزة كما يزور باقي مدن فلسطين لكي يتبضع لدكانه .. أكد لهم مشعل أن إبن خاله مدحت وهبه يعمل وكيلا في ميناء يافا

لأحد مصري البرتقال الكبار و أن ما يدخل عليه في يوم واحد على الوهايبة مجتمعين في سنة كاملة .

قاطعه الغتيت مباهياً بنسيبه :

- صحيح مدحت نبيه من يومو .. لكن التربايه إلها حق .. أنا ربيتو ترباية ذوات وأكابر .. مدحت اتعلم الإنجليزي من أول سنة شحتنا فيها .. قصدي اتعاملنا فيه مع عسكر الإنجليز .

سكت هنيهة كأنه ينتظر تعليقا على هذره .. لكن الآخرين التزموا الصمت احتراماً لما هم فيه من الحزن .

شجع صمتهم الغتيت فمال على مشعل .

- أكيد مدحت غايص في بنات الحلواني .

شخر مشعل :

- وايش يطلعوا بنات الحلواني جنت اليهوديات إللي بتحدفهم البواخر .. بنات زي الألماظ .. إللي من روسيا و إللي من ألمانيا و إللي من بولندا .. أي مدحت من كتر ما مر عليه يهوديات صار يحكي عبراني لبلب .

هتف الغتيت :

- إوعدنا يا رب :

ثم تعرض في مشعل :

- خدني معاك على يافا .

- إيش تعمل في يافا ؟

- أشحت عاليهود .

- ما بشحتوش حدا .. الله وكيلك جايبين شحاتينهم معهم .. ما هيه البواخر بتلم يهود من كل المواني .. وبتصب في يافا .. خمير على فطير .

قبل أن يغادر مشعل همس في أذن خليل :

- الإنجليز أعطوا مهلة للي عندو سلاح يسلمو .. وبدفعوا في البارودة مية ليرة .. وبعد ما تنتهي المهلة .. إللي بلاقوا عندو فشكة (1) بدهم يشنقوه .

لم يعلق خليل بشئ على ما قاله مشعل .. كان الأمر لا يعنيه من قريب أو بعيد .. وحين انصرف مشعل غمغم خليل :

- مابقطع الراس إلا إللي ركبو .

* * *

قبل أن ينصرم الأسبوع الثالث على سقوط الحاج أحمد .. فتح عينيه .. وطلب خليل .. أشار له بالجلوس إلى جواره :

- أنا رايح يا بن أخويا .
- على وين يا عمي .. بدك تروح وتتركنا وراك ؟
- رايح بالسلامة .. على أمي وأبويه وإخوتي .. ورحمة الله الواسعة إللي وسعت السموات والأرض .

سكت الحاج أحمد وهو يغالب سكرات الموت .. ثم عاد صوته جلياً واضحاً :

1. فشكه : كلمة تركيه تعني الرصاصة

– مسح دموعك يا خليل .. خلي البكا للنسوان والعجز .. إنت اليوم كبير الوهايبة وعقيدهم .. الحمل إللي وقع عليك بدو اكتاف قوية .. الوادي ياخليل .. وادي الزيت أمانة الله في رقبتك ورقاب الوهايبة كلهم .

مد يده إلى ابن أخيه .. احتضن خليل اليد الممدوده بكلتا يديه :

– هادا عهد مين ؟

عض خليل على شفتيه :

- عهد الله يا عمي .
- ونعم بالله .

خفت صوت الحاج أحمد حتى تلاشى .

تحت الجميزة .. حيث تجمع أهل المحتضر قال الغتيت :

- مش الوهايبة إللي بدهم يخسروه .. الوهايبة ونسايبهم وكل أهل الحارة .

ثم أتبع شهادته بانخراطه في بكاء مرير .. كان بشعاً دائما .. ولكن بكاءه ضاعف بشاعته .. أشاح الحضور بوجوههم عنه .. إلا أبو التوفيق الذي تأمله طويلا ثم هتف :

- بلاش البكا والعياط .. بتخاف على عينيك .

ضحك الحاضرون والدموع في أعينهم .. زاد البكاء الغتيت .. كأنه يبكي عمره الذي ضاع هدراً .. أخيرا هدأ الغتيت .. أخرج منديله ومسح دموعه .

بعد صلاة المغرب تجمع وجوه أهل الحارة يطلبون للمحتضر الرحمة .. و لأهله الأجر .. بدأ الغتيت قراءته عن روح المحتضر وحين وصل إلى قوله تعالي .

((الذين تتوفيهم الملائكة طيبين .. يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون)) .

كان صوته غاية في الصفاء والعذوبة .. حتى أبو التوفيق استمع إليه مأخوذا .. وهو يخفي دمعة فرت من عينيه .

لفهم الشجن ..هبت رائحة زكية كأنها نفخ الطيب .. سطعت شواشي الجميزة وانهمر الضوء داخل الغرفة الطينية حتى طغى على نور القنديل .

استند الحاج أحمد بمرفقه على حافة الفراش .. أسنده الدوش بالوسادة وتأمل وجهه .. كانت ابتسامة عريضة ترتسم على شفتيه .. اختفت الغضون و الأخاديد التي حفرها الزمن .. وبدا وجهه نضرا مستبشرا .. أدرك الجميع أنها صحوة الموت .

فتح الحاج أحمد عينيه على سعتهما .. دار بهما في فضاء الغرفة دون أن تستقر على وجه أحد منهم .. تجاوزهم جميعا وحدق في الاشئ .. حبسوا أنفاسهم وهم يتابعون إطلالته على حافة الأبدية .. أدركوا أنه يرود عالما لا يتسنى لأحد غيره أن يراه .

ظل يغمغم طوال الوقت : (صدق الله العظيم .. صدق الله العظيم) .

انحنى خليل ليلتقط ما يردده عمه المحتضر وسأله بحنو بالغ :

- هل قلت صدق الله العظيم ؟

أشرقت أسارير الحاج أحمد ونطق بصوت يفيض طمأنينة ورضى :

- نعم يا خليل .. ذلك تصديقا لقوله تعالى : (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا تعملون) .

هبت من النافذة ريح رخية فاغمة بالشذى .. تماوج شعاع القنديل .. ظل يعلو ويخفت .. أخيراً .. شهق شهقته الأخيرة وانطفأ .

خيم الظلام والصمت .. أغلق خليل عيني عمه .. وعلا نحيب الحاضرين .

***

في العزاء فوجئوا بعودة مدحت .. دخل مجلس العزاء متأنقا ببدلة أوروبية و صديري وطربوش .. في يده منشة من العاج .. من جيب سترته يطل منديل حريري .. ومن الجيب الآخر تتدلى سلسلة ساعته الذهبية .. أصابعه مليئة بالخواتم .. نفض الغبار عن أكمام بدلته .. أصلح ربطة عنقه السوداء .. صافح أبناء عمه بأطراف أصابعه .. ووقف بينهم يتقبل العزاء .

حين انصرف المعزون .. جلس يتماهى عليه .. قال الدوش :

– تعال معايا على يافا .. العتال في المينا يوميتو ربع ليرة .. خمسة وعشرين قرش .

قال الدوش :

- وعزيزة ؟! وأولاد أخوك المرحوم اسماعيل ؟!

رد دون أن يطرف له جفن :

- جيبهم معك .. خليهم يربعو في هالنعمة .. يافا بلد خير .

سأله رزق وكان يعمل في الفاعل :

- وكارنا إلو سوق هناك ؟

قال مدحت :

- البنايين والنجارين والصنايعية ملوك في يافا .. البنا والعمار قايم قومة وحدة .. يافا صار البحر فيها للخلخال .

قال خليل :

- أنا خايف تكون إنت إللي بتعمل البحر طحينة(1) .

رد مدحت

1.كناية عن الرواي المخادع الذي يصور الأمور بما يوافق هدفه (المثل الشعبي : بعمل البحر طحينه) .

– الميه بتكذب الغطاس يا خليل أفندي .. والشغل في المينا ما بخلص .. مش زي الشغل في غزة موسم آه و موسم لا .. قبل ماآجي وصلت المينا عشر بواخر قمح من استراليا .. ريس المينا قال لي يا مدحت بك .. بدنا عمال تنزل القمح من البواخر .. في عندك عمال .. دلهم علينا .

إعترض الدوش :

– العمال في مدينة يافا طول عمرهم بحملوا القمح .. مش بنزلوا قمح .. يكون إنت غلطان ؟؟ .

أخرج مدحت علبة تبغ أنيقة .. فتحها واستخرج لفافة حشر طرفها في مبسم عاجي .. وضع المبسم في فمه .. أشعل السيجارة بولاعة ذهبية :

- المندوب السامي البريطاني قال للتجار بيعوا القمح الأسترالي إللي جايباه البواخر (نيكست توفري).

سأل الغتيت متلهفاً .

– إيش يعني ؟

نفث مدحت دخان سيجارته في وجه الغتيت :

- يعني بسعر البلاش .

تنهد خليل .

- الخية في إيد الإنجليز .. وبضقوها على رقبتنا شوية شوية .. لما يبور القمح بتبور الأرض .. وكبار الملاك إذا الأرض ما دخلت عليه ريع أول سنة وتاني سنة رح يبيعوها لليهود .

لم يعيروه أذنا صاغية .

همس أخوه غير الشقيق فايز في أذن مدحت :

- أنا رايح معاك على يافا .

هتف حسن كبير أبناء الحاج أحمد :

- وأنا كمان .. بس يمر أربعين المرحوم بتلاقوني عندكو .

نهض خليل مهموماً إلى بيته .. تذكر صديقه سعد الدين وكراهيته للإنجليز .. وكيف حاول قتل لورنس .. كان كلما اصطدم بمراوغة الإنجليز وخستهم يقول له :

– عزيز المصري طلع أفهم منا كلنا .. ونظرتو في الإنجليز ما خابت .. ثم يردد في أسى :

يا طالب النصر من أعداك مت كمدا

كطالب الشهد من أنياب ثعبان

استقبلته راضية على باب البيت تقدم له العزاء في عمه .. كان عزاء حاراً على طريقتها .. التصقت به .. وحين تأكدت من استجابته قادته إلى الفراش .. ظلت حفية به حتى انفثا حزنه وهدأت ثورة قلبه .. اضطجعا متعانقين .. قبل أن يستسلما للنوم قالت له :

- صاد الفخ يا خليل .. أنا الليله حبلت .. وإذا الله أطعمنا ولد بدنا نسميه أحمد على إسم المرحوم .

كانت راضية تحب خالها الحاج أحمد .. ولاشك أنها حزنت لفقده ولكنها منذ تزوجت خليل لم تفوت على نفسها ليلة واحدة إلا أن يحال بينهما .

استيقظ خليل مبكراً على غير عادته .. انسل من ذراعيها المعقودتين حول عنقه .. تفقد ولديه فاطمة ومحمد .. وأحكم عليهما الغطاء .

حمل علبة سوداء صغيرة وخرج بها إلى الكرم .. حفر عميقا تحت جذوع الصبر .. أخرج صفنا (1) من الجلد بداخله لفائف من الثياب البالية أزاحها بأصابعه .. لمعت حربة بندقيته كما تلمع نجوم السماء .. تحسسها بلهفة .. فك أجزاءها وانصرف إلى تشحميها بعناية .

1.صفناً : كيس أو جراب .

استيقظت راضية .. تحسست الفراش إلى جوارها فوجدته خالياً خرجت إلى الفناء تبحث عنه .. أخيراً عثرت عليه متلبساً :

- هادي البارودة ضرتي .. وقتيش بدي أخلص منها .. يا زلمة بيعها.. ووسع علينا .. بقولوا الإنجليز بشتروا البارودة بمية ليرة .

قال يعيد تركيب أجزاء البندقية :

– صبرك بالله يا راضية .. راح يجي يوم تصير فيه هالبارودة بكنوز الدنيا .. و إللي راح يشتريها مني .. إللي اشترى من الناس أموالهم وأرواحهم .. أعطاهم الجنة .

صدر للشاعر

نـوديـت بـاسـمي
ديوان شعر
دار الفارابي
بـيــروت عـــام 1980م

✵ ✵ ✵

العنقـاء (النسخة العربية)
روايـــة
دار سبيل للنشر
ملبورن ـ استراليا عام 1989م

✵ ✵ ✵

العنقاء (النسخة الإنجليزية)
“ ترجمت على نفقة وزارة الثقافة الأسترالية “
وصدرت عن دار *PAPYRUS PUBLISHONG GOUSE*
ملبورن ـ أســتراليا 1994م

✵ ✵ ✵

متـى تُـرِكَ القطــا
ديـوان شــعر
دار النورس للنشر
غـــزة ـ عـــام 1996م

✵ ✵ ✵

ديــرة عشــق
ديوان شعر بالعامية الفلسطينية
دار النورس للنشر
غـــزة ـ عـــام 1996م

✵ ✵ ✵

الخـل الـوفـي

روايـــة
دار النورس للنشر
غـــزة - عــام 1997م

✵✵✵

زهرة الحبـر ســوداء
ديوان شعر
دار النورس للنشر
غـزة - عــام 1998م

✵✵✵

الغـــول
روايـة
دار النورس للنشر
غـزة - عــام 1999م

✵✵✵

دار النورس للنشـر
ص.ب 507 تليفون 2833053 -07 فاكس 2833023-07
غزة ـ فلسطين ـ الطبعة الثانية 1999